# الأسياد

رواية

حسن كمال

دار الشروق

الأسياد

حسن كمال

تصميم الغلاف: وليد طاهر

الطبعة الأولى ٢٠١٥

تصنيف الكتاب.



٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تلفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٦٦٧٨/ ٢٠١٤
ISBN 978-977-09-3332-9

حسن كمال

# الأسياد

رواية

دار الشروق

# إهداء

إلى من يغردون خارج السرب، ويسعون بعيدا
عن القطيع، ويدفنون في مقابر الغرباء...
لأنهم كانوا يبصرون.



- تنتقل المشيخة بشكل رأسي في أبنائي وأحفادي، يرثها الذكر الأكبر من الأبناء.
- المشيخة تكليف سماوي، لا يجوز رفضه، فإذا جاءت المشيخة لأحد أحفادي ورفضها فلا تنتقل لمن بعده. بل تظل معلقة إلى أن يأتي من يقتله فتصبح المشيخة من حقه وحق ذريته
- الرافض يقتل بيدين عاريتين أو بآلة حادة، ولا يجوز قتله بسهم أو رمح من على بعد ليعرف من قتله ومن تنبغي له المشيخة.
- لا يجوز للشيخ أن يتنازل عن المشيخة قبل أن يمر عليه في كرسيه مائة يوم بالتمام والكمال وإلا يصبح في حكم رافض المشيخة.
- الشيخ لا يمرض ولا يعتل فإن حدث له ذلك كان دليلا على نزعها منه، ويصبح لزاما عليه أن يتنازل عنها أو يتم عزله، ولمن يعزله الحق في المشيخة.
- إذا نوى الشيخ التنازل، فإن عليه أن يسمي في اليوم التاسع والتسعين من سينعم عليه بالمشيخة من بعده. وله أن يتنازل عنها بعد ذلك في الأيام التي تحمل مضاعفات المائة.

- لا مشيخة لامرأة ولا لطفل ولا لمعطوب
- لا يجوز تسليط الجان أو عقد السحر أو نفثه في داخل حدود البلدة. عيشوا إخوة.
- نشيخ دجا على أهلها الطاعة. وله عليه البركة. فإن عصاه أحدهم فلأحرقته بعصبتي التي لا تعرفونها ولا ترونها. والتي ستحيا بينكم إلى الأبد.

**من وثيقة داعو الحاكمة.**

## (١)

- للكذب ثلاث أرجل.

قالها بشير وهو يغرس وسطاه وسبابته وإبهامه في الهواء كما لو كان يشقه، صوته الجهوري الغاضب جعل كل من في القطار ينظرون إليه في دهشة، نكّس رأسه في حرج وهو يمسك بدفتره البني الصغير الذي يسجل فيه أفكاره، تظاهر بأنه كان يقرأ منه، انتظر إلى أن أدار الجميع رءوسهم بعيدا، ثم كتب:

«للكذب ثلاث أرجل.. الأولى هي أن تجيد الكذب، والثانية أن يتوافر لك عدد من الحمقى الذين يكررون الكذبة بلا وعي، والثالثة هي أن يكون من يعرفون الحقيقة جبناء بما يكفي ليسكتوا عما يعرفون أنه كذب».

الأسطورة لازالت تطارده؛ هذا ما اكتشفه بشير بعد أن ظن بأنه تخلص منها إلى الأبد، تلك الحكاية البلهاء - أو العبقرية - التي يسمعها منذ صغره، كانت مصدر فخر له يوما، ثم أصبحت مصدر شك وانتهت بأنه ينكرها تماما ويريد أن يخرج منها لكنها تطارده بلا هوادة، ها هي تعيده إلى هناك مرة أخرى، تجره جرّا، خلفه يجلس ذلك الرجل الضخم الذي قال له بمنتهى الحزم والصرامة إنه لن

يعود بدونه، لم يتكلم بعدها مرة ثانية، ولم يحاول بشير أن يقاومه أو أن يناقشه؛ فقد أدرك أنه يعني تماما ما قال.

أدرك بشير منذ زمن أنه انحرف عن الطريق، لم يكن ذلك بإرادته ولا رغما عنه، تغير تلقائي وتدريجي بما يكفي لكي لا يشعر به أحد إلى أن يتم. مدينة أخرى وبشر وكتب وعقول وسنوات تمر. كل ذلك كان كافيا لتشهد رأسه تحولا كبيرا، أصبح يفكر في كل ما تعلمه منذ طفولته المبكرة، تمتد يده إلى مناطق وضعوا عليها منذ سنوات طويلة لافتة حمراء مكتوبا عليها: ممنوع الاقتراب. لم يعد السمع مقترنا بالطاعة في عقله كما اعتادوا أن يتداولوا الكلمتين معا؛ فهم ليسوا إلها. أصبح يدس بينهم العقل؛ السمع والعقل والطاعة أو الرفض.

السنوات الأربع الأخيرة في حياته والتي قضاها في دراسة الفلسفة في جامعة القاهرة شيدت المزيد من الحواجز، بعد العامين الأولين حسم أمره تماما. لم يعد قادرا حتى على التظاهر بالتصديق كما يفعل عدد كبير منهم، على العكس؛ تعمد إظهار استنكاره للأمر برمته في الزيارة الأخيرة وهو يعلن أنه لم يعد صالحا حتى لمجرد حياة عادية هناك، لم تكن معركة ضارية كما توقعها، توسلاته وذكريات يوم مشابه في عقل الشيخ منحاه اتفاقا بالسماح له بأن يعيش في القاهرة إلى الأبد كما أراد، حصل على حريته كاملة. ما الذي تغير الآن؟ لن يعرف إلى أن يصل. إلا أن الطريقة التي تم إبلاغه بها بأن عليه العودة فورا تؤكد أن هناك تغيرا ما، أو ربما محاولة أخيرة منهم لانتزاع اتفاق جديد.

صدق أو لا تصدق.

دائما كانت تلك الجملة هي بداية حديث بشير عندما يشرع في تقديم حكايته لمن لا يعرفها وهو يضحك ساخرا بملء فيه، حتى سخريته بالأسى عندما يكون وحيدا ويبدأ في التفكير في كل البشر الذين عاشوا وماتوا في خرافة كبيرة لم يستطيعوا أن يتخلصوا منها حتى الموت، لم يتوقفوا يوما ليسألوا أنفسهم عن حقيقة ذلك الأمر الذي جعلهم يعيشون في عبودية أبدية لأسرة واحدة.. هو وحده توقف وقرر أن يتحرر من تلك الحياة رغم أنه لا ينتمي إلى العبيد في بلدته، بل ينتمي إلى الطرف المستعبِد؛ السلالة النقية كما يطلقون عليهم؛ درجة أولى من البشر.. مثلهم كمثل عربة القطار التي يجلس هو فيها الآن.

الحكاية طويلة، فجده الأكبر (داعو) كان ملكا من ملوك الجان وتنازل عن ملكه وعن كل قدراته الخارقة وعن عمره الطويل؛ لكي ينضم إلى عالم البشر بكل ما له وما عليه. صدق أو لا تصدق، بشير لم يعد يصدق رغم أنه سمع الحكاية آلاف المرات، أرضعوها لهم جميعا صغارا ثم أطعموها لهم في شبابهم،غرسوها فيهم غرسا. ربما لذلك ورغم كل ما يدور في ذهنه عندما يتحدث في ذلك الأمر حتى مع نفسه، يصاب باضطراب غامض.

كيف يستطيع أن ينكر فجأة كل ما سمعه طوال تلك السنوات في حكايات الأجداد وفي أحاديث كبار أهل البلدة.. وحتى في الأغاني التي يرددها الجميع في المناسبات المختلفة؟

داعو لما طلع من باطن الأرض كان جوفه نار

رفع إيديه للسما وقال: يارب ياغفار

بدي أكون من طين وتكون لي أرضك دار

قاله الإله: كن خلط النيران بالطين صبح فخار

هكذا طبقا للحكاية أصبحت بشرة جده الذي كان أبيض كصفحة اللبن، سوداء لامعة كما لو كانت إناء فخاريًا خرج حديثا من النار، وهكذا انتفخت شفتاه من جراء الحرارة التي بدأ يشعر بها بمجرد تحوله إلى بشر، ثم اتسعت عيناه من الألم، فصرخ طالبا الرحمة، فاستجيب له، ثم ثبتت ملامحه على ذلك الوضع، وعاش سعيدا بذلك فلم يكن السمار أو السواد يعني له الكثير، على العكس، أسعده في البداية أن يكون هو الإنسان الوحيد على وجه الأرض (التي كان عدد من يعيشون عليها محدودا في ذلك الوقت) الذي يملك ذلك اللون الأدكن والملامح القوية، كان يراها كرامة. وحتى بعد أن تزوج من امرأة بيضاء أنجب منها خمسين طفلا نصفهم من الذكور ونصفهم من الإناث، أسعده أن أولاده جميعا جاءوا بنفس درجة السواد أو أفتح قليلا، كانت أعداد البشر تتزايد، وظهر جيل جديد من الأطفال كان يتساءل عن ذرية داعو ذات اللون المختلف. عندما اشتكى له الصغار من سخرية الآخرين، وقف داعو ينظر أمامه ودعا ربه أن تنجب كل النساء الحوامل مابين البحرين في ذلك الاتجاه أطفالا يشبهونه، حدث ذلك على الجبل الذي يطلق عليه اسمه (داعو) وهو ينظر جنوبا

من هنا، جاء كل الأطفال جنوب ذلك الخط سود البشرة. الحقيقة التي يعرفها أهل دجا جيدا ولا يعرفها سواهم، أن البشرة السوداء بدأت في إفريقيا بين البحرين وجنوب ما كان داعو يقف، وأن لا علاقة للأمر بخطوط الطول والعرض ولا الحرارة والبرودة، الأمر له علاقة فقط بدعوة جده داعو؛ لهذا لن تجد مكانا آخر في العالم يحتوي على كل هذا العدد من أصحاب البشرة السمراء، فكلهم جاءوا من هذه المنطقة، ثم انتقلوا إلى أماكن أخرى فنشروا اللون الجديد في كل أرجاء الأرض.

طالما تساءل جادًا في طفولته ثم ساخرا في المراحل الأخرى من عمره: «لماذا لم يطلب جدي ببساطة أن يتحول لونه ولوننا إلى اللون الأبيض؟». ألم يكن ذلك أبسط وأجمل؟ سأل جدته يوما ذلك السؤال فنظرت إليه غاضبة واستغفرت، ثم أحضرت مرآتها الفضية القديمة ونظرت فيها مليًا ثم انفجرت في الضحك وهي تقول: الله يرحمه!

لم يجد تفسيرا لوجود عدد كبير من أصحاب البشرة البيضاء الصحراوية الذين يلقبون بالأرانك سوى وصف جده لهم بأنهم من النازحين، إلى أن غادر بشير ومصادر معلوماته محددة بعدد من الأشخاص يسمح له بالحديث معهم منفردا، وبأماكن معدودة يسمح له بالذهاب إليها بمراقبة هؤلاء.

حاول أن يحصر كل ما يدعم تلك الأساطير فلم يجد سوى أدلة هشة؛ أولها أنه ينتمي إلى سلالة معمرة بشكل ملحوظ، جده عثمان

فقط مات في الستين من عمره في حادث سيارة على طريق أسوان النوبة، أبو عثمان نفسه عاش حتى تخطى المائة، وجده تخطى المائة والعشرين، والأعمام والأخوال كذلك، من يمتْ عندهم قبل الثمانين يعتبر (مخطوفا)، مثلما كانت أم سعد تقول عندما سمعت عن وفاة أحد زملائهم في الكلية.

الدليل الثاني، أن تلك الأسرة بالفعل نادرة المرض جدًا، والحالات التي أصابتهم فيها علل ظاهرة عزوها مباشرة إلى الدم المختلط بين دماء آل داعو وبين دماء البشر الآخرين، رغم أنهم لا يتزوجون إلا من نفس السلالة، كالعادة ربما تحدث أخطاء أو زيجات سرية لا تنكشف إلا عندما يصاب أحد أفراد الأسرة بالمرض فيكون ذلك دليلا دامغا على أنه ليس صاحب دماء نقية، وأن هناك من الآباء أو الأجداد من تزوج بعرق غير نقي، ومع استحالة استخراج كل الأجداد من قبورهم يُكتفى بتلك الفكرة ولا يحتاج أحد إلى المزيد.

لتلك الأسطورة بالتأكيد فوائد خاصة؛ فهي تساعد على استبعاد البعض من سلسلة من يستحقون المشيخة من أبناء داعو، هكذا ابتعد ناندو عن استحقاق المشيخة، وهكذا أبعد جده كل إخوته عن المشيخة. لم يكن الأمر يحتاج إلى تحاليل ولا إلى صور أشعة ولا أطباء، يكفي أن يخرج الشيخ عثمان في الصباح حزينا ليقول في حشد من أهل البلدة إن حسان مريض أو عدنان معتل ليعني ذلك استبعاده من وراثة المشيخة، ولتنهال على الشيخ التعازي وتمنيات الشفاء.

الدليل الأخير الذي يعرفه بشير جيدا؛ أن كل الحيوانات تكرهه

، سحاب مه، الكلاب تزوم، قطط الشوارع تجري مبتعدة، حتى أسد حديقة الحيوان الهزيل أصيب بحالة هياج عنيفة كادت تودي بعقله عندما وقف ينظر إليه، وقالت نور لحظتها:

كما لو رأى عفريتا..

في النهاية يرى بشير أن كل هذا الهراء الذي يؤكد أنه يحمل سيا من الجان في دمائه لا يساوي شيئا. حتى وإن كان وجد عند أمه وفي بلدته ملايين الحكايات الأخرى التي تؤكد له ذلك، فهو يعرف جيدا أنه مجرد بشر، فلا نجح في أن يمشي على الماء ولا أن يخترق الحوائط. مجرد كائن بشري بسيط.. ربما يكون طويل القامة وقوي البنية شيئا ما، إلا أنه رأى العشرات ممن يفوقونه طولا وعرضا، شاب عادي يحمل بشرة سمراء، وعيونا واسعة وأنفا دقيقا حادا غير مفلطح، شعره فقط يبدو مختلفا، أطاله على مدى أعوام بقائه في القاهرة إلى أن أصبح كثيفا هائشا، في زيارته الأخيرة لبلدته احتضنته أمه بين قدميها وجمعته على شكل ضفائر إفريقية صغيرة، وتركه بشير ينمو على حاله، بعد ذلك أصبح الجزء الذي يغطي رأسه معقودا بالشكل المعتاد ونهاياته ضفائر عديدة، يتركها تنسدل على كتفيه أحيانا ويجمعها في حزمة واحدة غالبا، نور كانت تقول عنه إنه أجمل شاب أسمر البشرة رأته عيناها، وإنه يشبه تماما ممثلا أمريكيًا حصل على لقب الأكثر وسامة في هوليوود العام الماضي. أخذته من يدها إلى السينما لكي يراه، فانفجر بشير ضاحكا بمجرد رؤيته، ثم هز رأسه مؤكدا أنه يشبهه تماما بعينيه الزرقاوين وأنفه الدقيق المخروطي وشعره الأصفر القصير.

ضم ما قالته عنه نور إلى قائمة الخرافات التي تحيط به من كل جانب. رأى جليًا أن نور مؤمنة بما تقوله رغم عدم وجود أي شيء يشتركان فيه، تماما كما لم يرَ في نفسه أو في أسرته أو في القادمين من ذرية داعو ما يؤكد أنهم عفاريت غير كونهم نجحوا في إقناع كل من يعيشون في قريتهم ألا أحد يحق له أن يكون شيخا في هذا المكان إلا من يملكون الدماء الخارقة المخلوطة بدماء الجني الأكبر داعو.

* * *

(٢)

أراح ظهره على كرسيه فشعر بوخزة عنيفة، استدار ليجد واحدة من السوست قد قفزت بطرفها المعدني الحاد، هز رأسه في استياء غاضب وهو يتنهد هامسا:

- لم يعد هناك شيء واحد مريح في هذا القطار!

أجاب نفسه على الفور:

- ويطلقون عليها الدرجة الأولى..

سجل ذلك على أنه كذبة أخرى في دفتره، ثم توضيحه لها تفصيليًا: هذه هي أفضل الدرجات في هذا القطار، فالدرجات الأخرى تكاد تكون غير صالحة للاستخدام الآدمي. كان من الأصدق أن يطلقوا عليها مثلا (أفضل ما لدينا)، هكذا يفهم الراكب عندما يطأ العربة أن الدرجات الأخرى أسوأ، ولا يلوم شركة القطارات على أنها أطلقت اسم الدرجة الأولى على عربة انتهت صلاحيتها منذ سنوات عديدة.

تنهد في توتر، كل مناهج الفلسفة التي درسها لا محل لها من الإعراب في حياته، لاشيء هنا يحتاج إلى فيلسوف على الأقل حتى

هذه اللحظة، يحتاجون إلى شرح البديهيات وإعمال العقل البسيط بحثا عن حقائق لا تستدعي الفلسفة، أو على الأقل الإنصات للفكرة حتى وإن تعارضت مع ما اعتادوا عليه. للحظة تخيل بشير نفسه يحضر طلاء يغطي به اسم الدرجة على جانب القطار، ثم يدور على الركاب واحدا تلو الآخر ليؤكد له أن شركة القطارات محتالة، وأن هذه ليست درجة أولى، ويطالبهم بإيقاف القطار إلى أن تعد لهم الشركة ما يستحقونه. أطلق ضحكة قصيرة بغير وعي وهو يتخيل ما سيفعل فيه، صاح مختصرا كل ما يدور في رأسه:

- أنكا!

ثم تلفت في حرج مرة أخرى متمنيا ألا يكون في العربة من يفهم اللغة القديمة.

لا يستطيع بشير أن يسيطر على نفسه عندما يكون تحت ضغط شديد، يرتفع صوته بالحديث مع نفسه في أي مكان وتحت أي ظرف حتى يبدو للجميع أنه مجنون تماما مهما بدا ما يقوله كلاما عاقلا أو في محله، وفي ذلك اليوم تحديدا كان الأمر بالفعل يفوق احتماله.

- وديع..

هكذا جاءت الصيحة صارمة من السيدة الثلاثينية التي تجلس في مقدمة العربة، كانت تنهر ولدها الذي يلهو بكرته الصغيرة بعشوائية إلى أن أصابت أحد الركاب في عينه فبدأ في سب الصغير الذي ضحك في استهتار، ابتسم ساخرا من اسمه الذي كان يزعج

الحميم، اللهجة الصعيدية التي نطقته أعطت به إيحاء مختلفا لكنه
.اســه أكثر من الاسم الأصلي..كرر بشير وراءها في تأكيد.

. وضيع.

أسماء البشر أيضا تحتاج إلى مراجعة مثل أسماء الدرجات،
في الجامعة سمع أحد الأساتذة يقول بثقة إن لكل إنسان من اسمه
حصا، يومها فتح دفتره وكتب مقولته ثم شطبها أيضا كاتبا تحتها:

لكل إنسان من فعله نصيب. لا دخل للأسماء بالأمر، أنا مثلا
امنت بشيرا.

* * *

بشير الدجاوي. بفتح الباء كما ينطقون بها في الجنوب، لم
يستطع أبدا أن يحل لغز كسر اسمه في القاهرة، لكن هذا ما فعله
كل من التقى بهم هناك تقريبا عدا نور، من أول يوم وحتى آخر لقاء
وهي تناديه: بَشير.

كان يكرر السؤال على كل من يقف إلى جواره عندما يسمع
الكسرة. لماذا تكسرون الأسماء في القاهرة؟ بِشير، يِحيى، يوسِف؟
انفجر يوما في الضحك عندما سمع زوجة غفير البناية المجاورة
تنادي ولدها بلهجة ممطوطة: يا عِلاء. شعر أنها تسبه ولا تناديه
بعد أن ربط بين ندائها وبين واحدة من الشتائم التي سمعها لأول
مرة عندما وطأت قدماه أرض العاصمة.

اقتنع بأن الحروف المكسورة أسهل في النطق القاهري، لكن
نور هدمت نظريته في لحظة عندما حكى لها فضحكت، ثم أردفت

بأن مدرس اللغة العربية في مرحلة الثانوي قضى الأعوام الثلاثة محاولا معهم لكي يتوقفوا عن فتح الميم عندما ينطقون باسم مصر، قالت ساخرة:

ـ نحن الذين فتحوا الوطن وكسروا البشر..

شردت قليلا ثم تنهدت بوقار وهي تقول:

ـ الله يمسيه بالخير، كان رجل..

نظر إليها منتظرا أن تكمل، تبدلت ملامحها فجأة وهي تحاول أن تكتم ضحكاتها قائلة:

ـ كان رجلا.. عِلاء، بصباص وعينه فارغة!

في ذلك اليوم أضافت نور مفردة جديدة إلى قاموس مفرداتها الساخرة، الرجل العِلاء! ثم عادت لتعقب على الحوار:

ـ بلدتكم أيضا مفتوحة يا بشير؟

هز رأسه موافقا. أكد لها أن الدال مفتوحة وليست مضمومة كما يظن الكثيرون لأول وهلة عندما يرون اسمها على الخرائط القديمة، بينما تغيب تماما عن الخرائط الأحدث، لا يدهشه أن أحدا لا يعرفها أو يذكرها؛ فهو شخصيا كاد ينساها في السنوات الأربع التي قضاها بعيدا عنها أثناء دراسته في كلية ا' ـ جامعة القاهرة. يحتفظ فقط بين دفاتره بخريطة قديمة توجد فيها دجا كنقطة صغيرة في الجنوب الغربي للنوبة القديمة، يتطابق وصفها على الخريطة بوصفها في قلبه حاليا، نقطة سوداء صغيرة، حسنة كما يسمونها في العامية المصرية

الذي يجعل نقطة سوداء على الجلد تسمى بالحسنة رغم أنه ... جميلة عالية؟ وماالذي يجعل بقعة سوداء صغيرة أخرى نعتبر وطن؟ لا شيء، مجرد مسميات، فلا الحسنة حسنة ولا دجا وطن. هكذا كان يردد في نفسه، ثم يهمس بصوت مسموع:

ويلك يا بشير إذا عرف الدجاوية ما يدور في رأسك.

دجا لعنة لأسباب كثيرة. كل ما كان يحتاجه هو أن يرحل عنها وينظر إليها من بعيد لتتغير نظرته إليها تماما. لا شيء هناك واضح على الإطلاق، حتى أصلها، يدعي البعض أنهم من أصل مصري والآخرون أنهم من السودان، وآخرون يدعون أنهم من أصل نوبي وأن النوبة هي كيان مستقل لا يتبع مصر ولا السودان، ولم يفسر له أي من الثلاثة وجود عدد كبير من الدجاوية يحملون بشرة قمحاوية أو بيضاء أحيانا لا مثيل لها في المنطقة المحيطة بدجا.

الملونون يعلنون أن دجا هي جزء من مصر يشبه كل الأجزاء الأخرى، وتختلط فيها كل الألوان. أما أصحاب البشرة الدكناء مؤكدون أن أصحاب الجلود الملونة هم من جاءوا بفقرهم ليأخذوا من خير البلدة وبركتها، رغم أن بشير لا يرى فيها على الإطلاق ما يكفي لإقناع أي كائن للنزوح إليها. الخلاصة أن هؤلاء الملونين يعاملون على أنهم من الدرجة الثانية في البلدة، يعيشون على الهبات ويحظر عليهم تماما العمل في تلك المهنة التي يشتهر بها أهل دجا، والتي يجيدونها تماما.

أول مرة أدرك فيها أنه يتغير عندما وصفها لنور قائلا:

ـ أنا من مكان يبعد عن القاهرة آلاف الكيلومترات وعشرات السنوات. أنا من أسفل الخريطة.

أجابت نور في جدية:

ـ دجا يكفيها أن تنجب شخصا جميلا مثلك.

ضحك ساخرا:

ـ دجا تنجب الكثيرين ممن هم مثلي، بشرة سوداء وملامح طيبة وضحكة تضيئها أسنان بيضاء لامعة.

نظرت إليه في إعجاب وهي تقول:

ـ لو كل شباب دجا مثلك، فسأهاجر إلى دجا!

نظر إليها بامتنان رغم شعوره بالمبالغة، وعندما سألته عما تشتهر به البلدة، خجل أن يخبرها بالحقيقة، اختار ألفاظه بعناية وهو يقول:

- بالطب الشعبي.

هزت رأسها باستحسان شجعه على أن يضيف:

ـ نحن ملوك العلاج في الجنوب..

صفقت بيديها وهي تضحك في مرح:

ـ جميل. أمي تعاني من عرق النسا منذ سنوات عديدة، لم تقبل فكرة الأطباء بضرورة عمل جراحة، جارتنا قالت لها إنهم يريدون نقودها ويبحثون عن الطريق الأسهل، ذهبت بها لرجل يداوي بالأعشاب وآخر يستخدم عصا طويلة، لكن من عالجها في النهاية رجل بدوي كوى فخذها، لم تشكُ بعدها ثانية.

ـ فعلا؟

واصلت ضحكها:

ـ طبعا، ظلت عاجزة عن المشي لمدة أسبوعين من أثر الحرق، عندها اكتشفت أن الألم كما هو، زاد عليها فقط أثر الحرق الذي أصبحت تنظر إليه كلما اشتدت عليها آلام عرق النسا ثم تهمس في الأبد: الحمد لله على كل حال، سأحتمل.

ضحك معها بشير ثم توقف عن الضحك بمجرد أن قالت له في

ـ طالما أنكم تشتهرون هناك بالطب فلابد أنك تعرف من يداويها، سأخبرها ولن تمانع في أن تذهب إلى آخر الدنيا، بشرط واحد، لا للكي.

* * *

قطعت ذكرياته هزات رقيقة على كتفه، فتح عينيه ليجد أمامه شابا بشوشا أسمر، يدفع عربة الوجبات الخفيفة، للوهلة الأولى شكره بشير دون أن يطلب شيئا، ثم نظر إلى الأصناف المرصوصة على العربة في صفوف شبه مكتملة، فمد يده إلى شطيرة لم يهتم بمعرفة محتواها وهو يقول:

ـ سآخذ هذه، وكوبا من الشاي.

الرضا على الشاب الأسمر وهو يمد يده بهما ويقول مجاملا:

ـ تفضل، والحساب عندي، أنا نوبي مثلك.

هز بشير رأسه رافضا وهو يجيب في إصرار:

ـ لا يا صديقي، الحساب عندي أنا، ولعلمك أنا لست نوبيًا!

ـ عادة لا أخطئ، تبدو نوبيًا أصيلا.

أجاب بشير:

ـ اعتبرني نصف نوبي، أنا من دجا.

هز رأسه مندهشا وهو يقول:

ـ دجا؟ غريب. أنت لا تلبس كالدجاوية!

ارتسمت على وجهه ابتسامة رضا، أكد له الأمر ثانية:

ـ والله يا عم دجاوي.

وضع الشطيرة أمامه وهو يتابع أسئلته:

ـ وهل تعيش في القاهرة؟

ـ لا، بل درست في القاهرة، في كلية الآداب.

أجابه ضاحكا:

ـ لا بد أنك عانيت من الزحام في القاهرة بعد دجا، نقلة كبيرة، أنا أدرس هناك في كلية التجارة، أعتقد أن سكان الجنوب جميعا أقل عددا من طلبة كلية التجارة..

أجاب بشير ساخرا:

ـ سكان أوروبا بالكامل أقل تعدادا من طلبة كلية التجارة.

قال مبتسما:

عندك حق..

ارتسمت الحدية على وجه الشاب فجأة وهو يسأله

- هل أنت من السهالك، أم من الأحواش

غاب الارتياح عن وجه بشير وهو يجيب باقتضاب:

- سهالك.

رأسه في انبهار وهو يقول:

- ممم. لابد إذن أنك تعرف الشيخ أروكا..

اكتفى بشير بهز رأسه..

تابع الشاب هامسا:

- هل رأيته قبل ذلك، أم تعرفه اسما فقط؟

تردد بشير قليلا، شعر أن أفضل وسيلة لإنهاء ذلك الحوار هي أن يقول الحقيقة، أجاب بصوت جاف:

- الشيخ أروكا هو.. أمي!

انتفض الشاب فجأة فاصطدم بالعربة التي أمامه وأسقط زجاجة ماء مفتوحة على ملابس بشير، التفت الرجل الأجنبي العجوز الجالس في المقعد الأمامي على صوت الضحة التي أحدثها الشاب الذي زاد انفعاله، عدل الزجاجة بيد مرتعشة وبدأ في تجفيف الماء من على ملابسه، أشار إليه بشير ليهدأ وأمسك بمنديل صغير مسح

حيناً ثم ناوله النقود في صمت، دفع المضيف العربة معتذراً، بعد دون أن يضيف كلمة واحدة..

التقت عين بشير بعيني العجوز الذي ابتسم مهوناً، كان بشير هادئاً متمماً، لم يعن به ذلك الموقف الكثير، حدث له عشرات المرا كل مرة يقرر فيها أنه لن يصرح بأن أروكا أمه، عادة لا يخبر أحداً تطوعاً، إلا في المواقف التي سيطول فيه الحوار والحكي عن دجا وما يحدث فيها، أو عندما يسأله شخص ما ممن يعرفون البلدة عن الشيخ أروكا أو الشيخ عثمان جده.. لسانه لا يطاوعه على إنكارهما أو التظاهر بأنه لا يعرفهما.

تنهد في ضيق. لا بأس. على الأقل وصفه الشاب بأنه لا يبدو كالدجاوية، بشير كان يتعمد ذلك دائماً، من اليوم الذي غادر فيه قرر إطالة شعره على غير عادتهم. ألقى نظرة رضا سريعة على ملابسه، حذاء رياضي أبيض وبنطلون جينز كحلي و(تي شيرت) برتقالي اللون يحمل علامة شهيرة وساعة فوسفورية لامعة. السترة الرياضية المنفوخة التي خلعها بمجرد ركوبه القطار برتقالية اللون أيضاً. أهل دجا غالباً ما يرتدون جلباباً أبيض اللون. حتى الشباب الذين لا يرتدون الجلباب يميلون إلى الملابس الفضفاضة الفاتحة بحكم العادة؛ لهذا تحديداً يتعمد اختيار ألوان مخالفة. في البداية اتجه إلى الألوان الدكناء لكن نور أخبرته أن بشرته السمراء تتناسب مع الفواتح. لم يرد أن يرتدي ألوانهم ولا أن يتجاهل رغبتها. اتجه إلى الألوان الفسفورية والصارخة كحل وسط. ربما لهذا ظنه نوبياً فهم يعشقون الألوان أكثر من أهل دجا المائلين إلى الكآبة تحت اسم الوقار.

رفع رأسه ليجد العجوز مازال يراقبه، ابتسم له مرة ثانية في دهشة محيا بالإنجليزية. زادت دهشته عندما أجابه الرجل عربية سليمة:

ـ أهلا بك..

سأله بشير في انبهار:

ـ تتحدث العربية؟

قام الرجل من مكانه، احتل الكرسي الفارغ إلى جوار بشير وهو يجيب:

ـ أنا قضيت في مصر ما يقرب من خمسة عشر عاما، سافرت بعدها إلى العديد من الدول العربية.

هز بشير رأسه في إعجاب بلغة الرجل التي لم تكن تحمل أخطاء:

ـ وما مجال عملك؟

ابتسم مجيبا بالإنجليزية:

ـ Archaeologist

صمت للحظة ثم أكمل:

ـ عالم آثار، عملت في مصر أيام الحملة ضمن فريق كنت أنا أصغر من فيه..

أجابه بشير في دهشة:

ـ أيام الاحتلال؟ كم عمرك؟

أجاب العجوز في هدوء:

ـ أيام الحملة يا صديقي، لم يكن احتلالا بالمعنى المفهوم. عموما أنا الآن أقترب من التسعين. عجوز أليس كذلك؟

أجاب بشير على الفور:

ـ العمر الطويل لك، عموما أنا من عائلة معمرة، تسعون عاما رقم معتاد في أسرتنا.

ابتسم في ود:

ـ إذن اعتبرني من الأسرة، أنا سمعتك تقول إنك من دجا..

أدار بشير رأسه إليه في دهشة:

ـ هل تعرف دجا؟

ضحك في ثقة:

ـ أعرفها جيدا، وبما أكثر مما تعرفها أنت. قل لي: ألا زال الشيخ عثمان حيًا؟

ـ تعرف الشيخ عثمان أيضا؟

أجاب الرجل في اهتمام:

ـ أعرفه جيدا، هو في مثل عمري تقريبا. أليس كذلك؟

أشار إليه بشير بالإيجاب:

ـ كان، لكنه مات منذ خمسة عشر عاما..

لم تبدُ عليه اي انفعالات وهو يقول:

ـ اسمع يا ولدي أنا آتيت من بلدتي في رحلة سأزور فيها كل الأماكن التي عملت فيها. في نهايات العمر ياولدي نبحث عن حلية، وأجمل تسالي نهاية العمر ما ارتبط بماضٍ جميل لهذا قررنا ونبدأ هذه الرحلة أنا وروحتي.

أومأ بشير في تفهم.

ـ وهل كنتم تنقبون في د

تنهد العجوز وهو يتذكر

ـ أووو. دجا وكل ما حولها. لكن دجا كانت هي مقرنا الرئيسي، لا أعرف إذا ما كان المصنع ما زال موجودا، أم لا..

أخرج من حافظته صورة قديمة، كان فيها شاب صغير يقف أمام مبنى على الطراز الإنجليزي يتكون من دورين، أجاب بشير مصححا في حماس:

ـ ليس مصنعا، هذا مبنى العزل. لا زال موجودا.

علق الرجل مستنكرا:

ـ ما معنى مبنى العزل؟

اجاب بشير على الفور

. هذا مبنى قديم كان يستخدم لعزل مرضى الطاعون بعد الوباء الثاني من جميع أنحاء مصر، جدي عثمان نجح في إقناع الحكومة

بإيقاف استخدامه؛ لأن دجا ليست حجرا صحيا بل بلدة ... في البلاد. غادروه في يوم واحد وأغلقوه على من فيه إلى أن ماتو جميعا، ثم استخدموا الجير الحي لدفن الجثث، ولم يدخله أحد بعدها. يقولون:

قطع بشير كلامه فجأة، حثه الرجل على الاستكمال، واصل بشير بصوت خافت.

ـ يقولون إنه مسكون، وإن من يقترب منه سيصاب بالعدوى التي توطنته ولم تغادره!

رفع العجوز كتفيه ومط شفتيه وهو يقول:

ـ ربما يكونون حولوه إلى حجر صحي للطاعون، لكن هذا المبنى كان يطلق عليه المصنع إلى أن غادرت أنا مع آخر دفعة غادرت.

هز بشير رأسه في إصرار:

ـ لا توجد مصانع في دجا.

ابتسم العجوز في هدوء متجاهلا إصراره وهو يجيب.

ـ لقائي بك فأل حسن يا ولدي. دجا هي البلدة الوحيدة من بين كل الأماكن التي عملت فيها، التي لم أجد أي شيء يوضح مصيرها على صفحات الإنترنت، أنا حجزت فندقا في أسوان وكنت سأبدأ في البحث عمن يساعدني على زيارتها، كنت أظنها أصبحت بلدة مهجورة عندما لم أجد عنها شيئا. هل ستساعدني على .. الزيارة؟

أجاب بشير ساخراً:

لا شيء يستحق الزيارة هناك، لا تضيع وقتك.

أجاب الرجل بابتسامة باردة:

في الحقيقة الأمر ليس للتسلية فقط، اعتبرها رحلة عمل تطوعي. ألن تساعدني؟

لم يستطع بشير الرفض، فأجاب بفتور:

أهلا وسهلا.

مد الرجل يده مصافحا:

أنا باركلي، سايمون باركلي.

صافحه بشير:

وأنا بشير الدجاوي..

ضحك الرجل في سعادة:

yes. دجاوي. from Daga، كان معنا صبي صغير اسمه قناوي أنت تعيدني إلى الماضي يا بشير.. هل يمكن أن تستضيفني رجاءً؟

أجابه بشير وهو يطلق زفرة طويلة:

لا أعرف. أنا غائب منذ سنوات عن البلدة. سآخذ أرقامك، بمجرد أن أستقر سأطلبك.

ـ لا تشغل بالك، أنا سأجدك وسيكون عليك واجب الضيافة.

ابتسم بشير مجاملا، قام باركلي من مكانه مبتسما، عاد إلى مقعده ثم استدار ليُحيي بشير الذي أشار له في توتر، بحث بعينيه عن زوجته الإنجليزية العجوز فلم يستطع أن يحدد مكانها. لم يشغله الأمر كثيرا. من الأكيد أن شخصا كهذا ما كان ليثير فضوله أكثر من ذلك في أي وقت آخر، أما في ذلك اليوم فقد كان بشير منشغلا بما هو مقبل عليه، والذي لا يعرف عنه شيئا على الإطلاق.

(٢)

- تا تك.. تا تك، تا تك.. تاتك.

إيقاع مسيرة القطار الرتيب زاده توترا، لا يتناسب مع الأفكار المتضاربة التي تدور في رأسه، أغمض عينيه مرة ثانية وأراح رأسه إلى ظهر المقعد محاولا النوم. اقتحمت نور أفكاره مرة أخرى، وجهها القمحي اللون وعيناها العسليتان اللتان تبدوان كما لو أنها رسمتهما بخط أسود رفيع رغم أنها لاتفعل، رموش طويلة وأنف صغير مدبب يتناسب مع الفم الدقيق القابع أسفل منه، جسمها الضئيل وقامتها القصيرة لا يعبران عن قدرتها على فعل كل شيء كما كان بشير يردد دائما.

هز رأسه مع صوت حركة القطار، هو أيضا يعيش بإيقاع ثابت رغم محاولته الخروج عن الطريق المرسوم له، أما هي فكانت كسيارة سباقات تغيِّر سرعتها واتجاهها طوال الوقت، حاول أن يتوقع رد فعلها عندما تعرف أنه رحل دون أن يودعها أو حتى يخبرها. لن يخيب أملها كثيرا فقد كانت تصفه دائما بأنه متردد ومضطرب. أمسكت يوما بورقة ورسمت فيها صورة مخ بشري وقسمته إلى مناطق مختلفة، ظلَّلت بعضها بالسواد وهي تقول إن

هذه هي المناطق التي غزتها وسيطرت عليها الأفكار والعادات التي ورثها من طفولته في دجا. تركت المساحات الأخرى بيضاء ووصفتها بأنها (مازالت عقلا). شرحت له أن مشكلته الكبرى أن بعض الأفكار تسقط في المناطق السوداء مباشرة فيلفظها حتى وإن كانت صحيحة، بعضها الآخر يسقط في المناطق البيضاء فيعقلها بشير ويتعامل معها بمنطق سليم، لكن المناطق السوداء لا تسكت، فقد تجذب فكرة من مناطق العقل إلى مناطق السواد فيتحول بشير فجأة إلى رافض لفكرة كان يثني عليها منذ بضعة أيام، ولم يعارضها بشير. هو شخصيًا كان يشعر بصراع دائم بينه وبين نفسه مع كل شيء أن يفعله وكثيرا ما يشعر باضطرابه بين الصواب والخطأ، قصة نور منذ بدايتها وحتى الآن خير دليل على ذلك.

كان يعرف أنه يحبها، مع ذلك فهو لم ينطق بها صراحة ولو لمرة واحدة، الفكرة في حد ذاتها كانت تخيفه، أن يحب، وأن يحب قاهرية، وأن يحب قاهرية مثل نور، وأن يحب قاهرية مثل نور ويخبرها بحبه بمنتهى التبجح.

أجواء القاهرة واختلاطه في الجامعة وثقافته الجديدة نجحت في مقاومة الكثير من العادات التي يحملها لكنها عانت كثيرا أمام ما يخص علاقة الرجل بالمرأة، السر المقدس السماوي الأكبر الذي لا يجب انتهاكه. مجرد معرفة اسم زوجتك أو أمك خارج نطاق الأقارب يعتبر ضمن الأشياء المخجلة التي يجب ألَّا تحدث، يمكن أن توصف الزوجة بكلمة «أدين» الآتية من اللغة النوبية، أو توصف

أ،بها الجماعة كما يفعل المختلطون بالمصريين. أو تنسب إلى أحد الذكور المرتبطين بها. أمه مثلا كانت ابنة الشيخ عثمان البكرية الى أن تزوجت، فتحولت إلى زوجة عرفات،ثم أصبحت أم بشير ،مجرد أن أنجبته. ظهرت المشكلة عندما انتقلت إليها المشيخة ،صعوبة بعد صراع طويل ما بين تقليديْن كلاهما بقوة الآخر: ألّا يخرج المشيخة من سلالة الشيخ عثمان حفيد داعو النجيب، وألّا تنتقل إلى أنثى. لا يعرف من كان صاحب الحل العبقري الذي قضى بأن يصبح لقب أمه بمجرد تسلمها المشيخة هو الشيخ أروكا، وأ يشار إليها دائما بكل ضمائر الذكور وقت الحديث عنها. عانى كثيرا وعوقب عشرات المرات لأنه أخطأ في حديثه عنها أمام العامة. في البداية كانوا يسألونه عنها فيقول: أمي نائمة. نجحوا بعد شهور في إقناعه باستبدال كلمة أمي بكلمة الشيخ أروكا، فأصبح يقول: الشيخ أروكا ستأتي فورا. بعد محاولات عديدة نجح في أن يتحدث عنها أمام الجميع دائما كأنها ذكر. أصبح يقول: الشيخ أروكا مشغول اليوم، الشيخ متعب، وهكذا اعتاد الجميع الأمر. أهل البلدة جميعا أصبحوا يرون الشيخ أروكا كائنا يحمل طبيعة خاصة، فهو الشيخ الحاكم القوي الذي لا بد أن يخرج عن التصنيف المعتاد للذكور والإناث. الإشكالية الكبرى لدى بشير في صباه كانت عندما يريد أن يناديها في المنزل: (أمي)، لم يخبره أحد عما إذا كان عليه أيضا أن يناديها: (أبي) أم لا. ولم يجرؤ على السؤال فاكتفى باستخدام اللقب الرسمي لها حتى وهي تغطيه في سريره قبل نومه أحيانا مثل أي أم. ولم تدرك أمه لماذا لم يعد بشير يحتضنها منذ أصبحت

هي (الشيخ)، حتى عندما نجح في الثانوية العامة التي قضاها مثل أبناء كبار البلدة من المنازل وتحت إشراف مدرسين من دجا يختارهم الشيخ بعناية، ثم وهو راحل إلى القاهرة ابتعد عن ذراعيها المفتوحتين؛ لأنه كان يشعر منذ سنوات أن أمه التي سيحتضنها مزدوجة الجنس.

عرفت نور ذلك الأمر في وسط الحوار الذي حكى لها بشير في وسطه أصل تسميته، أخبرها أن وصوله تأخر أكثر من عامين بعد الزواج وأن تلك مدة مخيفة في مدينة مثل دجا، خرج وصفه لما حدث تلقائيًا وهو يقول:

بمجرد أن شعر الشيخ أروكا بأنه حامل فيَّ أشار إلى بطنه قائلا:

ـ هذه بشارة، وهذا بشير.

نظرت إليه نور في دهشة وهي تسأل:

ـ من الشيخ أروكا؟

شعر بشير بحرج شديد، لكنه لم يجد بُدًا من أن يجيب:

ـ الشيخ أروكا.. أمي!

ثم حكى لها الأمر، لم تضحك نور في البداية كعادتها بل غمغمت في ذهول:

ـ يا أولاد المجنونة!

عندما تغير وجه بشير اعتذرت له في خجل، طال غضبه فغلبها طبعها النزق، دفعته في كتفه ضاحكة وهي تقول:

ـ لا تغضب. أنا قلت يا أولاد المجنونة. كنت أتحدث عنهم هناك، أما أنت فأمك رجل محترم.

غادرها بشير غاضبا فلم تهتم، كانت تشعر بإهانة شخصية لأنها أيضا تعاني من نظرة العشرات ممن يحيطون بها إلى الأنثى في منطقة أخرى من العالم أفضل من تلك التي أتى منها بشير وإن لم يكن أفضل كثيرا.

كانت علاقة نور ببشير معاناة جديدة تضاف إلى المعاناة المعتادة التي تتجرعها فتاة قاهرية من حي شعبي تواجه ظروفها بالعمل في كل المجالات المتاحة، تلتقي عشرات الرجال الطامعين فيها بأشكال مختلفة. من يريدها محظية، ومن يريدها زوجة ثانية في السر، ومن يريدها تحت أي مسمى. جرأتها ومزاحها الدائم يجعلانها في عيون الكثيرين منهم سهلة المنال، لكنها لم تكن كذلك على الإطلاق. بداية حبها لبشير أنها لم ترَ فيه طمعا فيها من أول يوم، ثم زاد سحره في عينيها عندما عرفت أنه ولّي عهد أتى من عالم أسطوري. بالفعل كانت نظرة بشير إليها تحمل وقارا لم تعهده من قبل. مجرد حديثه الدائم معها يعتبر قفزة واسعة لا يستطيع أن يتخطاها بسهولة. السبب الذي لم تفكر فيه نور هو أن بشير قادم من تلك البلدة التي ترى أهلها مجانين؛ حيث يختار فيها النساء لأولادهم العروس طبقا لآرائهم الخاصة. اللقاء الأول يكون في ليلة الدخلة، وحتى عندما تغلق عليهما الأبواب، المرأة الشريفة هي التي لا تسلم جسدها لرجلها بسهولة، والعلامة هي أن تنطق بكلمتها الأولى. طالما ظلت صامتة فلا يحق له أن يجامعها. وهنا عليه الاسترضاء. المفتاح هو الهدية، غالبا ما يكون الأسهل أن تكون هذه الهدية نقودا، فيبدأ العريس في

تقديم النقود مبلغا تلو الآخر. كلما تعززت أكثر بدا أنها أكثر شرفا، تنتهي النقود فيبدأ في غزلها بالكلام والغناء وحتى بالرقص. من الممكن أن يستمر هذا لليالٍ طويلة تستلزم تدخلا من أهل العريس في رجاء ومن أهل العروس في فخر، فقد أثبتت الفتاة عفتها، أما إذا تنازلت سريعا فهذا قد يؤدي إلى تيقن العريس أن زوجته ليست شريفة. لم يكن بشير يقدس المرأة لكنه كان يهابها، عندما وجد الطالبات في القاهرة يتحدثن معه ببساطة، تيقن أن ما وراء ذلك هو أنهن جميعا منحرفات كما كانوا يقولون له في الجنوب. حتى نور التي ظل يراقبها مترددا في أن يبدأ حوارا معها، غضب عندما بدأت هي التعارف وقاطعها لما يزيد على شهر، تصالحا بعدها واعتذرت له ظنّاً بأنه استاء من سخريتها، ثم خاصمها مرة أخرى عندما عرف الوظيفة التي تحترفها لتنفق على نفسها وأهلها. رأى ما تفعله غير مقبول رغم أنه لم يجد فيه خطأ واضحا. كان يعرف أن نور ولا شك ستراه مختلًا، لكنه كان يؤكد لنفسه أنه لم يكن كذلك، بل كان دجاويًا أصيلا لا هجينا فاسدا كما يرى نفسه الآن!

## (٤)

انطلق القطار يطوي طريقه إلى أن وصل إلى أسوان. تحرك بشير من مكانه حاملا حقيبته الكبيرة، خلفه يسير ظله الضخم الذي أرسلوه ليأتي به. كان من الغريب بالنسبة إليه أن يعرف أن هناك في الحاشية أو حتى في تلك البلدة الصغيرة أفرادا لا يعرفهم ولم يلتقِ بهم من قبل، غالبا لهم مهام خاصة مثل هذه. الشيخ أروكا ذكي ولا شك. لو أرسل شهلي أو أي مندوب آخر توجد بينه وبين بشير ألفة لقاومه بشير ولأجبره على العودة منفردا معتمدا على هيبته واحترامه، أما عندما يكون المندوب مجهولا وتبدو عليه نوايا تنفيذ الأمر بغير مفاوضات فغالبا ما ستكون مهمته هينة.

نزل من القطار دون أن يلتفت لتابعه، وقف حارسه على بعد أمتار قليلة منه، تناساه بشير تماما، أخذ نفسا عميقا من الهواء البارد الذي يبدو له دائما أنظف من هواء القاهرة، إلا أن الأخير يحمل مذاق الحرية التي يبحث عنها. لا شيء تغير هنا منذ كان طفلا صغيرا يزور القاهرة مع أبيه. نفس المقاعد الخشبية المتهالكة، حرف الألف الساقط من اللافتة التي أصبحت تحمل اسما مشوها للمدينة: سوان. تعجب من أن اللافتة لا تستوقف أحدا من المارة،

اعتادوه. أما هو فقد أصبح غريبا عن المكان، مع كل يوم من غربته عن دجا كان يراها بشكل مختلف، أكثر واقعية. بين ما رآه في القمرة ونظرته التي تعيرت إلى بلدته الصغيرة أدرك أن الغريب ليس أعمى، بل أبصر من الجميع؛ لأنه يرى كل غريب اعتادته عيون الناس. أبوه كان يقول إن العالم يجري بينما كل شيء هنا ثابت في مكانه، الحقيقة كما يراها الآن أن العالم يتحرك إلى الأمام بينما كل ما هناك يتحرك إلى الخلف بعامل مرور الزمن. هذه المحطة التي كانت محطة قطار بداية جديدة، أصبحت الآن بداية قديمة. ألا يعني ذلك أن الأمور تعود إلى الخلف؟

جلس على أحد المقاعد يلتقط أنفاسه ورفيقه يراقبه في صمت. لا زال المشوار طويلا إلى أن يصل إلى دجا، أشار إلى صبي يبيع بعض الصحف. ألقى نظرة سريعة على المكتوب فيها دون أن يقرأ شيئا، لم يكن الوقت مناسبا لكنه لم يكن راغبا في الذهاب مباشرة، كتلميذ بليد لا يريد الذهاب إلى المدرسة.

ـ كيفك يا ابن أروكا؟

رفع رأسه في حذر، ابتسم ابتسامة مضطربة وهو يرى أمامه الخالة جنة.. كانت لا تزال مخيفة كما كان يراها من أيام طفولته، بقامتها القصيرة ووجهها الأغبر الذي زادت تجاعيده وأسنانها التي تساقط معظمها. حاجباها المتصلان من المنتصف يشكلان رقم ٧ فوق عينيها الضيقتين اللتين يكسوهما بياض يجعلها أقرب إلى الأموات. أجابها بود مصطنع.

ـ كيف حالك يـ

حط ـب إليه في حدة وهي تقول بصوتها الـ فيع

ـ آخر مرة رأيتاك فيها عند ما يقرب من أربعة أعوام.

لم يجد أهمية في إخبارها بأنه جاء منذ عامين لليلة واحدة. مط ـفتيه وهز كتفيه نافيا:

ـ مشاغل يا خالة.

اقتربت منه ببطء. كل حركاتها مخيفة مثلها تماما. أمسكت ـدقنه ورفعته إلى أعلى، نظرت إلى عينيه بتمعن، حاول أن يهرب من عينيها لكنها لم تمنحه الفرصة. مدت يدها وفتحت كفه عنوة ـ نظرت فيها، خرجت منها شهقة طويلة، ثم ألقتها في غضب وهي تصيح:

ـ هل تذكر آخر مرة قرأت فيها كفك يا ابن أروكا؟

لم يجب. حاول أن يتذكر آخر مرة لكنه لم يستطع، ففي كل مرة ـانت تراه فيها تقريبا كانت تفعل نفس الشيء، تمسك بكفه عنوة وتنظر في عينيه، تغرس أظافرها في يده إذا حاول سحبها، عندما ـان طفلا كان يجري مبتعدا وكان ذلك يريحه كثيرا. عندما كبر لم يعد يصح أن يجري من امرأة عجوز، كان يتمنى في كل مرة أن يجري مبتعدا أو يدفعها منتزعا كفه لكنه لم يفعل ولو لمرة واحدة، تغير تصرفه معها لكن مشاعر الخوف التي في داخله لم تتغير. من مزايا الطفولة أنها تسمح لنا بردود أفعال مناسبة تصبح غير مقبولة عندما نكبر، أن نبكي عندما نرى شخصا أو نبصق في وجه آخر محمد بشير في مكانه فتابعت جنة في حدة:

ـ هنا، في اليوم الذي كنت أنت مغادرا فيه إلى القاهرة. قلت لك يومها إنك ستعود لنا بالخيروسيصبح لك شأن بيننا. كفك تغيرت يابشير، هل تعرف ما يعنيه أن تتغير علامات كف شاب في عمرك؟

ابتسم في اضطراب وهو يقلب كفه متظاهرا بتفحصها:

ـ والله يا خالة كفي هي كفي، لم تتغير

مدت يدها وأخذتها مرة أخرى، أشارت إلى منتصفها تماما وهي تقول:

ـ هذه بقعة الشر يابشير، لم تكن موجودة. وكل هذه الخطوط تخرج منها، لو أنني رأيتها قبل ذلك لما نسيتها.

سحب يده موضحا:

ـ هذا أثر حرق يا خالة، حادث. قطعة فحم التصقت بيدي.

جلست على الأرض وفرشت منديلا وضعت عليه أحجارا رصتها في ترتيب بدا له متعمدا وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة، رفعت رأسها ناظرة إليه:

ـ كله مكتوب يابني، هذه وشم يحكي ما سيحدث، قلبك تغير فتغيرت الكتابة في كفك.

أجابها متوترا:

ـ خلاص يا خالة، طالما كله مكتوب، ننتظر المكتوب..

تجاهلته تماما وهي تردد بصوت بائع ينادي على بضاعته.

ـ كله مكتوب. كله مكتوب. أبين زين واقرا المكتوب.

قامت من مكانها فجأة بسرعة لا تتناسب مع عمرها، جرت على سابة أحنية صغيرة تمسك بيد رفيقها، ضحكت الفتاة وهي تمسك كفها عنوة كما فعلت مع بشير. قاومت للحظة ثم استسلمت وهي تضحك، وجدها بشير فرصة جيدة ليغادر، تحرك متسللا في هدوء مصطنع، مشى عدة خطوات واسعة. توقف فجأة عندما جاءه صوتها صارخا كما لو كانت فأرا تدهسه الأقدام:

ـ عد إلى هناك يا ابن أروكا، مكانك لم يعد هنا، شرك سيطالك قبل أن يطالنا.

أشاح بيده غاضبا ولم يلتفت إليها، ضم كفه على ما فيها بحركة لا إرادية، وأسرع في اتجاه الخروج من محطة القطار.

نادته مرة ثانية بصوت أعلى:

ـ أنو ولد ترسي؟

استدار ناظرا إليها. كانت لا تزال تمسك بيد الفتاة التي بدت منزعجة، أجابها غاضبا:

ـ لا يا خالة، أنا أفهم لكني سأفعل ما أريده.

أعلن باللغة المحلية التي استخدمتها أنه سيذهب:

ـ إي فجوري خالة. إي فجوري.

أجابت بغضب:

ـ إله إيكا ككجا..

آدار ظهره لها وتجاهلها تماما وهو يهمس مجيبا بلهجة قاهرية:

ـ الله يقطعك أنتِ يا خالة. ويقطع أمك.

التفت مرة أخرى بمجرد خروجه من المحطة ليتأكد من أنها لم تتبعه إلى الخارج، نظر غاضبا إلى ذلك الأحمق الذي يسير خلفه. لا تبدو على ملامحه أي انفعالات، من الواضح أنه يعرف دوره جيدا. لن يتدخل في أي شيء، غالبا كانت أوامرهم واضحة:

ـ فليفعل بشير ما يفعل وليقل ما يقول، لا تتدخل في أي شيء لكن عليك في النهاية أن تأتي به إلى هناك.

صاح بشير في وجهه غاضبا:

ـ كان عليك أن تبعدها عني.

لم يأته رد فزاد غضبه، لم يحاول معه مرة أخرى، وقف يلتقط أنفاسه في توتر. تلك المرأة اللعينة لم تتوقف عن إثارة أعصابه يوما ، تتنبأ له بالخير أو الشر على هواها. قبل أن يرحل من دجا كان يتجاهل كل ما تقوله. لم يكن يصدقها ولا يكذبها. وكانت هذه من خطاياه وسط أهله، كيف لا يصدقها والشيخ أروكا - أمه- يصدقها ولا يكذبها رغم أنه يكرهها؟ الشيخ يكره كل الأجواش التي تنتمي إليهم جنة بصفة عامة، كما كان الأجواش يكرهون السهالك بصفة عامة لكن الشيخ يصدقها لأنها قالت له يوما إنه سيصبح الشيخ. كانت في ذلك الوقت لا تزال الشريفة أروكا، تحمل ضمير المؤنث الذي يتوارى معها أكثر في عيون بشير، يطلق عليها الشريفة لأنها واحدة من بنات الشيخ عثمان الدجاوي جده الذي كان في طريقه

لاختيار من سيرث الحكم منه. الكل كان يعرف أن أروكا الطيبة مى أقربهن إلى قلبه وأطوعهن إليه، لكنهم كانوا يعرفون أيضا أن ا، دا الابنة الصغرى أكثر قوة ودهاء وسيطرة على الأب. وكانوا ،مرمون أن المشيخة لابد أن تذهب إلى ذكر كما جرت العادة. الدلك فالاحتمالات كانت مفتوحة. جنة فقط هي التي جرؤت على أن تتنبأ بانتقال المشيخة إلى أروكا في تجمع كبير.. وقد كان، ،مدها ارتفعت أسهمها كثيرا داخل وخارج دجا. أصبحت في عيون الجميع عرافة حقيقية محترفة ترى ما لا يراه كل أصحاب الكرامات في دجا وهم كثيرون.

نظر بشير إلى البقعة المجعدة التي تتوسط كفه. لازالت تؤلمه عندما يلفحها الهواء البارد أو الساخن، أو حتى عندما يزيد توتره لما يحدث في هذه اللحظة. لن ينسى اليوم الذي تكونت فيه بحلوه و مره، كان قد خرج في رحلة ليلية إلى صحراء الأهرام، دعاها إليه أحد الزملاء الذي ينتمون إلى جوالة الكلية، واحدة من أمتع ليالي ـنير في بدايتها. غناء وضحك وسمر ثم شواء جدي صغير لا يكفي ،التأكيد الخمسين فردا الذين مدوا أيديهم إليه، في الزحام والضحك و المتعة والغناء كل شيء يكفي الجميع، جمعوا ما تبقى من الفحم لإعداد الشاي والقهوة على الراكية، كانت قطع صغيرة حمراء نتطاير من الفحم من آن لآخر تلقائيًا أوأثناء تقليب الفحم بحثا عن الأكثر اشتعالا في القاع، استلقى بشير نائما على الرمال ورأسه إلى السماء يتأمل نجوم الصحراء البديعة، كان هناك دائما بينه وبين النجوم علاقة وثيقة منذ الطفولة، طالما تأملها بالساعات وحكى معها بل سمى بعضها أيضا، كانت تلك هي المرة الأولى وتقريبا

الوحيدة التي رأى فيها النجوم منذ وطأت قدماه القاهرة. ناداه مسعد زميله في السكن ليأخذ كوبا من الشاي، قام في كسل لذيذ،أراح يده على الأرض للحظات، شعر بسخونة في كفه، تفحصه في هلع ليجد قطعة من الفحم بحجم الجنيه المعدني تتوسطه تماما، هز يده فزعا ليتخلص منها لكنها كانت ملتصقة به، فشل حتى في إبعادها بيده الأخرى من سخونتها، كانت تتوهج في الظلام كعين ذئب بري في منتصف كفه، جرى عليه مسعد وفي يده ملقط الفحم وسحبها من يده بصعوبة، تركت مكانها أثرا قبيحا كما لو كانت عين الذئب فقئت في كفه.احتاج الحرق علاجا يزيد على الشهرين ليندمل، لكن أثره ظل ظاهرا حتى رأته هذه المرأة المختلة، وأعلنت له عن اسمه الجديد.. بقعة الشر.

ألقى بشير عليها نظرة أخرى، تبدو كما لو كانت شمسا صغيرة تخرج منها وإليها خطوط كفه الأصلية وخطوط جديدة أضيفت بفعل التجاعيد. أمسكها بحركة لا إرادية محاولا أن يلينها كما يفعل كثيرا.. لكنها كانت جامدة كالحجر، ظل محدقا فيها للحظات، اندهش وهو يرى شكلها يتغير ونقطة ماء صغيرة تخرج منها وتسيل على كفه كدمعة صغيرة..

(٥)

لم يستغرق الأمر سوى لحظات ليجد نقاط الماء تنهال على كفه المفتوحة ورأسه وكتفيه، تنهد في ارتياح ضاحكا عندما أدرك أن السماء أطلقت العنان لمائها ليهطل على الجنوب. لم تكن عين الذئب تدمع في يده كما ظن بعد أن عبثت المرأة بعقله. عندما يهطل المطر هناك يتربث الجميع ليرى هل هو نذير خير أم نذير سوء، رغم ندرة الأمطار إلا أنها من آن لآخر تأتي على هيئة سيول غزيرة لا ترحم، تغرق الشوارع والبيوت الغارقة في مشاكلها دائما. يعتبر بشير ذلك لعنة أخرى من لعنات تلك البقعة من الأرض. حتى الخير الذي تحتاجه تخشى أن تطلبه من السماء لأنه يأتي قاسيا مثل اللهيب الذي يعيشون فيه طوال العام تماما.

انطلق يجري في رشاقة نحو نقطة تجمع سيارات الميكروباص التي تنطلق نحو نصر النوبة. خلفه يجري حارسه بخطوات ثقيلة، تعمد بشير أن يسبقه ليقفز في واحدة من السيارات التي كانت على وشك أن تتحرك لكيلا يلحق به. لم يكن الهرب هو ما يدور في رأسه لكنها محاولة للتخلص منه انتقاما لنفسه من عجزه أمامه منذ اللحظة الأولى، لكنه لحق بالسيارة، قفز فيها إلى جواره صامتا

كالعادة. لم يكن المكان مزدحماً، أخرج الحارس من جيبه مبلغاً من المال ودفعه أجرة لركوبهما. اندهش عندما لاحظ أنها تضاعفت ما يقرب من أربع مرات خلال أعوام الغياب.

دجا تقترب، زجاج السيارة الأمامي مكتوب عليه «للبيع» ليقرأها كل من يركبها إلى جوارها خرزة زرقاء تتراقص وفردة يسرى ، حذاء طفل، كلها تعاويذ لصرف العين والحماية من الحسد، غنية نوبية قديمة في غير وقتها تتحدث عن الاشتياق للجذور. كل من في العربة يتكلمون في آن واحد لكن بنبرة أقل حدة وعصبية من تلك التي يسمعها في القاهرة. أخرج يده من النافذة ليسمح لزخات المطر بمداعبتها. يعتبر أهل الجنوب المسافة طويلة إلى حد ما لكنه لا يراها كذلك مقارنة برحلة القطار التي خاضها. أمامه ساعة للوصول إلى نصر النوبة ثم نصف ساعة أخرى للوصول إلى دجا ولقاء الشيخ أروكا، والذي يعرف جيداً أنه سيكون لقاء عصيباً.

تأرجح بشير بين النوم واليقظة إلى أن وصلت السيارة إلى غايتها، نزل منها وأخذ حقيبته، تلفت باحثاً عن بقعة جافة في الأرض فلم يجد. اتجه إلى مظلة بدائية الصنع يجلس تحتها بعض السائقين ليشربوا الشاي في فترات راحتهم. كان الجالسون لا يزيدون على أربعة أفراد.. أشار إلى رفيقه ليقترب فنظر إليه في شك. ارتفع صوت بشير وهو يكرر النداء غاضباً. فاستجاب له في تردد. أراح بشير حقيبته على الأرض وفتحها، أخرج منها بعض ملابسه وحاجياته وأعطاها له وهو يغوص في أعماق الحقيبة إلى أن أخرج منها لفافة متوسطة الحجم، استغرق تزيينها ما يقرب من

.ساعه. أعاد ترتيب حقيبته سريعا ووقف يحمل لفافته وهو ينظر إليها في رضا. كان يريد أن يدخل عليه وهو يحملها، فهولم يفتقد أي شيء ولا أي فرد في دجا سواه.

نانندو كما يناديه بشير. وأناندو كما أسمته الأم باسم نوبي قديم، معناه كما أخبروه هو (من داخل القلب). اسم يعبر تماما عما يحمله في داخله لشقيقه الأصغر، يكبره بأربعة أعوام كانت كافية ليعامله على أنه ابن له. منذ أن وعى بشير على الدنيا لاحظ ضآلة جسد نانندو والتي جعلته دائما الطرف الضعيف في أي لعبة يلعبونها، أطفال دجا كانوا يمارسون عشرات الألعاب البدائية التي اختفت اليوم تحت ركام ألعاب أخرى أتت مع العائدين. كان نانندو يبهره في لعبتين؛ الهندكية والجِيِر كاديه. كلاهما كانت تحتاج إلى قدرة جسمانية خاصة، لذلك كان دائما ما يخسر فيهما كما كان يخسر في المصارعة، لكنه كان مبهرا في الأولى التي كانت تستلزم أن يقفز على قدم واحدة إلى مكان محدد وهو ممسك بالقدم الأخرى، وكان اللاعب الآخر يحاول بكل طريقة أن يجعله يفلت قدمك قبل أن يصل، ومن يفلت يخسر نانندو كان يمسك بقدمه في منتهى القوة، كل الفتيان بأجسادهم الأقوى عندما يجدون أنفسهم على وشك السقوط يفلتون أقدامهم ويخسرون، أما هو فكان يتشبث بقدمه حتى لو سقط على الأرض، يسقط ممسكا بقدمه ويقوم ممسكا بها، أجبرهم نانندو على تغيير قواعد اللعبة فيما يخصه، فالانتصار الحقيقي أن تجعله يترك ساقه. المدهش أن المرات التي نجحوا فيها في إسقاطه كانت كثيرة جدّا، لكن أحدا لم ينجح قط في جعله يترك قدمه.

في طفولتهم وإلى أن حدث ما حدث كان بشير يراه شجاعا وعنيدا، طالما تمنى أن يفعل مثله لكنه لم يستطع ذلك يوما. كان يفلت قدمه غصبا لكيلا يسقط،ثم يتساءل: هل كان من الأفضل له أن يسقط ممسكا بها، أم يفلتها ويخسر؟ يعترف لنفسه أن ناندو أشجع منه، لكنه خذله في النهاية، لم يحافظ على صلابته في الحياة كما كان يحافظ عليها في اللعب، أفلت روحه من أول مرة ولم يقاوم، لماذا تحطم ناندو القديم فجأة؟ هل اعتبر ما حدث خيانة مكتملة؟ شعر بأن الكبار باعوه وأن أمه باعته من أجل رغبتها في إثبات أنها على حق، وأن بشير باعه خوفا من أمه. لم يحاول أن يمنعها واكتفى باعتراض صامت. بشير نفسه كان صغيرا، وأمه لم تكن شخصية عادية، هي أيضا تغيرت كثيرا بعدما حدث رغم أنها حاولت أن تخفي ذلك. كسرها ما فعلته في ولدها، لم تعد تجرؤ على رفع عينها في عين بشير ولا في عين ناندو. حتى ولو كان الجميع يخافون أن يرفعوا عيونهم في مواجهتها.

ناندو، والهندكية والجسر كاديه؛ كل أحلام بشير منذ وصل إلى القاهرة تدور حول هذه الثلاثية؛ ناندو ممسك بقدمه ولا يسقط في الجسر كاديه؛ ناندو وهو يرى ما لا يراه الجميع في الهندكية؛ كرامته الأخرى، عندما كانوا يمسكون بعظمة بيضاء لامعة من الصندوق الكبير الذي يعدونه ليلا لهذه اللعبة خصيصا، كل الأطفال كانوا يأتون من بيوتهم بالعظام بعد أن يغسلوها وينظفوها ثم يصقلوها على حجر رملي صلب من الأحجار المنتشرة في الصحراء التي تحيط بهم. هذه هي أدوات اللعبة. أما توقيتها فكان الليالي المظلمة

..ا.ا بجلس فريقان ويمسك أحدهما بالعظمة ويطيح بها إلى أبعد
. نطيع، ثم يجري الجميع للحصول عليها، والفائز من يجدها
أ لا، وينادي بصوت عالٍ: (كبا)، فيتحلق الجميع حوله ويحملونه
، هم يعنون معا إلى نقطة البداية ويصبح هو الأمير الذي سيختار
فريقه في الدور التالي.

كانت اللعبة صعبة وقد يستغرق الدور الواحد ما يزيد على ساعة للوصول إلى قطعة العظم اللامعة في الظلام الدامس، لكن الأمر يختلف تماما في وجود ناندو، فهو لا يبحث. ينظر إلى العظمة وهي تطير في السماء، ينتظر إلى أن تسقط، ثم يقوم من ، جاريا نحوها بدون تردد، فيقف الجميع في كل مرة ينظرون إلى بعضهم بعضا في حيرة وانبهار. كيف يتمكن كل مرة من تحديد اتجاه المكان بكل هذه الدقة؟ ألقوا العظام في الصحراء وبين المزروعات وخلف البيوت، وكان ناندو دائما يعرف، لم يكن يهتم بعد ذلك بأن يفعل مثلما يفعل كل الأطفال ويعود في الموكب الصغير من الغناءإلى المكان المشهود. يكتفي بأن يلقي بها إليهم ، هو يضحك في فخر ثم يبتعد في ثقة، آخر مرة لعبوا فيها الهندكية ذات قبل اليوم المشئوم بيوم واحد، كانت تلك أيضا آخر مرة ابتسم فيها بفخر، لا يزال يبتسم أحيانا؛ يبتسم حزينا ويبتسم راضيا ويبتسم مستسلما، لكنه لم يعد يبتسم سعيدا ولا فخورا.

توقف بشير أيضا عن اللعب بعدها، لم يعد بينهم من يعرف أين ستسقط العظمة بدلا من أن يتحسس الأرض بحثا عنها بالكفيف، ولم يعد هناك من يتشبث بقدمه حتى يجعلك تتحداه

حتى النهاية. أصبحت الألعاب سخيفة، لم يعد فيها ناندو، ولم يعد بشير يستمتع باللعب بعده ولا حتى بالحياة. اكتشف بعدها ما أدهشه وآلمه، عدد الشامتين في ناندو يفوق عدد المشفقين عليه كثيرا، كانوا يكرهونه فقط لأنه كان يرى ما لا يرونه ويتمسك عندما يفلت الجميع.

تنهد وهو يتفحص لفافة الهدية التي أعدها له جيدا، قد لا تكون هدية مناسبة في نظر ناندو لكن بشير لم يستطع مقاومتها، قلب أحمر كبير مكتوب عليه بالإنجليزية «I love you». وفي الناحية الأخرى «I am sorry». لم تكن هذه الهدية في الخطة إلا أنه عندما كان يشتري لنور هدية يختلط فيها الحب بالاعتذار اختار ذلك القلب. وعندما تفحصه جيدا تذكر ناندو؛ لذلك اشترى من نفس الهدية نسختين. ترك (قلب) نور في القاهرة مع زميلة لهما لتوصلها إليها، لم يستطع أن يواجهها. أما ناندو فسيعطيه هذا القلب يدا بيد.

انتظر ما يقرب من الساعة إلى أن ظهرت سيارة من السيارات القليلة الذاهبة إلى دجا، فكل بضع ساعات تظهر سيارة نصف نقل وقد تحول صندوقها الخلفي إلى قفص يجمعون فيه ما تيسر من البشر الذاهبين إلى هناك. أخبروه أن ندرة الركاب جعلتهم يفعلون هكذا، تصور بشير أن القاهرة تختلف، كان متأكدا أنه لن يرى مثل هذه الأقفاص هناك، عندما رآهم يركبون فوق بعضهم في صندوق مماثل سأل أصدقاءه فأجابوه أن الزحام هو ما يجعلهم يفعلون هذا، فانفجر بشير في الضحك.

تهادت السيارة وهو يجلس إلى جوار السائق وحيدا، حارسه يجلس

ي الصندوق الخلفي. كان السائق يريد أن ينتظر إلى أن يأتي المزيد
، الركاب ولم يكن بشير يمانع إلا أن الحارس تدخل بوسيلة ما
م يهتم بشير بمعرفتها كثيرا، ربما أعطاه من المال ما يغطي اكتمال
بدد الركاب، أو ربما اكتفى بإخباره بأن هذا ابن الشيخ أروكا أو
ن هدده. لا يهتم بشير كثيرا، النتائج متشابهة ففي النهاية ابتسم
ل حل مرحبا وهو يشير إليه بالركوب إلى جواره، لكن بشير هز
إسه رافضا وقفز إلى الصندوق الخلفي. كان يريد أن يختلي بنفسه
بضع دقائق أخرى حتى يعد نفسه لما سيحدث.. قفز خلفه حارسه
لشخصي وجلس إلى جواره، أشار إليه بشير ليجلس في المقدمة
لكنه لم يتحرك، عندما يئس منه بشير تحرك ليجلس في المقدمة
ترك له الصندوق الخلفي منفردا، كانت السيارة تسير ببطء شديد
م يضايقه على الإطلاق، فهو يعرف جيدا أنه عائد إلى وطنه الذي
كلما اقترب منه زاد شعوره بالغربة.

مر الطريق سريعا بين أفكار بشير وقلقه وذكرياته، بمجرد أن
وقفت السيارة فتح رفيق الرحلة الباب من الخارج وهو يقول:

ـ هيا بنا يا عم الشيخ.

انتفض قلب بشير في صدره من وقع الجملة، ذكرته بما هو مقبل
عليه وبنداء كان يحبه، خرج صوته خشنا:

ـ لا تستخدم هذا النداء مرة أ

ـ حاضر يا عم.. لن أناديك بالشيخ مرة أخرى.

ا يشير أكثر توترا وهو يقول.

ـ لا تقل لي. يا عم.

* * *

ـ هيا بنا يا عم اللب!

هكذا كانت نور تناديه دائما كلما أرادت أن تحركه من مكان إلى آخر، فيرميها بنظرة غاضبة وهو يتلفت حوله لكي يتأكد من أن أحدا لا يسمعهما، تضحك هي في خجل. أصبح يضحك معها بعد أن تأكد من صعوبة أن يفهم كانتا من كان سرهذا النداء عدا مسعد الذي يعرف ما وراءه جيدا، فحتى في المرات القليلة التي أفلت فيها لسانها وسط زملاء الدراسة لم يعلق عليه أحد.. يظنون أنهم سمعوا خطأ أو لا يهتمون على الإطلاق.

أول مرة جاءت للحديث معه جلست إلى جواره أثناء المحاضرة تتفحصه في فضول، سبق ذلك عشرات النظرات المختلسة منه إليها مع بدايات وجوده في القاهرة، عندما انتبهت إليه لم تكن نظراتها سرية على الإطلاق، كانت مشجعة له لكنه لم يقدم، نظرات نور كانت تخلق نوعا من التنميل في جسده. أمه حصنته من بنات مصر قبل أن يرحل إلى القاهرة، دعكت جسده بحجر أبيض لايعرف ماهيته وهي تتلو ترانيم متتالية. لم يدرك سبب ما تفعله إلا عندما سمعها تتمتم: «إن كيدهن عظيم» عدة مرات، ثم وجد يدها بالحجر تتسلل إلى داخل سرواله، دفعها بعيدا في فزع فزجرته بدعوى أنها أمه والشيخ. أقسم إنه لن يسمح لها بذلك حتى لو كانت ملاكا منزلا من السماء، لم تتركه إلا بعد أن عقدا اتفاقا بأن يفعل ذلك لنفسه

...اهها على أن يكون وجهه للحائط وظهر جاهه، بينما هي تتلو ما
طم، حتى لا يسكن الليل عشا لا يليق به، على حد قولها

كان جالسا وعن يمينه سعد رفيقه في الشقة التي استأجرها قريبا من الجامعة، كان يفوقه جرأة. نظراته الوقحة تعبث في كل البنات اللاتي حوديس في القاعة. ابتسم وهو يميل إلى الأمام ناظرا إليها في استظراف:

حضرتك من القاهرة؟

هزت رأسها بالإيجاب، تركته يفتح معها حوارا وهي تنتظر مشاركة بشير التي تأخرت، فنظرت إليه مباشرة وهي تسأل:

وأنت؟ من أين في مصر؟

كان يريد أن يقول لها إنه من دجا، لكنه كان على ثقة من أنها لن تعرف شيئا عنها.. تلعثم كثيرا بلهجته، إلى أن قالت هي في تردد:

- أنت سوداني؟

لهجته ولون بشرته عرَّضاه لهذا السؤال عشرات المرات منذ ء إلى القاهرة، لم يكن بشير يجد بحكم موطنه ونشأته فارقا كبيرا بين كونه مصريًا أو سودانيًا بل كان يشعر بأنه خليط منهما، لكن سعد أجاب قبله بسخافة

- لا ليبي!

وجهه غاضبا، كان لم يزل في مرحلة يكره تعامل الجميع معه بتحفظ شديد كما لو كان أتى من عالم آ ، أدار

هي أيضا وجهها في حرج، ثم عادت تسأله عن كل التفاصيل بفضول شديد، لم تنس بعد ذلك أن تستخدم ذلك اللقب كلما داعبته:

- يا عم اللب..

ربما أكثر ما جعل بشير يحب نور هو نفس ما جعله متحفظا دائما على ما تفعله، التباين الكبير في الطباع بينهما. ابنة كبرى لأسرة متواضعة مكونة من بنت وولد صغير، مات أبوها مبكرا بما يكفي ليجعل استكمالها لتعليمها أصعب كثيرا لكنها أكملت، تنقلت نور بين أعمال كثيرة كما حكت له إلى أن انتهت في عملها الذي يكرهه. وقفت على ماكينات تصوير في مكتبة صغيرة في القلعة حيث تسكن، عملت في محل للملابس الداخلية الحريمي حيث كانت لها قصص متعددة كلها كانت تخجله، مرت على حضانة للأطفال بالمعادي، نور كانت نموذجا عكسيًا له في كل شيء، اللون والطول والطباع، نور هي الفارق الجوهري بين ولي العهد الدجاوي وفتاة قاهرية (بنت بلد). كانت تدهشه بعملها يوميًا حتى أثناء الدراسة. وكان هو بالطبع المسئول عن نقل المحاضرات وكتابة الدروس وشرح كل شيء لها أسبوعيًا، ولمسعد الذي وجدها فرصة ليغيب هو أيضا ويأخذ نسخة من كل ما أعده بشير. المدهش في النهاية أن نور نجحت بتقدير أعلى من تقديره، وأن مسعد رسب في نهاية العام الأول واتسعت بينهما الفجوة عاما بعد عام رغم أنهما ظلَّا يقيمان معا في نفس المنزل. نور كانت تعترف دائما أن السبب

،حاحها في الجامعة رغم الظروف، وتعرف أن ما زاد من
،ارها إليه هو اختلافه في كل شيء عما اعتادته، وأن مشاعرها
...اهه تطورت عندما كان ينقلها إلى عالمه الأسطوري بكل ما
،. يحكيه لها، وبرؤيته المختلفة لكل شيء عندما كان يقرأ لها
حطره في دفتره الصغير، أما بشير فقد كان يعترف أن الطفرة
الو. حدثت لشخصيته على مدار سنوات الجامعة وإن كانت
، مل توقيعات متعددة، إلا أن هناك على عقله توقيعا رئيسيًا
نور محمد سالم.

## (٦)

بمجرد وصولهما عند مدخل المدينة اختفى رفيق الرحلة فجأة كما لو كان تبخر. أدرك أنه أنهى مهمته على أكمل وجه، كان متأكدا أن خبر وصوله إلى البلدة قد انتقل إلى المشيخة على الفور. هنا الجميع يتجسسون على الجميع بهدف أو بغير هدف، الكثيرون هنا من التافهين الذين يرون في حمل أو نشر أخبار الغير أهمية خاصة. طالما سمعهم وهم يتنافسون على السبق الصحفي من نوعية بشير وصل، نواندو سقط مغشيًا عليه رعبا، جنة قالت اليوم نبوءة جديدة، كل أخبار البشر هناك تصبح فتحا وحبذا بالطبع أن تقترن بفضيحة أو مصيبة.

ارتاب بشير قليلا عندما لم يجد أحدا في استقباله، في المعتاد كان الشيخ أروكا يخرج بنفسه وخلفه حاشيته كاملة، ويكون استقبالا حافلا، سواء كانت سمته الغضب أو الفرحة، ينفعل الشيخ أروكا وترتسم على الوجوه من خلفه التعبيرات المناسبة لانفعاله حتى وإن لم يكونوا يفهمون شيئا، هكذا تجري الأمور منذ ذهابه إلى القاهرة.

في العام الأول عاد إلى دجا تسع مرات في كل الفرص المتاحة.

ها العدد انخفاضا حادًا ليصل إلى مرتين فقط في العام الثاني،
،ا عدة أشهر أضاف زيارة قصيرة لم تطل عن أربع وعشرين ساعة،
التقى فيها بناندو وتحدث مع الشيخ إلى أن أقنعه بتركه ليبدأ حياته
ا سيدا في القاهرة. بمجرد أن حصل على مباركته لكي يرى مستقبله
بالطريقة التي يراها الأنسب، انطلق إلى القطار ولم يعد مرة أخرى.

وقف بشير يتأمل منازل السهالك المتراصة أمامه. عند رأس
الساحة كما يطلقون عليه تقف المشيخة بأدوارها الثلاثة كما لو كانت
الداخل المنازل التي تجاورها، طلاؤها الطوبي يميل إلى الحمرة
التي تزيد عند شروق الشمس وغروبها، تزينها مثلثات متجاورة
أسفل الأسقف تبدو كحلية تحيط بها وتسمح بدخول الهواء في
الصيف القاسي الطويل، البوابة سماوية هادئة يحيط بها إطار أبيض
الجبس تعلوه كفان متجاورتان حجمهما يناسب يدي طفل في
العاشرة. على جانبي المشيخة تتراص باقي بيوت السهالك مخفية
إلى ما وراءها عن القادم من موقف السيارات، دوران فقط، أغلبها
من اللون الأبيض المصفر بفعل تراب الصحراء، تزينها رسوم
متباينة في الألوان والدقة وإن كانت روحها واحدة؛ عيون واسعة،
أهلة ونجوم، كفوف مختلفة الأحجام، ونخل سيقانه رفيعة
وفروعه متباينة الأعداد، بواباتها الخشبية مطلية بلون أحمر زاهٍ
يعلوها مثلث بلون المشيخة الطوبي، فتحات تهويتها على شكل
دوائر صغيرة. كل البيوت عدا المشيخة توجد أمامها مصاطب
حجرية واسعة بعرض المنزل يتراص عليها أصحاب المنازل
المساء.

استدار بشير فزعا عندما شعر بجسد صغير يتعلق بكتفيه من

الخلف، لم تكن حركته مألوفة ليظن أنه أخوه أو واحد من أهله، صرخ في هلع وهو يدور حول نفسه عدة مرات إلى أن أفلته، رآه يجري مبتعدا فوقف يحدق فيه ذاهلا وهو يردد بعض الآيات القرآنية، ثم قال باستنكار وهو يراه يغيب وسط البيوت:

ـ قرد؟!

لم يرد أن يستسلم لما يعرفه جيدا منذ طفولته عن أن الجان قد تظهر في صورة أي حيوان غير مفترس، استعاذ بالله مرة أخرى، استجمع شتات نفسه ومشى في اتجاه المشيخة، أخذ نفسا عميقا فاخترقت أنفه رائحة البخور الجاوي لتطمئنه رغما عنه، تميل إلى رائحة اللبان (الذكر) كما يطلقون عليه في القاهرة، ترتبط تلك الرائحة بمدخل المدينة فقط لأن السهالك يبدءون يومهم بإشعاله على بوابات المنازل وفي داخلها لأنه طارد للجان كما يقولون، وتختفي كلما تقدمت إلى داخل البلدة إلى أن تغيب تماما وتتبدل بروائح أخرى معاكسة تماما عند منازل الأجواش.

تقدم بشير من المشيخة ببطء، كانت برودة الجو كافية لكيلا يجد أحدا على المصاطب، عند باب المشيخة الخارجي وجد أمامه (عسلية)، تجلس منكمشة كأنها قطة صغيرة تصارع البرد، نظر إليها مبتسما، لم يتذكر أن يحضر لها هدية هي أيضا؛ ربما لأن ناندو هو من كان يسيطر على فكره ولم يترك له مساحة ليفكر في الآخرين. نور فقط انتزعت المساحة التي تمتلكها من عقله انتزاعا بكل ما فعلته معه، أما عسلية فلم يكن لها في عقله الكثير. يكفي أنها ا.. خالته أودا التي تمنى دائما أن تسقط من ذاكرته ومن حياته بأكملها

..! بفعله في الجميع طوال الوقت. عسلية بالتحديد هي أجمل
ا، من أودا، أو على وجه الدقة هي الشيء الجميل الوحيد
الذي جاء منها، وقف بشير أمامها ينظر إليها في دهشة للحظات: لم
تتغير ملامحها كثيرا إلا أنها نمت بشكل ملحوظ. اقتربت من عامها
الخامس، لم يرها في زيارته الأخيرة لدجا والتي كانت قصيرة ومليئة
بالتوتر، عقد الاتفاق مع أمه ورحل وهي تدعو له بأن يكون حظه
أفضل من حظها. نمت عسلية في فترة غيابه كما لو كانت عودا من
الصلصال أعادت تشكيله الأيام فجعلته أكثر طولا ونحافة، ترتدي
جلبابا أصفر اللون تزينه ورود بيضاء صغيرة، أما ملامحها فلم تتغير
وإن زادت وضوحا، عيناها البنيتان وأنفها الذي تفلطح نسبيًا لكنه
يتناسب مع فمها الجميل وشفتيها العنابيتين، رأى فيها شيئا من روح
...و القديمة وهي تقف أمامه عاقدة ذراعيها أمام صدرها وهي
تسأل في صرامة:

- هل تريد الشيخ؟

أومأ بالإيجاب فأشارت إليه بكفها ليقترب، مال عليها، فهمست
بصوت خافت:

- الشيخ لا يقابل أحدا الآن إلا إذا جاءت به رؤية أو بشارة،
شهلي سيقول لك إنه ليس هنا رغم أنه نائم بالداخل.

أراد بشير أن يبتسم لكنه لم يستطع، علموها أن مقابلات الشيخ
الآن أصبحت تحدد عن طريق قوى علوية، مد يده ليمسح على
رأسها بحب فدفعت يده بعيدا في غضب وهي تحول بينه وبين

الدخول، أدرك أن هذه الصغيرة تقوم بالحراسة. الدور الذي كان يقوم به شهلي، يبدو أنه انتقل من وظيفة (الأمين) كما كانوا يطلقون عليه إلى وظيفة أعلى، ربما سكرتير خاص للشيخ الذي يبدو أنه تضخم لدرجة أنه لم يعد يلتقي بأحد.

قال لها في استسلام:

ـ وأين شهلي؟

انطلقت تجري إلى الغرفة الخارجية الملحقة بالمنزل لتناديه. خرج من الغرفة بعوده الجاف المفرود الذي لم تؤثر فيه الأيام كثيرا، بدا له أكثر وقارا وهو يرتدي عباءة سوداء أكمامها مشغولة بخيوط ذهبية لامعة فوق جلبابه الأبيض الناصع، في يده مسبحة طويلة لفها حول معصمه وأمسك ما تبقى منها في راحة يده، نظر إلى الصغيرة مستفسرا فأشارت إلى بشير دون أن تتكلم. أدار شهلي رأسه إليه، قائلا في ود:

ـ أهلا يا ولدي.. تعالَ.. تفضل..

اقترب منه في خطوات بطيئة وهو يقول:

ـ كيف حالك يا شيخ عليّ؟

ضاقت عيناه وهو ينظر إليه، اقترب أكثر، بدت فرحته صادقة وهو يأخذه بين ذراعيه بأبوة:

ـ بشير. عدت يا بشير، حمدا لله على سلامتك يا ولدي.

ـ سلمك الله. اشتقت لك يا شيخ عليّ.

ـه حك وهو يبعده عن صدره ثم يضمه مرة أخرى قائلا:

لا أحد يناديني شيخ عليّ سواك يا بشير.

بشـ منذ سنوات طويلة يناديه من آن لآخر بأصل اسمه الحقيقي
هو ان لآخر.. والذي تآكل على ألسنة أهل بلدة اختلطت فيها
اللغـات، كلمات كثيرة من العربية والإنجليزية والنوبية تآكلت
هناك وتحولت إلى كلمات أخرى أنتجت لغة خاصة، شهلي كان
يحب ذلك الاسم.. وكان بشير يشعر براحة أكبر عندما يناديه به؛
لأنه يشعره بإضافة لقب يناسب عمره الذي كان يتجاوز الستين منذ
ا هي بشير رؤيته.

انتبه على عسلية وهي تجذبه من بنطاله سائلة:

ـ هل أنت بشير ابن خالتي أروكا؟

انحنى ليقبلها وهو يقول:

ـ أنا بشير ابن خالتك أروكا.

نظرت إليه في حيرة:

ـ بشير النذل الذي يجري وراء البنات في القاهرة؟

صمت ناظرا إلى شهلي في دهشة، ثم سأله في سخرية:

ـ هل لا زالت خالتي أودا كما هي؟

أشاح بيده في لامبالاة:

ـ كل الناس كما هم يا ولدي عدا أودا وأمك.

نظر بشير إليه بشك:

ـ أمي؟ لا أذكر متى سمعتها منك آخر مرة.

لم يبدُ على شهلي أي انفعال، تجاوز الأمر مباشرة:

ـ أودا تعيش في النار التي تملأ صدرها، والنار لا تظل كما هي إما تنطفئ وإما تزداد اشتعالا، وخالتك أصبحت جهنم..

قاطعه بشير:

- والشيخ أروكا لم يعد بابه مفتوحا لأصحاب العلل كما كان يفعل.. من الذي يخرج الجان ويفك الأعمال الآن ياشهلي؟

نظر شهلي إلى بشير في تردد، بدا له أنه يريد أن يقول شيئا إلا أنه تراجع وهو ينظر إلى عسلية في غيظ ثم جذبه من يده وهو يقول:

ـ لا تشغل بالك. تعالَ لتقابل الشيخ؛ سيفرح بمجيئك.

لم يتحرك معه بشير بل تخلص من يده مربتا عليها وهو يسأله في ترقب:

ـ هل توجد قرود في دجا يا شهلي؟

ابتسم العجوز في هدوء:

ـ هل قابلته؟ لا تخف، الأرائك الآن يعملون قرداتية، لكننا سيطرنا على الأمر، هرب قرد واحد صغير. ليتك أمسكت به.

ضحك بشير في ارتياح:

ـ في الحقيقة هو الذي أمسك بي.

استدرك في جدية:

- لماذا يريدني الشيخ أروكا يا شهلي؟ المشيخة مرة أخرى؟

ستعرف عندما تقابله يا بشير، هيا ندخل له.

- هل ناندو في الداخل؟

هز رأسه بالنفي وهو يجيب:

- ذهب إلى البحيرة كعادته.

أجاب وهو يبتعد بخطوات سريعة:

- سأذهب إليه.

# (٧)

لا تو سحيرات في دجا فهي كذبة أخرى، أطلقوا ذلك الاسم على منخفض رملي كبير يقع على أطراف البلدة، يجاوره تل اعتاد ناندو الجلوس عليه محدقا في الفراغ عندما يمل الجلوس في غرفته، انزوى تماما بعد حادثته وأصبح يتجنب الجميع عدا أخاه، حتى في تمر عليه ساعات وهو شارد تماما معطيا انطباعا بفقدانه لكل الحواس. لم يسمح الشيخ حتى لنفسه بالاقتراب منه بعدما حدث. نقلوه من خانات المسحور والممسوس إلى خانة المعطوب ولم يزعجهم ذلك كثيرا؛ لأنه لن يصبح الشيخ. بشير كان يرى أن ما حدث له يفسر حالته، أما ناندو فلم يعد يعنيه أي شيء بعدما أصابه أمام البلدة بأكملها وجعله مثارا للسخرية إلى الأبد، منحوه اسما ما يدل على جبنه رغم أنه كان طفلا صغيرا هو (أم السيور)، لم يسامح ناندو أحدا بعدها، من فعلوها فيه ومن وقفوا يشاهدون في ترقب وفضول. بشير نفسه احتاج ليالي طويلة من البكاء والاعتذار إلى أن سامحه أو بدا له ذلك. قضى الأيام الأولى كاملة إلى جواره وهو راقد على سريره يحدق في نقطة وهمية دون أن يتكلم أو حتى يتحرك، قرأ بشير معهم وهو يبكي كل تراتيل صرف الجني الذي تلبسه إلى أن رحل، تحرك ناندو بعدها رويدا رويدا، ثم

... ... نه على الكلام بعدها بأسبوع آخر، لكنه لم يعد أبدا كما ... ظلت تلك النوبات تهاجمه دون أن يدري أحد كيفية إيقافها؛ ل ...ادت عليها نوبات أخرى من الغضب أو البكاء بدون سبب واضح، لهذا أصبح الجميع يتجنبونه ويحملون في داخلهم نظرة ما تجاهه تختلف باختلاف صاحبها، بشير شخصيًا حملت نظرته إليه بعد ذلك دائما خليطا من الحزن والحسرة لكنه يخفيهما عنه ويسمح له بأن ينطلق معه كيفما يشاء، بمجرد رحيله ينزوي ناندو في انتظاره ويشغل نفسه بالرسم على الحوائط والأوراق وكل ما يقع بين يديه، ويكتب له خطابات يرسل إليه بعضها ويسلمه الباقي يدا بيد عندما يأتي في كل مرة. يقرؤها بشير جميعا مهما كان عددها لم يلوم ليقبل رأسه أيًا كان ما جاء فيها.

تقدم بشير حاملا لفافة الهدية وهو يتسلل في اتجاه ناندو الذي كان جالسا على حجر متوسط الحجم ينظر إلى المعبد في شرود. غطى عينيه بكفه كما يفعل دائما، لم يجذب ناندو كفه إلى أسفل الخلف كما يفعل دائما. بل رفع كفيه واستدار في دهشة وجلس يحدق في وجه أخيه، يشبهه كثيرا، لولا اختلاف الطول لكان ناندو نسخة أخرى منه، جذبه بشير إلى صدره وعانقه في حب، ربت كتفه في قوة ومحبة دون أن يتكلم، أدهشه بعد لحظات أن شعر به ينهنه في صدره. دفعه بعيدا وهو ينظر إليه معاتبا:

ـ لو أني أعرف أن مجيئي سيبكيك لما جئت.

هز ناندو رأسه في حسرة وهو يقول:

ـ ليتك لم تأتِ!

همس بعدها بلحظة:

ـ ستصبح الشيخ؟

أشاح بشير بكفه في ازدراء:

ـ بالطبع لا. أنت تعرف أنني لا أريد أن أصبح شيخا وتعرف أنني أخبرت الشيخ أروكا بذلك ووافق، لا أدري ما الذي حدث لكنهم بعثوا لي رجلا من رجالهم يخبرني أن أحضر للضرورة، في البداية ظننت أن هناك أمرا خطيرا يستدعي مجيئي.. لكن عندما وجدته يهددني إذا لم أعد معه، أدركت أن الأمر يخص المشيخة. لكن لا تقلق سأجلس مع أمك وينتهي الأمر.. قل لي ألم يقل لك شيئا؟

أجاب بهز كتفيه ومط شفتيه:

ـ الشيخ لا يتكلم معي..

فسأله بشير:

ـ هل أغضبته؟

رد ناندو على الفور:

ـ بل لا أراه!

أشار إلى السماء وهو يضحك قائلا:

ـ شهلي يقول إن اللقاء به يحتاج إلى أمر من أعلى.

ـ أنت أيضا تحتاج إلى رؤيا لكي تقابل الشيخ؟

هز ناندو رأسه موافقا؛ فضحك بشير ساخرا وهو يقول:

مما لا يأتي أمر السماء برؤيتي وينتهي الأمر عند ذلك.

ام يتسم ناندو على الإطلاق بل أجاب بمنتهى الجدية:

لا سيقابلك.

ثم أشار بسبابته إلى الأرض وهو يقول باستياء:

يريدونك هنا.

لم يعقب بشير، قام من مكانه في حماس وقرب اللفافة التي كان يضعها على الأرض قبل أن يغمِّي عينيه:

افتح.

مال ناندو على اللفافة ليفتحها، نظر إلى القلب الأحمر مندهشا ثم سأله في حيرة:

. اسف، لماذا؟

غاب اللون عن وجه بشير وهو يتذكر كل ما يريد أن يعتذر لناندو عنه لكنه لم يرد أن يثير المزيد من أشجانه، فقال بصوت خافت:

ـ لأني تأخرت في القاهرة.

هز ناندو رأسه مبتسما:

ـ أحسن!

ثم أخرج من جيب جلبابه ورقة مكتوبة بخط صغير، أعطاها لبشير وهو يقول:

ـ اقرأ هذا.

* * *

أخي الحبيب بشير.. أنا وأنت بالتأكيد تفهم جيدا لماذا أفتقدك وكم أفتقدك.. ما لا أفهمه إطلاقا لماذا أحزنتني عودتك بقدر ما أحزنني رحيلك. هل تذكر اليوم الذي تحدثت فيه أنت والشيخ أروكا، واتفقتما على أنك لن تعود إلى هنا مرة أخرى؟ في ذلك اليوم جلست أبكي في غرفتي وحيدا بعد رحيلك لعدة ساعات، واليوم سمعت حوارا في المشيخة عرفت منه أن الشيخ يريدك هنا مرة أخرى ليتحدث معك.. فجلست أبكي. غالبا في المرة الأولى كنت أبكي لنفسي، والثانية لك أنت! طالما الشيخ يريدك فلا بد أن ذلك من أجل المشيخة.. وطالما سيرسل إليك ستأتي.. لن تقاومه فأنا أعرفك.. وستقبل المشيخة ثم تتحول رويدا رويدا كما تحولت أمك إلى الشيخ أروكا، وكما تحول جدك الشيخ عثمان إلى مارد لا يرحم!

لا ترجع يابشير،طالما خرجت فلا تعد، فما ستعيشه هناك هو حياة، أما ما نعيشه هنا فهو مصير،اختيارات محدودة بين الأسياد والسهالك والأجواش، أنا قدري هنا وأنت قدرك هناك.

إن الأمور تغيرت كثيرا في الفترة الأخيرة، لم يعد العداء بين الجميع على استحياء كما كان أيام جدك.،بمجرد موته بدأت الأمور تصبح أكثر قباحة، لكنهم يهابون الشيخ أروكا، أنت لن تستطيع أن تكون مثله، حتى إن استطعت فلا أريدك أن تصبح مثلهم.. ففي الأيام الأخيرة وبعد أن قل خروج الشيخ من غرفته، عرفت الكثير عما يحدث هنا.

خالتك تكلمت معي عن ذلك الأمر عشرات المرات،

مريدي أن أزكيها شيخا إذا مات الشيخ أروكا، تخبرني عما ستقدمه لي إذا أصبحت هي الشيخ وتعدني بأن آتي بعدها رغم أنها أكدت للجميع أن كلينا لا يصلح لذلك الدور وأنا أوافقها، سمعتها بأذني بعد ذلك عشرات المرات وهي تؤكد للجميع أنها لن تقبل بأيٍّ منا شيخا؛ لأننا كما تطلق علينا (المعتوه والنذل)؛ أودا مثلهم ومتهم لذلك فهي تعرف ما يريدون. لن أرسل إليك هذا الخطاب لكيلا أذكرك بنا إذا كنت قد نسيت.. فإذا وصلك فهذا يعني أنك هنا! فكر جيدا يا بشير واهرب. إن أهم صفة يجب أن تتسم بها لتصبح الشيخ مثلهم جميعا، أن تضحي من أجلها بكل شيء وبأي شيء حتى لو كان ولدك أو زوجك أو أهلك جميعا كما فعل الشيخ، لا أريد هذا لك. هل تصدقني إذا قلت لك إن خالتك تفضل أن تخرج المشيخة من الأسرة عن أن تظل في أبناء أروكا إلى الأبد.

في النهاية يا بشير إذا لم تجد في كلامي ما يقنعك بالرحيل، فدعني أؤكد لك أنك لن تستطيع الوقوف أمام أودا ولا أمام الأجواش.. فارحل كما جئت.. واتركني وحدي معهم فهذا هو قدري.

ظل بشير يحدق في الورقة للحظات، هذه الرسالة وراءها شيء
اندو يكتب له فقط عندما يخشى أن تفضحه انفعالاته أمامه،
الكلام مرتبا وموجها أكثر مما اعتاده منه، لم يرد أن يضغط عليه،
م مجاملا:

- أنا مندهش فأنا أفسدتْ عقلي دراسة الفلسفة في مصر.. فما
الذي أفسد عقلك أنت؟

هز رأسه في ثقة وهو يقول متمهلا:

ـ الوحدة وغرفة جدك!

ـ الوحدة أفهمها. عزلتك عنهم طويلا جعلتك تراهم من عالم آخر بغير أن تتسلل إلى أذنيك أفكارهم، لكن غرفة جدك محرمة علينا..

صمت للحظة ولمعت عينه وهو يقول ضاحكا:

ـ فتحت غرفة جدك يا ناندو.

هز ناندو رأسه وهو يضحك..

اتسعت عينا بشير وهو يسأل في طفولة:

ـ وماذا وجدت فيها؟

صمت ناندو وأخذ نفسا عميقا وهو يجيب في غموض:

ـ كل شيء!

ـ احكِ لي..

ـ يجب أن ترى.

ـ معك المفتاح؟

ـ لا.. ليس الآن، انتظر الوقت المناسب.

أجاب بشير بصبر:

ـ اتفقنا.. سأنتظر لكن ليس طويلا؛ فأنا راحل كما اتفقنا.

ابع بحدية:

لماذا لم نأتِ مثلهم منذ البداية؟ غالبا لأن أباك لم يكن منهم.. تاركا وراءه كل شيء حتى أنا وأنت لكيلا يفعل مثلهم.. ولم يفهم أنه لو أخذنا معه لكان ذلك أفضل لي ولك من أن يتركنا لهم.. أمك قالت له في لحظة غضبها أننا سنصبح شيوخا.. فتركنا ليتيح لنا الفرصة..

أعقب ذلك بضحكة قصيرة:

عموما إذا كانت خالتك تطلق علينا المعتوه والنذل فهذا يجعلنا أولى بالمشيخة، رغم أن أودا فعلت ذلك لتقلص فرصنا في الوصول إليها، لا تعرف أن النذل والمعتوه هما أفضل من يناسب طبقة الحاكم هنا..

أراح بشير ظهره إلى الحائط:

ـ لا تقلق أنا ليست في نيتي ان أصبح شيخا، أنا لم أعد لأبقى هنا بل لكي أرحل مرة أخرى. أصبحت لي حياة مختلفة في القاهرة، مع بداية الشهر الجديد سأتسلم عملا دائما في مدرسة هناك.

أطرق ناندو قليلا ثم قال:

ـ لن يسمح لك أحد بالعودة بسهولة. لا أعرف ما يدور في رأسه فهو كما قلت لك لم يعد حتى يتكلم معي، لكنني أراه شاردا دائما كما لو كان يخطط لشيء ما. ولا شك لديَّ في أن هذا المشروع هو أنت. الأجواش يثورون في فترات انتقال المشيخة أملا في أن يجدوا طريقة لأخذها، وأنت ستكون فريسة سهلة في عيونهم. هم

أيضا لن يعجبهم رحيلك؛ لأنك ستكون دائما صاحب الحق في المشيخة في أي وقت تشاء.

هز بشير رأسه في إحباط:

ـ لا بد أن يعفيني الشيخ.

نظر إليه ناندو، انفجر باكيا فجأة وهو يقول:

ـ ليس لديه سواك، فهو لا يريدني شيخا، لا أحد يريدني شيخا ولا حتى حيًّا، كلهم يكرهونني، يتجنبون حتى الحديث معي..

اقترب منه بشير وهو يربت كتفه في حنان:

ـ لا أحد يكرهك. أنت الذي تتجنب الجميع يا ناندو.

رفع ناندو رأسه وهو يكرر بحدة:

ـ أنا أكرههم. كلهم يدعون أنني معطوب؛ لكيلا أصبح الشيخ.

تجاهل بشير ماقاله وهو يسأله في تعاطف:

ـ هل تريد المشيخة يا ناندو؟

نظر إليه ناندو في اضطراب، قطع كلامه عندما وصل شهلي مسرعا، معلنا طلب الشيخ لبشير على الفور.

ابتسم بشير ابتسامة متوترة، أشار إلى شهلي ليمشي أمامه، فتبعهما ناندو في فتور.

(٨)

سار الموكب الصغير متجها نحو المشيخة، كانناندو في المقدمة وهو يدندن بصوته الشجي لحنا حزينا بلا كلمات. بدا لبشير الذي يمشي خلفه كما لو كان موسيقى تصويرية كئيبة لا سيما أنه تزامن مع غروب الشمس في دجا، كان بشير مضطربا، دقات قلبه تتوالى سريعة وعرق بارد يتسلل إلى جبهته رغم أن الجو قارس البرودة، كان يهاب لقاءها، شوقه لناندو لم يكن السبب الرئيسي في ذهابه إلى البحيرة قبل أن يلتقي بها، كان يحاول تأخير لحظة اللقاء العصيب. أروكا التي تحمل في داخلها شخصين، أمه التي وافقت على أن تعفيه من المشيخة في آخر مرة، والشيخ أروكا.. الفرعون المتسلط الذي لا يسمع ولا يسمح بالمناقشة. غالبا هناك من وسوس في أذنها وأقنعها بأن تعيده إلى دجا. لهذا أرسلت إليه من يأتي به حاملا تهديدا مباشرا. التهديد ليس من طبع أمه، لكنه من طباع الشيخ. لعنتها دائما كانت في أنها تملك أذنين تسمعان لكل ما ينطق به من حولها. تنصت لأودا ولشهلي كما أنصتت لأبيها الشيخ عثمان ودفعت الثمن. ودفعه معها ولديها. ويبدو أن هناك المزيد الذي سيكون على بشير بالتحديد أن يدفعه.

كان شهلي يمشي في انتباه كما لو كان جندي حراسة في عهدته اثنان من المذنبين. انتظر إلى أن اتسعت المسافة بين الأخوين واقترب من بشير هامسا:

ـ أيًا كان ما قاله لك ناندو، لا تنصت إليه.

ـ ماذا تقول؟

ـ ناندو لم يعد معنا..

تساءل بلهجة ساخرة:

ـ ومن نحن.

تدخل ناندو في الحوار من خلفهما بصوت غاضب:

ـ يتكلم عني؟

لم يجب أي منهما، أدار شهلي وجهه إلى الجهة الأخرى بينما اكتفى بشير بغمزة من عينه دون أن يعقب. واصل الموكب سيره في صمت، قطعه بعد قليل صوت ناندو الذي ارتفع بالغناء ة أخرى..

عند باب البيت كانت أودا تقف في ترقب، إلى جوارها عبلة الصغيرة التي صاحت بمجرد رؤية بشير مشيرة إليه:

ـ هذا هو بشير النذل. ألم أقل لك؟

هوت على وجهها صفعة فائقة السرعة من أمها التي حاولت أن اري حرجها بابتسامة صفراء وهي تقول في ود مصطنع:

ـ حمدا لله على سلامتك يا بشير.

انحرت الصغيرة في البكاء وانطلقت تجري إلى الداخل.. تجاهلها بشير راسما على وجهه ابتسامة صفراء، كما تجاهلها شهلي تماما، اقتربت من ناندو وتبادلا حديثا هامسا لم يلتفت إليه ،مر دخل الجميع إلى المنزل وأغلق شهلي الباب، آجال بشير في أرجاء المنزل، ما زال هذا البيت يثير في داخله مزيجا من المشاعر المتضاربة. ذكريات طفولته السعيدة مع أ وأبيه وجده حماد الذي كان يحبه رغم كل ما يكرهه فيه، الركن الذي جلس على فيه لأسبوع كامل منتظرا عودة أبيه الذي لم يعد. المصطبة التي كان ناندو راقدا عليها بعد اليوم المشئوم وهو يرجوه أن ينطق، ثم يحتضنه ثم يصفعه وهو لا يستطيع استيعاب الأمر كيف يمكن لأخيه الذي كان يتحدث معه منذ بضع دقائق أن يفقد قدرته على الكلام والحركة؟ أمه وهي تجره بعيدا عنه وتدخله إلى غرفته دونه، جلس ليراقبها وهي تفعل نفس ما فعل، تهزه ثم تحتضنه ثم ترجوه ثم تصفعه وهو لا يبدي أي ردة فعل. ثم تنهار باكية وتجلس على الأرض ساندة ظهرها إلى المصطبة التي يجلس عليها ناندو.

ثلاثة أدوار متتالية تحمل كل طفولته وصباه وبداية شبابه، الدور الأول أو المضيفة كما يطلقون عليه. مساحة شاسعة مليئة بالمصاطب ومفروشة بالحصر والمساند الإسفنجية من أجل التجمعات وأوقات الطعام، في الطرف الأيمن يوجد فرن الخبيز البدائي الذي أصبح مسئولية ابنة شهلي الكبرى منذ أن ماتت زوجته. إلى جواره مطبخ متسع مجهز، ثم دورة مياه صغيرة غالبا ما يقتصر استخدامها على الضيوف. أما الدوران الثاني والثالث فتم تقسيمهما بالتساوي إلى اربعة أجنحة من الغرف: أحدها أصبح يخص أمه وأسرتها والثاني

يخص خالته أودا والثالث يخص الضيوف الذين يحملون أهمية خاصة، أما الأخير والذي كان يخص جده عثمان، فمازال كما هو. غرفه مغلقة على أغراضه وملابسه على نفس حالها منذ موته، والغرفة التي كان يلتقي فيها بمريديه والتي تسمى «غرفة الرقية» هناك بلا حديد كان الشيخ آروكا ينتظر.

وقف بشير مندهشا على الباب بعد أن أشار إليه شهلي بالانتظار إلى أن يأذن بالإذن، كاد يدفعه بعيدا ويدخل إلا أنه سبقه باعتذاره موضحا ان تلك أوامر الشيخ وأنه لا يستطيع عصيانها. نفث غضبه في نفخة طويلة في وجهه، غاب هو في داخل الغرفة لدقائق طويلة ثم خرج مبتسما في ارتياح قائلا:

ـ تفضل.

تحرك الثلاثة للدخول، لكن شهلي أشار إلى ناندو وأودا بالانتظار. تجاهل الدهشة والغضب المرتسمين على وجوههما وهو يقول في برود:

ـ بشير فقط، هذه أوامر السماء.

* * *

بمجرد أن رأى بشير أمه أصابه شك جعله يراجع ذاكرته جيدا. هل جاء إلى هنا بالفعل منذ عامين فقط؟ المرأة الجالسة أمامه تختلف تماما عن التي التقى بها في المرة السابقة، عشر سنوات لا تكفي لتحفر على وجهها وجسدها كل تلك الآثار. فقدت الكثير من وزنها وامتلأ وجهها بتجاعيد سميكة تكاد تخفي ملامح وجهها التي

ـه. فها، شعرها المتناثر من تحت طرحتها أبيض كخيوط جلباب •هـري، ولا يحمل آثار الحنة الحمراء التي اعتادها. بدت كما لو فانت ترتدي جسـدا آخر تحت زيها الأنيق المعتاد، جلبابها الفضي اللامع وطرحتها السوداء المشغولة بنجوم تطابق لون الجلباب وهلال يتدلى على جبهتها، حلقة بيضاء معلقة في ثقب أنفها، وقفاز ،هي كالشبكة يغطي الكفين ويختفي عند بدايات الأصابع، وسبحة من العقيق الحر في يدها.

ألقى بشير نظرة سريعة على غرفة الرقية، لم يتغير فيها شيء، ينقسم إلى نصفين في خلطة تشبه وجود الفرن البدائي إلى جوار المطبخ الحديث في الدور الأرضي. نصفها بالتحديد يشبه مكاتب المحامين في القاهرة بمكتب كبير وطاقم جلدي للانتظار وكراسي متناثرة. أما النصف الآخر منها فهو حلقة كبيرة مفروشة أيضا بالحصر، وفي منتصفه مبخرة ضخمة تمده بالفحم من الموقد المعدني الرابض في آخر هذا الجزء من الغرفة، يتوسط النصفين كرسي مذهب تكسوه القطيفة الحمراء، (كرسي العرش) كما يطلق عليه بشير ونادو، طالما رآه دخيلا على المكان، لم يرَ الشيخ أروكا جالسا عليه قبل ذلك على عكس الشيخ عثمان الذي لم يجلس على كرسيه في وجود أي زائر.

لم يمنحها الجلوس عليه أي عظمة إضافية بل على العكس، كانت جلستها توحي بالضعف وقد فردت ساقيها على مقعد صغير أمامها، عيناها مغمضتان، وشفتاها تتحركان بشكل منتظم في نوع من الأذكار المبهمة. امرأة أخرى تماما غير التي التقى بها آخر مرة.

حتى لغتها تغيرت، بمجرد دخولهم عليها صاحت دون أن تفتح عينيها مخاطبة بشير:

ـ تعالَ يا ابن بطني. اقترب..

أجابها في [illegible] حقيقي:

[illegible] ريضة؟

مد[illegible] يدها أمامها فانحنى يقبلها دون أن يتكلم.. تابعت هي في غضب.

ـ مريضة بك. ذهبت إلى أخيك قبل أن تأتي إليَّ.

نظر إلى الأرض ولم يجب، الشيخ يتحدث عن نفسه كأم وأنثى! تنهدَت هي في حسرة:

ـ وتريد أن تبقى في القاهرة ولا تريد العودة إلى وطنك. ماذا أصابك يا بشير؟

فتحت عينيها وعدلت من جلستها.. نظرت إليه في عتاب:

ـ ودرست الفلسفة لتعمل نوتيًا يا سلالة الشيخ عثمان.

قاطعها بصوت خافت:

ـ سأعمل مدرسا.

نظرت إليه بتمعن، هزت رأسها في استدراك وهي تقول:

ـ نعم.. نعم. مدرسة ثانوية للبنات، أخبروك الأسبوع الماضي بالموافقة، لكنهم سيعتذرون لك في بداية العام.

كان بشير يعرف من هي أمه جيدا. لديها من يأتون إليها بكل الأخبار من كل شبر في مصر بل خارجها أحيانا، لكنها تبدو مضطربة، ليست على حالها، الشيخ أروكا العارف بالله والعارف بكل شيء، تدخل إلى هذه الغرفة وتجلس معه فيخبرك بتاريخك وماضيك ومستقبلك الذي لن يأتي لأنه سيتدخل بقواه العلوية لتغييره. ولأن هذا المستقبل لن يحدث، فلن تعرف أنت أبدا هل كان الشيخ صادقا أم لا! له أعين في كل مكان وله علاقات لاتنتهي مع رجال ونساء يطلبون وده ورضاه. تأكد من أن ظاهرها فقط هو الذي تغير أما قلب الشيخ فلم يتغير؛ لذلك ابتسم في هدوء:

ـ ظننتك تريدني لأمر آخر، لكن يبدو أنني أخطأت، سأعود إلى القاهرة، وسأعمل أي شيء هناك. أنا أتيت طلبا لرضاك، وأرجوك أن تتوقف عن إرسال رجالك خلفي، فلا تجعلني أرحل بدونه.

لم يعلق الشيخ، تدخل شهلي مثرثرا عن حق البلدة عليه وعن رغبة الشيخ وطاعته، أشار إليه بشير ليصمت وهو ينظر إلى أمه منتظرا ردها.

ـ ارحل بدونه وسيقتلونك أيها الرافض.

قالتها بحزن ثم تحولت ملامحها إلى الغضب وهي تردد كلمات غير مفهومة، ثم صاحت في حدة:

ـ لن تعود يا بشير، مكانك هنا. أنت الشيخ القادم، لا يوجد سواك..

أجاب في دهشة:

ـ ألم نتفق من هذا الأمر في المرة السابقة؟ ألم تقل لي إنها حياتي ولأفعل بها ما أريد؟

هزت رأسها في إصرار:

ـ أنت تكذب. لم نتفق على شيء مثل هذا، قدرك أن تكون حفيد داعو وعثمان وابن الشيخ أروكا. هذه منحة من الله، احترمها..

أشاح بيده وهو يقول:

ـ هذا قدركم أنتم، أنا لن أكون الشيخ، لست مثلكم ولا أعرف شيئا عما تفعلونه، فلا أنا أجيد صرف الجان ولا إحضارهم.هذه حرفتكم أنتم. أنا لم أتعلمها منكما..

أجابت في ثقة:

ـ سأعلمك..

ـ لا أريد.

ـ لا يهم أن تريد أو لا.. هذا واجبك.

ـ واجبي أن أعلم ما تعلمته.. ابحث عن غيري..

بدت لهجتها أكثر لينا وهي تقول:

ـ هل تعرف ما الذي سيحدث إذا أصبح الأجواش هم من يحكمون هذه التربة؟ ظلم وقتل، قوم بلا دين ولا خلق، هل ترضى أن يحدث هذا لأهلك؟

أجاب في بساطة:

ـ أوصِ بالمشيخة لأختك أدوا.. هي تريدها.

ضحكت بعصبية:

ـ يأخذها الأجواش أرحم. أودا ملعونة مثل الأجواش..

أجاب غاضبا:

ـ يأخذها من يأخذها، أنا لا أريدها، وسأرحل في الصباح إلى القاهرة.. وأستحلفك برحمة جدي أن تتوقف عن ملاحقتي.

ـ ورحمة جدك لن ترحل.

ـ هل ستحبسونني في المشيخة؟

ـ لا أحتاج إلى ذلك..

ثم صرخت في غضب فيَّ:

ـ شهلي..

اقترب العجوز منها في هلع فصاحت فيه:

ـ سنمنع دخول البلدة والخروج منها اعتبارا من الغد.

سألها في استنكار:

ـ ستحبس أهل البلدة جميعا من أجلي؟

هزت رأسها وهي تقول في ثقة:

ـ بل أحبسك أنت وأهل البلدة من أجل البلدة.. احبسه حتى

الصباح يا شهلي، ومن الغد اتركه يفعل ما يريد.. فلن يأخذه أحد وهو يعلم أنني أمرت بذلك

زادت ثورتها وهي تصرخ:

ـ ولعلمك، أنا أعرف كل شيء عن تلك الفتاة التي تريد أن تأخذك من أهلك!

اعليه الضيق وهو يقول:

ـ أنا الذي أخبرتك عنها في الزيارة الأخيرة. واتفقنا على أن تسمح لي بألا أعود مرة أخرى في مقابل أن أتركها وأتزوج من هنا. عموما أنا تركتها ورائي ورحلت دون حتى أن نلتقي، ولابد أنها لا تريد رؤية وجهي مرة أخرى.

ابتسمت في حسرة وهي تهز رأسها:

ـ هل تريد رضاي على أن تتركنا وتتزوج فرنسية؟

أجاب ساخرا:

ـ لا أعرف فرنسيات، مصرية واسمها نور..

زاد صراخها حدة وهي تقول:

ـ لا تحاول أن تخدعني، فرنسية واسمها بيرجيت، رأيتها وأعرفها من بين ألف. عليك وعليها اللعنة.

هَمَّ بالإجابة إلا أن شهلي لم يمهله، كانت يدها قد بدأت ترتعش من فرط الانفعال، جذبه من يده وهو يرجوه بأن يغادر الغرفة.. ، معس في إصرار فضغط على يده وهو يهمس:

ـ فيما بعد ياولدي، دع الشيخ يستريح الآن.

تحرك بشير معه على مضض، كانت تواصل لعناتها الغاضبة، جاءه صوتها من الداخل:

ـ فرنسية ملعونة.. وأنا سأطهرك منها يابشير!

نظر إلى شهلي في انزعاج:

ـ هل الشيخ مريض يا شهلي؟

أجابه بصوت خافت:

ـ الشيخ لا يمرض يا بشير..

## (٩)

كان بشير مشغول العقل بما ستفعله فيه أمه. يعرفهم جيدا، يبدءون الأمر بكذبة جديدة ثم يبنون عليها سلسلة من الأفعال المبررة بما قالوه. بشير على علاقة بامرأة فرنسية اسمها بيرجيت! دهشته من ذلك الأمر فاقت كثيرا دهشته من حكمها المريب بحبسه في دجا. لماذا تفعل ذلك وهي تعرف جيدا أنها تستطيع أن تأتي به في حالة هروبه تماما كما أتت به هذه المرة؟ لماذا لم تحاول أن تتحدث معه أو تستعطفه كولي للعهد كما فعلت في المرة السابقة؟ الأمر مختلف هذه المرة. هناك ترتيب ما سيحدث في الأيام القادمة، ولابد أن تضمن وجوده. لم يستدعِ الأمر منه الكثير من الذكاء ليعرف أن الترتيب غالبا ما يخص نقلَ المشيخة إليه. شيء آخر كان يشغل باله؛ هو تغيُّر حال الشيخ، لماذا يبدو أكثر ضعفا وعصبية؟ من الواضح تماما أنه مريض رغم إنكار شهلي.. ربما يكون مرضه هو ما غيَّر اتفاقهما، لكن بشير رغم قلقه عليه ليس لديه أي نية لتغيير موقفه وليكن ما يكون.

كان يعرف أن جلوس شهلي أمامه في المضيفة نوع من الحراسة ... بشير حبيس هذا المنزل الواسع، أي مكان سيذهب إليه

سيجد فيه من يتحرك معه، لم تنجح كلمات شهلي الباهتة في أن يهدئ من روعه، حالة من الغضب والقلق الشديدين، غاضب مما يحدث وقلق مما سيفعلون. هؤلاء المجانين! توالت الأفكار على رأسه.. إلى متى ستحبسه أمه؟ وإلى متى ستمنع دخول الناس إلى البلدة؟ ماذا تفعل نور الآن، وما الذي قالته عنه عندما رأت الخطاب الذي تركه لها قبل أن يفر منها إلى دجا متعللا بخوفه من أتباع الشيخ؟ لا بد أنها على وشك الجنون الآن، وهي تعرف أنها فقدت أثره إلى الأبد. دجا البلدة الصغيرة التي لم تتغير منذ عشرات السنين، مكان معزول عن العالم. لم يهتم أحد بأن توجد بها شبكات للمحمول ولا أي وسيلة أخرى للتواصل مع الآخرين، رفضوا تماما أن تصل إليهم هذه الخدمات عندما عرفوا أنها تعتمد على موجات غير مرئية. قالوا إن ذلك قد يعطل صعود وهبوط الأرواح من وإلى دجا، بنوا قرارهم على قرار قديم للشيخ عثمان الذي رفض أن يستخدم أهل دجا الراديو والتلفاز عندما عرض عليه ذلك. هكذا زادت عزلة البلدة عن العالم، هناك فقط بعض الهواتف الأرضية في بعض المنازل وهذه أيضا محدودة العدد بناء على أن ما يتعطل لا يتم إصلاحه، ولم يتم إضافة المزيد من تلك الهواتف التي دخلت دجا في غفلة من الزمن! الشيء الوحيد المسموح لأهل دجا بالتواصل مع العالم من خلاله، هو الصحف التي تصل مع القادمين من أسوان والتي تحمل غالبا هراء لا ينتهي تتكلم فيه عن أشياء متعددة لا نهائية ليس من ضمنها دجا.

كان رأس شهلي يدور يمينا ويسارا وإلى أعلى وأسفل وهو صامت، تنهد بشير في استياء، كلهم يتمتمون طوال الوقت. يسمون

ما يفعلونه ذكرا رغم أنهم يذكرون الله ولا يتذكرونه، أنهم يفعلون لمنعهم ذلك من الكثيرمما يفعلونه. كيف يمكن أن تظلم وأنت تذكر الله، تخدع الناس وأنت تذكر الله، تتظاهر بأنك تسخّر جنيًا لخدمتك وتقول إن هذا بأمر الله؟

قام بشير من مكانه وقفز إلى حيث يجلس شهلي، أمسك رأسه بين يديه الاثنتين ليمنعه من الدوران.. لم يقاومه شهلي، كان ينظر إليه في اعتذار شجعه على أن يسأله في تأنيب:

ـ هل يرضيك ما يحدث يا شهلي؟

أجاب في هدوء مصطنع:

ـ ما الذي يحدث يا ولدي، هنا مكانك وليس هناك؟

أجاب بشير غاضبا:

ـ أنا الذي أحدد مكاني لا هو. لا اريد أن أصبح شيخا، فهل سيجعلني شيخا بالإجبار؟

هز شهلي رأسه نافيا وهو يقول:

ـ لا شيء ياولدي بالإجبار.. لكن بالعقل. أنت ابنها الأكبر، والوحيد الذي يصلح لمنصب الشيخ بعد ما جرى لأخيك الأصغر الذي أصبح معطوبا ولا يصلح للمشيخة..

قاطعه في غضب:

ـ ومن الذي فعل ذلك في أخي الأصغر. أليس الشيخ؟

سكت شهلي ولم يجب، بدا على ملامحه الأسى. خمسة عشر

عاما مرت بالتمام والكمال على ما جرى لناندو الذي كان يلعب في المنزل مع بركات؛ صديقه الذي كانت الأم تغضب كلما رأته. كانت تلك بداياتها في المشيخة، تريد أن تثبت للجميع أنها بكفاءة وقوة الشيخ عثمان. طالما عبَّرت عن استيائها مما يفعله ناندو. كيف يلعب ابن كبيرة السهالك مع طفل من فقراء الأجواش؟ بل يأتي به إلى المشيخة أحيانا عندما تغفل هي ورجالها عنهما، في ذلك اليوم بالتحديد اختفى التمثال الصغير الذي كان يمثل ملكة نوبية قديمة لا يعرف أحد اسمها، ولا حتى إن كانت له قيمة حقيقية. مجرد تمثال صغير يرقد في أحد أركان المضيفة.

لم تحتج أروكا إلى التفكير لتتهم بركات بسرقته، أتت بأبيه وبكبير الأجواش طالبة منهما أن يأتيا بالتمثال. كان الصغير يبكي منكرا أن يكون قد فعلها، وكان ناندو يبكي وهو يؤكد أن صديقه لم يغب عن عينيه للحظة واحدة. أسكتته أروكا بصرخة غاضبة.. بينما قال كبير الأجواش غاضبا:

ـ ربما يكون ابنك من سرقه!

سكت كل من في المجلس، وأصدرت الأم حكمها على ولدها وصاحبه؛ ستقيم مراسم (الحقانية) لتعرف من فعلها. ذلك التقليد الأحمق الذي توارثوه أبا عن جد.. يشبه البشعة التي يفعلها البدو عندما يطلبون من المتهم أن يلحس النار، يقولون إن النار لن تلسع لسانه إن كان صادقا. أما الحقانية فتعتمد على أبي السيور؛ ثعبان طويل قبيح يعض ولا يقتل، توضع سلة من الخوص في المنتصف بين المتهمين، تفتح ويخرج كل المتهمين ألسنتهم. إذا أنشب

أبو السيور أنيابه في لسان من الألسنة ثبتت عليه التهمة، يصاب بعدها المتهم بالحمى لعدة أيام لكنه لا يموت.

في اليوم الموعود تجمع كبار الأجواش والسهالك، كان الصبيَّان يكيان. وكان بشير واقفا يراقب في غضب، يخاف على أخيه من ناحية ويكره أن يراه متهما في تهمة قبيحة مثل هذه. ما الذي سيفيد صغارا لم يتخطَّ عمرهم العاشرة إذا حصلوا على ذلك التمثال، ومن الذي سيجرؤ على بيعه وأين سيبيعه؟ أمه ومن وراءها كان لهم رأي آخر. رأوا أن ما حدث بإيعاز من الأجواش ليحصلوا على هذا التمثال، الغرض هو كسر هيبة السهالك بأخذ ما يملكون من داخل منازلهم، هذه ستكون البداية، سيتوالى بعد ذلك ما يأخذونه إلى أن يصلوا إلى المشيخة. رغم سخافة ما قيل في نظر بشير الصغير إلا أن كل الكبار من حولها ولدهشته أعلنوا عن غضبهم الشديد بمجرد أن فهموا الخطة!

في تلك الليلة كان القمر مكتملا لكنه لا يضيء شيئا أمام بشير الذي كان واقفا يراقب عن بعد، تلتقي عيناه بعيني أخيه المستنجدتين فتسيل دموعه في صمت، كان ناندو يرتعش فتزجره الأم في قسوة. دق قلب بشير بعنف في اللحظة التي أزيح فيها غطاء السلة بيد مرتعشة لشهلي الذي يجلس أمامه الآن. انطلق الثعبان يتلوى في المنتصف بين اللسانين، ارتفع إلى أعلى حتى اقترب من لسان ناندو الذي أخذ يصرخ صراخا هيستيريًا، ظهرت آثار البلل على جلبابه الفاتح فضحك الصبية وهم يشيرون إلى آثار البول على ملابسه فزاد صراخ ناندو، صمت الجميع تماما عندما تسمر الثعبان كما لو كان يتفحصه، أمال رأسه في اتجاهه فتزايد صراخ الصغير،

ﻇﻞ الثعبان مبتعدا عنه وإن تراقص في توتر ربما نتج عن حدة الصراخ، ثم قفز فجأة ناشبا أسنانه في لسان بركات الذي سقط على الأرض يتلوى دون أن تصدر عنه أي أصوات، جرى إليه أبوه لينتزع الثعبان من لسانه الذي تفجرت منه الدماء، تعالى الصراخ من كل جانب، سقط ناندو مغشيًا عليه فجرى إليه أخوه، كان المشهد أقرب ما يكون إلى الفوضى التي يخلفها دخول ذئب مسعور إلى قرية، يترك ضحاياه الذين غالبا ما يكونون من الأطفال ويبتعد قبل أن يفكر أحد في اقتناصه. هذا ما خطر لبشير في تلك اللحظة، لكن الذئب لم يفر، فقد وقفت أمه تنظر إلى الأجواش في كبر وغضب، واعتبرت أن ما حدث انتصار لها عليهم، ربما كان كذلك وأثبت أن الشيخ أروكا كالمعتاد لا يخطئ. لكن ناندو فقد قدرته على الحركة والنطق بعدها لأسابيع طويلة، وفقد روحه المرحة حتى الآن، بركات لم يشفَ من الحمى بل مات بعد ثلاثة أيام، رأى الشيخ أنه يستحق لأنه لص، ورأى الأجواش أن أروكا قتلت صغيرهم فزادت الكراهية، ورأى بشير أنها قتلت بركات وناندو، ولم يغفر لها ذلك أبدا!

لمعت عينا بشير بالدموع، رمى شهلي بنظرة مريرة فتغير وجهه، بدا له أنه يعرف ما كان يدور في رأسه، ربما لهذا ارتعشت يداه كما حدث في اليوم المشئوم وأشاح بوجهه بعيدا، فسأله بصوت مختنق:

- هل تريدني أن أصبح مثله يا شهلي؟

- أريدك أن تصبح مكانه، وكن كما تريد.

أشاح بيده قائلا:

ـ لا أريد مثله ولا مكانه يا شهلي، أريد أن أصبح شيئا مختلفا، أريد عالما جديدا، أعمل وأنجب وأصنع مستقبلا، أريد أن أعيش في القاهرة، هناك في النور.

قطع كلماته بضحكة ساخرة قبل أن يتابع:

ـ حيث لن يعرف أحد أن دمائي مخلوطة بدماء الجان.

هز شهلي رأسه في تفهم وهو يقول:

ـ اسمع يا ولدي. أنا عاصرت أمك وجدك عثمان، وأنا الآن عجوز على حافة الموت وأستطيع أن أدعي أن لديَّ من الحكمة ما يكفي لأعلمك إياه، جدك لم يكن شريرا وأمك كذلك، كل ما في الأمر أنهما كانا يحتاجان إلى إثبات أنهما يستحقان سيادة هذه القرية، تلك هي مشكلة الشيخ هنا دائما، ينشغل غصبا عنه بصنع نفسه، وربما إذا جئت أنت فستفعل شيئا مختلفا، هذا واجبك يا بشير، إياك أن تترك حكم هذه القرية لأودا أو للأجواش فهما لن يرحما أحدا، وأولهم أمك يا بشير.

قفز شهلي من مكانه واقفا في هلع عندما وجد صوت أودا يأتي حاذًا من ورائه:

ـ مالها أودا يا شهلي؟ ما الذي ينقصها لتحكم بعد أروكا، ولماذا تتحدث أنت في كلام الشيوخ؟

وقف شهلي مضطربا لا يعرف ما يقول، نظرت إليه أودا نظرة ، لم يكترث بشير كثيرا فأودا وإن كانت تزعجه إلا أنها لا تخيفه. رفعت يدها مشيرة لشهلى لكى ينصرف، تجاهلها تماما

وجلس في مكانه، تجاهلته هي أيضا وجلست إلى جوار بشير، وضعت أمامه طبقا كبيرا من الفاكهة كانت تحمله وهي تبتسم في تودد، ثم همست بصوت هادئ:

- تفضل يا بشير..

نظر إليها وهو يبتسم في مرارة.. كان يعرف جديًا أن قدومها لا يعني خيرا أبدا. أودا لا تذهب إلى أحد إلا بناء على تخطيط سابق، إما أنها تريد شيئا وإما تريد أن تفسد شيئا وإما تريد أن تشي بأحد ما، لم يسمعها منذ طفولته تفعل شيئا آخر، حتى جده عثمان كانت تلعب برأسه كيفما تريد. لم تخرج من غرفته يوما إلا وعلى ملامحها خليط من النصر والشماتة، تدخل باكية أو صارخة أو متلوية من الألم أو حاملة صينية طعام كبيرة أو طبقا من الفاكهة مثل هذا الذي وضعته أمام بشير. ثم تخرج بعد قليل حاملة ما أرادت. حتى في المرات النادرة التي خابت فيها كانت تعرف جيدا كيف تشن حملة أخرى بدون احتمالات خسارة. فعثمان الدجاوي الرجل المخيف الذي سيطر علي البلدة بأكملها، والذي منع المدنية من الدخول إليها. كان يقف عند زوجته كالقط الأرقط، لا يستطيع أن يقول: لا. ربما يقاوم لكن في النهاية كان كل ماتريده زوجته التي كان أميز ما فيها صوتها العالي سينفذ لامحالة. وأودا كانت تعرف جيدا كل مداخل أمها؛ لهذا أخذت كل شيء، إلا المشيخة. اقتربت منها كثيرا وتخطت أختها الكبرى كالعادة إلا أن الشيخ عثمان سمع بأذنيه ما يقال عن أودا، عرف أن من المستحيل أن ترث هذه الصغيرة المشيخة وهي تحمل كل تلك العيوب، أنثى

وصغيرة وشريرة. مجرد انتقال المشيخة إلى أنثى هو مخاطرة كبرى لم تحدث قبل ذلك. لم يتقبل أحد اسم أودا عند طرحه، أما أروكا فلم يحمل الناس لها خيرا أو شرّا. وهنا بدأ إعدادها، احتاجوا إلى شهور طويلة من التقديم لذلك بالحديث عن خوارق أروكا.. وعن قدرتها اللامتناهية على الحكم والحكمة، تعاظمت سمعتها سريعا. حفيدة داعو التي تُشفي من كل العلل، كل يوم حكاية عن مريض وشفاء. ثم جاءت نبوءة جنة الغامضة والتي تبعتها بشارة تحولها إلى الشيخ لا الشيخة بأمر من داعو، هكذا لم يعارض أحد عندما أوصى عثمان لابنته بالمشيخة وهو لا زال حيًا. إلا بعض الأجواش، وأختها أودا بالطبع.

بدأت أودا في تقطيع الفاكهة له، ثم مدت يدها لتضع قطعة من التفاح أمام فمه فأشاح بها بعيدا، لم يبدُ عليها الانفعال، استطردت:

ـ أعرف ما يحدث جيدا يابشير. أنت لا تريد العودة، ولا تريد أن تكون شيخا. صدقني هذا هو أفضل تفكير، لا أدري لماذا تريد أروكا أن تضعك في مكان لايخصك. أنت لا تصلح لهذا المكان وإذا أخذته فسيكون لعنة عليك، وتظن أنني أخدعك رغبة مني في أن أصبح أنا الشيخ، لكن ياولدي هذا ليس صحيحا. أنا أصدقك لأنني أرغب في المشيخة.

نظر إليها بشير في ار‍ـ أين سمع هذا الكلام من قبل؟ استعرض ما مر به منذ وصوله، لم يتذكر من الذي حادثه بلهجتها، لكنه بدا له مألوفا.

أومأت برأسها لخادمتها فتحركت لتفتح الباب، سمع بشير صوت صراخ مخيف لا يمت للبشر بصلة، توجس الشر للحظات، دخل عدد من رجال الأرانك، كان من السهل على بشير تميزهم من لون بشرتهم، انتفخت أعينهم واكتست وجوههم بخليط من الأزرق والأحمر جراء العصي والكفوف التي هوت عليها، تلاهم آخرون عرفهم بشير، كانوا من الأجواش والسهالك، على وجوههم علامات الاستياء، خلفهم رجال أودا يحملون أقفاصا معدنية القضبان، في داخلها قرود صغيرة الحجم تشبه ذلك الذي هاجم بشير في يوم وصوله.

قام شهلي غاضبا من مكانه ليصرفهم، لم يستجب له أحد، كان كل الواقفين من رجال أودا، نظر بشير إلى شهلي الذي وقف حائرا للحظة ثم غادر مسرعا وهو ينادي رجاله، عاد بعد لحظة وهو يصيح:

ـ ماذا فعلتِ؟ كل رجال الأجواش والأرانك يقفون في الخارج.

ابتسمت أودا وهي تجيب:

ـ ربما يجد الشيخ الجديد حلًا، طالما القديم لم يزل ينتظر أمر السماء.

كان بشير في حالة ذهول تامة، اختلت الأصوات والحكايا ليعرف كل ما حدث، منذ أشهر والأرانك يعانون من الجوع بعد أن توقفت عطايا الشيخ أروكا لهم، أصبحوا يفتشون عن طعامهم في القمامة والطرقات، عاد أحدهم يوما بقرد صغير وبدأ في تقديم فقرات مضحكة مقابل ما يلقي به الصغار من طعام له وللقرد الصغير،

لم يبالِ أحد إلا أن الأمر تفشى بعد أن أصبح كل رجال تلك العائلة من (القراداتية)، أحضروا المزيد من القردة، لم يعد الأمر طريفا. بمجرد أن تتخطى منازل السهالك تجد في كل طريق واحدا منهم، لم تعد العطايا تأتي، أصبحت القردة تتسلل إلى بيوت الأجواش والسهالك على حد سواء لتأكل وتطعم أصحابها، هاجمهم الأجواش منذ عدة أيام وأخذوا منازلهم وجبوا قرودهم إلا واحدا أو اثنين فرَّا في الظلام. حاول بعض الأرائك استعادة منازلهم فأمسك الأجواش بهم وأوسعوهم ضربا، وأعلنوا أن منازلهم حق لهم، فوثيقة داعو تقول إن المسروق يخيِّر بين قتل السارق وأخذ بيته. لم يجرؤ الآخرون على تكرار المحاولة فتوجهوا إلى الشيخ الذي لم يقابلهم وأمرهم بانتظار أمر السماء الذي لم يأتِ، ثم قام بعض فقراء السهالك بأخذ منزلين من منازل الأرائك وطردوا منهما الأجواش وأعلنوا أنهما أصبحا حقيْن لهم، اكتفى الأجواش بما أخذوه ولم يريدوا صراعا جديدا مع السهالك، أتت بهم جميعا أود لرؤية الشيخ الآتي وحكت له الأمر باقتضاب، أوضحت له أن كل من بالخارج ينتظرون حكما سيتحركون بناء عليه.

ـ ماذا ترى يا شيخ بشير؟

نهرها شهلي:

ـ لا أحد يحكم على أهل دحا إلا الشيخ.

صاحت بحدة:

ـ إلا إذا ارتضوا.

أعلن الأجواش على الفور عدم رضائهم بحكم بشير، التزم السهالك الصمت ويكى رجل من الأرائك وهو يرجوه أن يحكم بينهم، أخرج قردا صغيرا من قفصه ليرى الجميع ما يفعلونه، قفز القرد بين ذراعيه فزعا فهدأ من روعه، وابتسامات السخرية والاحتقار على وجوه رجال القبيلتين الكبار، أخذ يغني وهو يبكي.

هز يا مملوك، هز وأنا المالك

أسيادنا أجواش، وأسيادنا سهالك

تسألني وأقول.. أنا مالي ومالك

وما تكرهنيش، أنا حالي من حالك.

اندهش بشير لملامح القرد الذي كان يرقص وهو مربوط بسلسلة طويلة وعلى وجهه ملامح حزن طفل يوشك على البكاء، اختنق صوت الرجل بالبكاء، أجال القرد رأسه بين الوجوه وقد بدا له أنه بلا سيد، تعلقت عيناه بعيني بشير الذي بادله النظرات، قفز فجأة في اتجاه بشير وتعلق برقبته ودفن رأسه في صدره واستكان تماما. وضع بشير يده عليه وربت ظهره في حركة لاإرادية، تحرك الرجل في هلع لينتزعه من صدر بشير، مد القرد يده وهو يخرج من صدر بشير آخذا منه الخطاب الذي كان يحوي رسالة ناندو، ابتسم السهالك والأجواش في انتصار، وبدت خيبة الأمل في صوت القرداتي الذي اعتذر في توتر وهو يتوسل إلى بشير بأن يغفر له ويعيد إليه بيته ويطرد الغاصبين.

مالت أودا على أذن بشير هامسة:

ـ ماذا ستفعل يا شيخ بشير؟ هذه حكاية اليوم وستأتي أخرى غداء اللص جائع وضعيف والغاصب قويّ.

أجاب بشير في شرود:

ـ خطاب ناندو.

نظرت إليه أودا في حيرة، لم يكرر ما قاله، كاد يجزم بأن ما جاء في خطاب ناندو وما تقوله وتفعله أودا الآن أتيا من مصدر واحد، انقبض قلبه عندما تخيل أخاه وخالته يرسمان خطة مشتركة لإبعاده عن المشيخة.

تدخل شهلي بصرامة معلنا قراره بأن يعود كل منهم من حيث أتى ويؤجل الأمر إلى أن تحكم فيه الشيخة، استدارت الرءوس في اتجاه بشير الذي لم يعقب على الإطلاق.

أودا لم تصمت، فردت قامتها وهي جالسة في مكانها قائلة:

ـ أنا سأحكم.

صاح شهلي غاضبا:

ـ حكمك باطل.. لا يحق لك الحكم على أهل دجا..

لم تعره انتباهها ولو للحظة وهي تتابع:

ـ آمر رجالي بقتل جميع القرود، وتسلم جثثهم للأجواش ليستخدموها في أعمالهم، وعليهم وعلى السهالك إعادة الأرانك إلى منازلهم. ولهم أقفاص القردة فتلك كانت منازل اللصوص؟

أردفت وهي تنظر في عيني شهلي:

ـ ليس هذا حكما بل تصحيحٌ للأمور، والقردة ليست بشرا ولا من أهل دجا لكيلا يكون لي الحكم عليها.

أجال بشير عينيْه في وجوه الجميع فرآهم جميعا يحركون شفاههم ليقولوا شيئا فلا يستطيعون، أخرستهم أودا، الحكم لا يرضي أحدا ولا ينصر أحدا، نظر إليها الرجل الذي كان لم يزل يحمل قرده:

ـ اتركي لي هذا الصغير.

هزت رأسها في إصرار وهي تنظر إلى بشير كما لو كانت تخاطبه:

ـ القرد يصنع القرداتي. بدونه ستكون رجلا صالحا.

* * *

ـ ارحل يا بشير وسأزوجك بنور.

كان هذا آخر ما قالته أودا قبل أن تغادر في لحظة تاركة الجميع وفي رءوسهم أفكار تتلوى كذيول السحالي إذا انفصلت عن جسدها، ثبت حكمها عندما لم يعلق الشيخ ولا شهلي الذي تهالك جالسا كالمضروب على رأسه دون أن ينطق، خرجوا تباعا برءوس منكسة وألسنة لا تطاوعهم على الاعتراض.

تمالك شهلي نفسه بعد دقائق وهو ينظر إلى بشير.

ـ أرأيت؟

صمت بشير وهو يفكر، نعم رأى، ما الذي ينقصها؟ لا شيء؛ بارعة، ذكية، قوية، تستحق المشيخة بالفعل. كونها منافقة أو كاذبة لا يخصم من رصيدها فيما تطلب بل يضيف إليها.

نظر إلى شهلي مستعطفا:

- أريد أن أرحل يا شهلي..

تردد شهلي للحظة، ثم همس بصوت غاضب مرتعش:

- هذا ما تريده هي بما فعلته..

بده أنا أيضا، لا قِبَلَ لي بها ولا بهم.

- أنت حفيد داعو.

ضحك بشير في عصبية وهو يجيب:

- اللعنة على داعو يا شهلي.. ساعدني لأرحل

قال شهلي بصوت ذاهل:

- كفرت يا بشير؟

كررها عدة مرات ثم قام من مكانه غاضبا، اقترب من بشير الذي شعر بقلق حقيقي عندما وجده يتفحص وجهه وعينيه في حسرة قائلا:

- أنت مسحور يا بشير.. أودا والأجواش سحروك؛ لكي تترك أمك وتترك حقك وتكفر بجدك.

ثم غادر في غضب وهو يغمغم:

- الخنازير الكفرة. سحروا الشيخ وذريته!

(١٠)

ثلاثة أيام كاملة قضاها بشير في محبسه وحيدا، أعطوه جلبابا دجاويًا فضفاضا أبيض اللون ليرتديه بدلا من ملابسه القاهرية، ثم نقلوه إلى غرفة الضيوف الملحقة بالمضيفة وأغلقوها من الخارج ليصبح الحبس انفراديًا بعد أن شخص شهلي حالة الكفر التي أصابت بشير وما وراءها، لم يدخل أحد عليه سوى عـلية ولم تتكلم معه كلمة واحدة. بل وضعت أمامه الطعام وغادرت دون أن ترد حتى تحيته، بدا له أنها خائفة منه، عندما رأى ألوان الطعام الموضوعة أمامه أدرك ما يحدث. كسرات من الخبز الجاف وطبق من زيت الزيتون وعسل أبيض مخلوط بحبة البركة وعيدان القرفة الجافة. تأمل بشير طعامه، هذا ما يعتبره أهل دجا طعام الشفاء من السحر.حاول أن يدق الأبواب وأن ينادي وأن يبحث عن نافذة مفتوحة ليقفز منها إلى الخارج. لم يكن يريد الهرب لكنه كان يبحث عن فرصة ليناقشهم ويؤكد لهم أن شهلي كاذب وأنه بخير، كل ما في الأمر أنه لا يريد أن يستكمل حياته هنا. اليوم الأول شهد قمة غضبه وصراخه، واليوم الثاني كان الصمت الكئيب هو ما يسيطر عليه. أما في اليوم الثالث فقد كان هادئا ومستسلما تماما، لافائدة ترجى من الحديث مع هؤلاء البشر.لا يفهمون شيئا غير ما

في عقولهم، أمه ترى أن عمله مدرسا سيكون عارا عليه وعليها، وأودا تغريه بمساعدته في زواج نور التي يبدو أنهم لا يعرفون سوى اسمها ولا يفهمون طبيعة علاقته بها. لو أنه حسم أمره في الزواج منها لما عاد متعللا بخوفه من أمه ورجالها، كان سيقاوم. لكنه ربما يكون مثل عشرات الرجال الذين يبحثون عن أي عقبة في طريقهم يتعثرون فيها عمدا؛ للهرب من الخطوة الأخيرة في العلاقة التي لا تحمل لهم إغراء كافيا.

تنهد في ضجر وهو يتساءل: ألم يكن معذورا وهو ابن هؤلاء الناس في أن يرى عمل نور أيضا عارا عليها وعليه؟ أخبرها أنها لو ابنته لقتلها، نظرت إليه في حيرة واستياء، أجابته مستهزئة أنها لا تعرف بالتحديد ما كان أبوها سيفعله فيها لو أنه ما زال حيًّا ويملك ما يكفيهم من المال. لكنها متأكدة من أنه لو كان كذلك لما احتاجت هي أن تعمل لكي توفر لنفسها ولأخيها الصغير ما يكفيهما، ثم غادرت غاضبة وعيناها تلمعان. والتفتت إليه بعد أن مشت عدة أمتار قائلة:

- هم الذين يتعرون ولست أنا.. أنا فقط أخلع حجابي وأشمر ساعدي!

نور كانت تعمل مدلكة للسيدات بعد انتهاء ساعات الدراسة، مهنة غريبة لم يكن يعرفها قبل أن يلتقي بها. ولم يفهمها بعد أن شرحتها له، امتعض قليلا عندما أخبرته أنها تعمل، وهز رأسه في بلاهة عندما أخبرته أنها تعمل:

- ماسيرة!

لم يهم ما عنته كلمة ماسيرة بالطبع، وخجل أن يسألها لكن نظرة البلاهة التي علت وجهه جعلتها تستطرد في ضيق:

- يعني مدلكة!

فتح فمه مرتين لينطق بشيء ما لكنه لم يستطع، عاجلته هي وقد بدأ الاضطراب يبدو عليها موضحة:

- سيدات فقط. وربما أطفال دون سن العاشرة،معاقون أو مرضى.

هز رأسه مستفسرا:

- ماذا تفعلين لهم؟

ضحكت في عصبية:

- أدعك لهم جسمهم بالزيت! تدليك يا بشير كما يحدث في مباريات الكرة.

لم يجد في عقله ما يبرر حاجة السيدات في بيوتهن إلى تدليك كلاعبي الكرة، ا له أنها تدافع عن نفسها وتحاول أن تقنعه بما تعرف أنه عيب. وبدا أمام نفسه رجلا متفهما ليسمح لها بأن تشرح مثل تلك الكوارث، الحقيقة التي لم تعرفها نور أن ذلك الأمر ترك في نفس بشير أثرا عميقا لم يُمْحَ من عقله حتى آخر لقاء بينهما، لكنه تقبل الأمر أو تظاهر بتقبله بناء على أسباب عدَّدها لنفسه عشرات المرات:

• أنها ليست زوجـ لا أخته، بل مجرد قصة حب لا يريد أن يخسرها رغم أنه يظن أنها لن تكتمل!

• أنها تحتاج إلى كل قرش.

• أن الأم تتخذ كل الاحتياطات اللازمة!

لكنه لم يستطع أن يتخلص من الهلاوس التي كانت تنتابه في يقظته ونومه بخصوص تلك المهنة، يتخيلها وهي تخلع حجابها وتلم شعرها في حلقة كبيرة تغرس في منتصفها قلما، ثم تبدأ في التعامل مع الجسد الملقى أمامها.التعامل هي الكلمة المناسبة لكل تلك الخيالات التي مرت به، أبطالها رجال ونساء وأطفال. والإخراج طبعا كان بتأثير من الأفكار السوداء التي بثها سعد في عقله. كان كل ذلك قابلا للاحتمال إلى أن أصبح يفكر في نور زوجة. مستحيل آخر يضاف إلى باقي المستحيلات التي تقف عقبة في طريق زواجه منها، اعترف لنفسه وهو يجلس حبيسا في تلك الغرفة الكئيبة في البلدة الكئيبة أن استدعاء أمه له كانت له ميزة واحدة فقط. أن يفكر جيدا في حكاية نور، فرغم كل ما يحمله في قلبه تجاهها كان هناك دائما شيء ما يقف في الطريق. شيء يشبه الشوكة الصغيرة التي تتسلل إلى جوفك وسط طعامك فتجعلك تتقيأ كل شيء. عندما أعلم أمه بنيته الزواج بها، لم يكن ذلك نابعا من قرار اتخذه بل مجرد نكاية فيهم إلى أن يستقر الأمر، كان يبتسم شامتا وهو يتصورهم يقولون في حسرة إن بشير سيتزوج قاهرية. وزاده عنادهم عنادا ورغبة في التمسك بها، لكن السهولة التي استجاب بها لأمر العودة إلى دجا دون أن يفكر كثيرا في أن يلتقي بها ليشرح لها الأمر، وإقناعه لنفسه بأنه يترك لها المجال مفتوحا إلى أن يعود لكيلا يقف في طريقها. أكدا له أنه ليس بالشجاعة الكافية ليتزوجها رغم أنه كان بالعاطفية الكافية ليحبها. الواقع أنه

ابن هذه المرأة التي ترى عمله في التدريس عارا! ماذا ستفعل إذا عرفت عمل نور؟

لم تختر نور لنفسها تلك المهنة، كانت تعمل إدارية في أحد الأندية الرياضية. وظيفة مفهومة لبشير، لكنهم قرروا يوما تقليص عدد الإداريين، عندما بكت أمام مدير النادي أخبرها أنه يحتاج إلى مدلكة لفرق البنات، وأرسلها في دورة تدريبية على حسابه الخاص. ومن هنا بدأت نور الطريق. عرفت أن التدليك الخاص يمكن أن يدر عليها دخلا يتجاوز عشرة أضعاف عملها في النادي بساعات أقل، بمجرد أن أصبح لديها عدد كاف من العملاء تفرغت له، وتزايد عدد حالاتها رويدا رويدا إلى أن أصبحت لديها قائمة لا بأس بها.

انتبه بشير على صوت الباب وهو يفتح في هدوء، كان شهلي واقفا في مدخل الباب بابتسامة جديدة مليئة بالمحبة، نظر إليه بشير نظرة غاضبة، أمال رأسه في انحناءة طفيفة وهو يقول:

ـ الشيخ أروكا وبعض أهل البلدة جاءوا لزيارتك.

أجابه بشير بخشونة:

ـ لا أريد أن أرى أحدا.

بدا أن شهلي لم يسمعه على الإطلاق.. بل فعل نفس ما فعلته أودا، فتح الباب على مصراعيه وهو يقول:

ـ تفضلوا.

هب بشير واقفا في غضب عندما دخلت عليه أمه، تبعتها أودا

والعشرات ممن يعرف وممن لا يعرف، لم تفت بشير نظرة الانتصار التي ارتسمت على وجه شهلي عندما دخلت أودا، كان يرد لها الصفعة، كما عرضت هي على الشيخ القادم ما ينتظره من مصائب سيعرض هو عليه أنصاره الذين سيفعلون كل ما يأمر به، أودا صدَّرت له اللغز وشهلي يقدم الحل، الطاعة العمياء التي تهبط إلى درجة الحماقة.

جلست الأم على نفس المصطبة التي كان بشير يجلس عليها، وتوالى الداخلون، كان كل من يدخل ينحني أمام الشيخة ثم أمامه، كان يحني رأسه هو أيضا بشكل آلي ردًا على تحيتهم. مال واحد من كبار العائلة على يده ليقبلها إلا أن بشير سحبها سريعا في استنكار، رد فعل الرجل جاء أكثر غرابة بالنسبة إلى بشير من فعله، فقد وقف في مكانه ولم يتزحزح وهو ينظر إليه في استعطاف:

- لا تحرمني يا شيخ بشير.

أجابه في خشونة:

- أنا لست الشيخ.

مال الرجل على يده مرة أخرى وجذبها في قوة وهو يقول بسعادة:

- ستصبح الشيخ، ثم قبلها قبل أن يسحبها منه بشير وسط صيحات الاستحسان والتصفيق الذي غطى على احتجاجاته، ثم توالت القبلات على يده وهو يجيل رأسه يمينا ويسارا بحثا عمن ينجده فلا يجد. حاول أن يتحدث موضحا ما يشعر به لكن أحدا لم

ينصت، كانوا جميعا يتحدثون فقط. أصوات عالية. أصابه يأس تام عندما رفع صوته الذي ضاع وسط أصواتهم.

- أنا لم أقبل المشيخة..

فصفقوا جميعا في بهجة وهم يهزون رءوسهم في استحسان، أدرك أنهم يسمعون فقط ما يأتي من رءوسهم. ترك لهم يده ليقبلوها واحدا تلو الآخر، ألح عليه هاجس أنه يقف وحيدا في وسط عالم كامل من المجانين، التفاهم معهم يكاد يكون مستحيلا، أي فعل عاقل يجعلك أنت المختلف الذي يستحق العلاج، صمتت الأصوات فجأة كما تعالت فجأة، وأدار الجميع رءوسهم في اتجاه الباب. حتى شهلي وقف متصلبا باحترام وسعادة غامرة، التفت بشير إلى الداخل الذي مد يده ليصافحه وبشير ينظر إليه في دهشة، تصافحا في اللحظة التي مال فيها شهلي على أذن بشير قائلا بصوت هامس:

- الشيخ بارك.. صديق جدك الشيخ عثمان رحمة الله عليه..

اندهش أكثر عندما مد الرجل يده مصافحا الشيخ أروكا التي يعرف جيدا أنها لا تصافح رجالا أبدا، لكنها صافحت ذلك الرجل الذي ظل بشير يحدق في ملامحه مندهشا؛ ذلك الرجل الإنجليزي العجوز الذي تعرف إليه في القطار.. والذي يذكر اسمه جيدا:

- سايمون باركلي.

لم يمنعه فضوله من أن يستغل فرصة الصمت الذي خيم على المكان ليصيح بصوت صارم:

ـ أشكركم على الزيارة،لكنني أريدكم أن تعرفوا أنني لا أريد المشيخة، وأن الشيخ سيعفيني منها وسيوصي بها لغيري.

زاد عمق الصمت في تلك اللحظة، ا كما لو أن الجميع أمسكوا حتى أنفاسهم، رماه شهلي بنظرة غضب هائلة.. تبعها بنظرة تملق إلى الموجودين وهو يقول:

ـ ألم أقل لكم إنه متواضع ولا يريد الحكم.

هز أغلب الجالسين رءوسهم في استحسان، نطق أول من قبل يده في حماس:

ـ ونحن نريدك يا شيخ بشير، والله إني لأرى فيك جدك عثمان.

هلل الجميع وتتابعت كلمات الثناء، مال شهلي على أذن أروكا فقامت من مكانها وهي تقول بصوت ضعيف:

ـ أعلن أنني أوصيت لبشير بالمشيخة، وعليكم جميعا إعلان الطاعة في يوم العهد.

غطى بشير وجهه بكفيه. لم يعد الأمر اختيارا، إما أن يقبلها ويصبح شيخا وإما أن يرفضها ليتنافس كل هؤلاء على قتله، امتقع وجه أودا بينما هز شهلي رأسه في سعادة، ثم أشار إليهم فانصرفوا في حرج وبشير ينقل نظره إليهم. قامت أروكا متثاقلة في حركة آلية وسط المنصرفين دون أن تنظر حتى إليه، تبعتها أودا.. أشار شهلي إلى باركلي.

ـ تفضل يا شيخ بارك.

قام باركلي في هدوء، رفع بشير رأسه لينظر إليه وهو يقول:

ـ سنلتقي مرة أخرى..

أمسك بشير بيده وهو يسأله في حيرة:

ـ من أنت؟

مال باركلي على أذن بشير هامسا:

.. داعو.

ثم غادر مع شهلي الذي ألقى نظرة فاحصة طويلة على وجه بشير قبل أن يغلق الباب.

## (١١)

لم يجد بشير في رأسه أي فكرة أخرى سوى الهرب، بدا له الأمر مستحيلا، لكن انتقاله إلى نصر النوبة هو الخطوة التي ستحتاج شريكا في الأغلب سيشي به، تمنى لو أتت له أودا، هي ستجد حلًا، شعر بالحماقة لأنه عاد إلى تلك البلدة ليحصل على صك العفو، فاتضح له أن الشيخ خانه وأن الاتفاق الذي أجراه معه كان مجرد خدعة ليتأكد من عودته عندما يطلبه.

كان الليل يتوغل في البلدة وفي رأس بشير على حد سواء، نهض بشير فجأة في تصميم، قرر أن يخرج من المشيخة ثم من دجا إلى الأبد، لن يذهب إلى الموقف، بل سيتجه إلى الطريق مباشرة ويمشي قدرما يستطيع إلى أن يجد سيارة تأخذه بعيدا، نظر في حافظة نقوده، لا يوجد بها الكثير لكن ساعته قد تكون عرضا جيدا لأي سائق، لا يهم أن يعود بعد ذلك ليخبرهم فهو سيكون مطاردا على أي حال، نظر إلى ملابسه الملقاة على الكرسي الذي أمامه، قرر ألا يرتديها الآن، سيظل في جلبابه، ارتدى حذاءه فقط ثم جمع ملابسه في كومة ولفها بجزء مزقه من الملاءة التي كانت تغطي سريره، ثم ربطه حولها جيدا. وقف على المصطبة وفتح النافذة في ترقب، كل شيء

هادئ تماما.. المسافة إلى الطريق لن تستغرق سوى دقائق، قفز من النافذة في لحظة وأطلق ساقيه للعنان.

خطوات قليلة قطعها بشير قبل أن يصدم وجهه بسواد لين له رائحة عطرة، حاول المقاومة لكنه شعر بأيادٍ قوية تقيد ذراعيه وتمسك بجذعه ثم فقدت قدماه أي علاقة لها بالأرض بعد أن رفعوه عاليا، حاول أن يصرخ لكن قطعة القماش المحيطة بوجهه منعته من ذلك، شعر برأسه يدور في لحظات. خارت قواه بالتدريج ولم يبقَ له إلا بقايا إحساس بحركتهم وهم يعودون به مرة أخرى.. ثم غاب عنه كل شيء.

فتح بشير عينيه بصعوبة شديدة، بدا له كما لو كانت جفونه ملتصقة بمقلتيه، حاول أن ينهض فلم يستطع، خرجت منه آهة واهنة لم تثر تعاطف أحد من الواقفين حوله في الغرفة. كان راقدا في سرير نحاسي مقيد الأطراف، أبخرة البخور تملأ الغرفة وتجعل الرؤية أصعب من المعتاد، رذاذ ثقيل لزج يتطاير ملتصقا بوجهه وملابسه، احتاج وقتا غير قصير ليتبين أنه من الدم، صرخ فزعا بصوت ضعيف، رفع رأسه قدر استطاعته بحثا عن مصدر الدماء. زاد فزعه عندما وجد على صدره جسد حيوان مقطوع الرأس لكنه ما زال يتحرك. لم يتبين إن كان قطًا أم أرنبا أم غير ذلك، كلما سقط من فوق جسده أعادوه مكانه مرة أخرى، دار برأسه في الغرفة محاولا فهم ما يحدث، كانت حوله أمه تتمتم بما لم يتبينه، وشهلي يمسك بالمحرقة الكبيرة ويدور بها في كل مكان وهو يتمايل كالمخمور. أودا تقف في ركن الغرفة في صمت، وعسلية

الصغيرة تحمل رأس القط الذي كان لايزال يقطر دما، والإضاءة خافتة، والجو مخيف،صرخ فيهم غاضبا ليفكوا قيوده، لم يلتفت إليه أي منهم كما لو لم يسمعه أحد، شهلي فقط مال عليه محاولا تهدئته والدموع تلمع في عينيه:

ـ الصبر.. الصبر يا ولدي..

ـ فكوا قيودي أيها المجانين.

لم تفتح أمه عينيها بل ظلت تردد ترانيمها، لمح في ركن الغرفة شبحا لرجل لايرتدي جلبابا، حاول أن يتبينه فلم يستطع، انشغل بما هو فيه. ففي تلك اللحظة بالتحديد وبينما فتح بشير فمه ليقول شيئا ارتجف جسد القط ارتجافة عنيفة أخيرة، تطايرت الدماء منه لتصل إلى حلقه قبل أن يضم شفتيه عليها، شعر بطعمها في فمه فلم يتمالك نفسه وانتابته حالة عنيفة من القيء المتوالي، قلبه شهلي على وجهه دون أن يفك قيوده وهو يصيح في سعادة:

ـ الله أكبر.. الله أكبر.

أخذ بشير يسعل ويتقيأ حتى كاد يشعر بروحه تغادر جسده المقيد، تعالت صيحات ابتهاج من أمه، تبعها كل من كان في الغرفة، شهلي يواصل تكبيره في سعادة، كان بشير غاضبا مما يفعلونه وصيحاتهم تزيد من غضبه لكنه لم يملك شيئا وهو مُلْقَى على وجهه كأسرى الحروب. لحظات ووجد أمه تقترب منه وتضع رأسها على ظهره ماسحة وجهها في سعادة وهي تهمس:

ـ حمدا لله على السلامة يا ولدي..

قلبته على ظهره بمساعدة عدة أيادٍ لم يعرف بشير من تخص. ثم مدت يدها لتفك قيوده وهي تمسح وجهه بفوطتها المبللة.. كان ذلك على ما يبدو تصريحا بفك قيوده فامتدت عشرات الأصابع متزامنة لتتنافس على تحريره.. جلس في مكانه للحظة قبل أن يهب غاضبا دافعا كل من حاول أن يمسك به.

وقفت أمه أمامه وعلى وجهها ابتسامة بلهاء كأنها لا تراه، وارتفع صوت شهلي مجلجلا كما لو كان استعاد شبابه فجأة:

ـ بشير تقيأ السحر، الشيخة أروكا وصلت إليه وأخرجته من داخله..

تعالت الصيحات من الجميع، كان يشعر بآلام شديدة في كل جزء من جسده، نظر إلى أمه وهو يمسح الدماء عن ملابسه ووجهه مقهور:

ـ ما الذي تفعله فيَّ؟

لم يأته رد منها، وقفت تردد بصوت خافت:

ـ لا بأس.. لا بأس.. لابأس..

وضع شهلي يده على كتفه وهو يربت عليه:

ـ الأجواش سحروك يا ولدي، ألقوا في قلبك الكراهية لأهلك ولبلدتك ولأمك، لكن الحمد لله، حمدا لله على السلامة يا شيخ بشير..

دفع يده غاضبا:

ـ لست مسحورا، ولست الشيخ.

بدت خيبة الأمل على وجه شهلي وهو ينظر إلى أروكا التي لم يبدِ أي انفعالات.. نظر إلى من حوله وهو يقول في غضب:

ـ الكلاب. سحرهم أسود لن ينتهي بسهولة، أشار إلى رجاله فأحاطوا ببشير مرة أخرى.. لم يكن في جسده ما يكفي من المقاومة، غاب شهلي للحظات وعاد حاملا سوطا أسود صغيرا، بدا على الرجال أنهم يعرفون ما سيفعلون جيدا.. مددوا بشير على السرير مرة أخرى، كشفوا عن يديه وقدميه وهو يحاول مقاومتهم في ضعف شديد.. استجمع قواه في صرخة مليئة بخليط من الغضب والاستعطاف:

ـ ماذا ستفعل يا شهلي؟

انهال شهلي وهو يبكي بالضرب على بشير بالسوط. كان بشير في حالة ذهول تام.. يتأوه بصوت مكتوم بينما الدموع تتساقط من عيني شهلي وهو يردد:

ـ (سألقي في قلوب الذين كفروا الرُّعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلَّ بنان).

كم مرة رأى بشير مشهدا مشابها في طفولته؟ كثيرا. لكنه كان يصدقهم عندما يقولون له إن هذا من أجل المضروب؛ فهو مسحور ولا يعرف أن هذا علاج سحره؛ لهذا لم يقاوم بشير كثيرا بعد أن تأكد من أنه لا مفر.

كان السوط يلسعه على رقبته ثم على أصابعه بالتناوب، كل ما كان

يدور في عقله هو تساؤل محيط عن قدره في أن يكون واحدا من هؤلاء الناس، وعن ذلك الرجل الأحمق الذي يتلو القرآن في غير موضعه وهو يظن أنه مندوب من الله لتخليصه مما هو فيه،وعن أمه التي تقف أمامه مشاهدة في بلاهة تامة.

انفتح الباب فجأة ليدخل ناندو الذي وقف ينظر إلى ما يحدث في ذهول، ثم انقض على شهلي ودفعه بعيدا وهو يصرخ بصوته المبحوح:

- كفى.

نظر إليه شهلي في غضب وهو يقول:

- لا تتدخل يا ناندو، أنت لا تفهم شيئا.

عوى ناندو في غضب:

- لا أريد أن أفهم.. اتركوه وإلا سأقتلكم جميعا.

أجاب شهلي في حدة:

- لا يمكن أن نتوقف الآن يا ناندو..

تحرك واحد من رجال شهلي في اتجاه ناندو ممسكا به، رفع شهلي يده ليواصل علاج بشير، لكن الرجل الذي كان يقف في الزاوية المظلمة منذ البداية تحرك بالسرعة التي يسمح له بها عمره وهو يردد في شفقة:

- كفى يا شهلي، الشيخ عثمان لم يكن يطيل في مثل هذه الأمور.

لدهشة الجميع توقف شهلي. انتقلت كل العيون إلى العجوز

الذي مد يده ليأخذ السوط منه، حتى بشير أدار رأسه في وهن. كان الواقف أمامه رجلا إنجليزيًا عجوزا.

التفت بشير إليه في أمل، مال باركلي على أذنه قائلا:

- افعل ما يقولونه لك ولا تقاوم. أنت لست في موقف يسمح لك بالمقاومة..

همس بشير بصوت واهن:

- من أنت؟

هز الرجل رأسه في ضجر:

- ولا هذا وقت أسئلة، لا تقاوم ولا تتكلم إلى أن ينتهي هذا الهراء.

كاد بشير يجيبه لكن في تلك اللحظة انطلق صوت رهيب مفاجئ، تهلل وجه شهلي وهو يصيح:

- هذه بشارة أخرى..

ردد بشير وراءه وهو يعلم تماما ما سيحدث بعد لحظات:

- بشارة.. سوداء!



للمطر في دجا بركة خاصة إذا تزامن مع وجود جلسات علاج، وله أيضا صوت رهيب لن تسمعه في أي مكان آخر، صوت طلقات رصاص معدنية مكتومة متتالية في سرعة رهيبة تخرج من آلاف البنادق في وقت واحد؛ لذلك فالمطر في دجا وقت رعب. سبب

ذلك أن السهالك يغطون أسطح منازلهم بعلب الصفيح الفارغة. يطلونها بلون فضي لامع ويضعونها في الشمس في مواجهة السماء، يقولون إن ذلك الطلاء اللامع هو ما يعكس الأرواح النارية إذا حاولت أن تهبط على أسطحهم، يعاد الطلاء سنويًا في عيد شهير يسمى بعيد الحماية. ولهذا ثمنه فعندما تهطل الأمطار ينطلق الهدير المرعب. أما في الصيف فبالطبع تزيد درجة حرارة البلدة نتيجة لعواكس الحرارة المتجمعة لتشكل شمسا جديدة. الأيام التي تزيد فيها الحرارة، يفهم السهالك أن غزوا من الجان كان على وشك الهبوط لكنه ارتد خائبا تاركا حرارته. لكن ما تبقى من أرواح يظل هائما فوق الأسطح محبوسا بين العلب، إلى أن يهطل المطر الغزير فيطفئ ما تبقى من تلك الأرواح النارية؛ فتنتهي إلى الأبد. لكن تلك اللحظة تكون من اللحظات المرعبة عندما تلفظ أرواح الجان الشريرة أنفاسها الأخيرة.. لذلك يختبئ الجميع من المطر.. يجب ألّا يخرج أحد من بيته ولا أن يفتح نافذة ولا حتى أن يرفع رأسه إلى السماء.. وإلا اللعنة!

الشيخ وأعوانه فقط هم الذين يجوز لهم الخروج في المطر وكل من مستهم الأرواح أو السحر هؤلاء بالتحديد يكون الماء السماوي فرصة لهم للشفاء وإطفاء ما تبقى من نار السحر والجان. انزعج عندما سمع بشير صوت طبول المطر الساقطة على المنازل. أدرك أن المزيد قادم، أشار شهلي إلى الجميع ليعودوا إلى منازلهم فورا، مد يده ليخلع عن بشير ملابسه لكن بشير نهره غاضبا.

- أنا سأخلع ملابسي وأخرج، ابتعد

هز شهلي رأسه على مضض، خلع بشير ملابسه على مهل، لم يبق سوى سرواله الداخلي. نظر شهلي إليه متحرجا وهو يقول.

ـ أنت تعرف جيدا، أي قطعة ملابس قد تعيق الأمر

تحرك بشير في استسلام. لا بد أن يخلع ملابسه بأكملها في الداخل وألا يخرج إلا عاريا وكذلك يعود عاريا، خرج مطأطئ الراس عاريا يتبعه شهلي. كان المطر ينزل بغزارة، وصوت هديره على السطح المعدني العملاق يزيد من أجواء الخوف والكآبة، خرج بشير عاريا يتبعه شهلي، يعرف أن المقاومة مستحيلة. بعدما جلده شهلي ليشفيه أي تصرف فيه مقاومة سيزيد من عذابه. ربما يقتلونه كما قتلوا من قبله كثيرين يدرك بشير أنهم لم يكونوا كما قيل له وقتها: مسحورين.

تلك الفتاة التي ذبحت أمام عينيه وقد استدار بطنها قليلا، لم يكن في داخل بطنها جنيّ زرع فيه ليلا لأنها بكت في دورة مياه مظلمة. يدرك بشير الآن أنها كانت تحمل في بطنها جنينا غالبا من زرعه فيها أحد من قتلوها لقطع دابر الجان في دجا. سليم الذي عاد من القاهرة مثله يلمن داعو وحكايته وذريته، وضعوا رأسه في الماء المبارك حتى يشفى من سحره إلى أن مات مختنقا وليس لأن السحر كان مزروعا في رئتيه فلم يحتمل. وهو شخصيًا ممن فرحوا بموته واحتفل به مع من احتفلوا. دابا الذي جرؤ على أن يطلي بيتا من بيوت الأجواش باللون الأبيض وخرج يدعوهم إلى أن يأخذوا المشيخة من أبناء عثمان الدجاوي. أعلن الشيخ أن ما يلبسه من شر لا يشفى إلا إذا حوصر بدائرة من النار وقرأ أذكارا محددة، لكنه لم

يفعل؛ لذلك امتدت النيران لتلتهمه حيّا وهو يصرخ، والكل يبكي على الشاب المسحور.

بشير الآن على بعد خطوات من اللحاق بهم؛ لذلك استسلم لهم. لكن عندما مد شهلي يده ليمسح بها على جسده أمسكها في عنف وهو يقول:

- يدك عن جسدي يا شهلي..

أجاب شهلي:

- رقية السحر والمطر يا ولدي.

هز بشير رأسه في إصرار:

- اتلها بعيدا عني.

مط شهلي شفتيه في حسرة واستياء، تنهد غاضبا وهو يقول:

- اجلس!

جلس بشير القرفصاء وهو يشعر بالكثير من الارتياح بعد أن وفرت له تلك الجلسة شيئا من الستر، وضع شهلي يده على رأسه فانتفض بشير واقفا فعاجله شهلي:

- اهدأ يا ولدي، رأسك فقط.

عاد بشير إلى جلسته وامتثل لليد المعروقة على رأسه، اختلطت دموع المهانة على وجهه بالماء المنهمر من السماء وهو يسمع الآيات والترانيم تتوالى من فم شهلي، خليط يعرفه بشير جيدا ويعرف أنهم يجمعون كل ما يبدو صالحا لاختراق عقل من يأتي عليه الدور.. وعندما قال شهلي:

- إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ.

أجاب بشير محسورا بصوت هامس:

- صدقت يا شهلي.

كان الماء ينزل على رأسه وجسده بينما شهلي يقف ومن خلفه واحد من رجاله يمسك بمظلة ورأسه للجهة الأخرى لأنه لو رأى بشير في وسط الجلسة فسيحترق كما أخبروه، رنت في رأسه الكلمة عالية: الكفر! تلك الكلمة المخيفة التي يعرف جيدا ما فعلوا في العشرات أمامه قبل ذلك بمجرد أن يلقوها عليه، كان يردد ما يقوله شهلي وهو يؤكد لنفسه في تلك اللحظة أنه كفر بهم تماما؛ كفر بداعو وبعثمان الدجاوي وبكل ما يفعلونه هنا، لكنه لا يستطيع أن يقولها لهم الآن. هؤلاء هم من يدَّعون هنا أنهم القائمون على الحق رغم أن كل ما يفعلونه من الباطل، كفره بهم هو إيمان بالله، رغبته في الحياة بعيدا عنهم هي إيمان بالله؛ ربما لهذا خرجت منه دعوة مقتضبة:

- يارب..

ابتسم شهلي في استحسان وهو يسمعها.. هز رأسه منفرج الأسارير وهو يتبع تلاواته:

- «وأقترب إليكم للحكم وأكون شاهدا سريعا على السحرة، وعلى الفاسقين، وعلى الحالفين زورا..».

لم يعرف بشير مصدر تلك الكلمات، لكنها بدت له من كتب مقدسة أخرى، أو ربما تعاويذ فرعونية. هؤلاء المجانين سيأخذون ما يريدون من أي كتاب ومن أي دين ليفعلوا ما يريدون وما يرونه

الحق، في تلك اللحظة أمسك شهلي برأسه إلى أسفل وهو يزيح عنها الماء، تركه يقطر من شعره إلى الأرض، مد يديه مبعدا شهلي برفق وهو يقول:

- كفى يا شهلي.. كفى.

أجابه شهلي في تعاطف:

- الصبر يا ولدي.. الصبر.

صاح بشير في غضب:

- كفى ياشهلي..

نظر إليه شهلي في شك، انفرجت أساريره عندما وجده يقول في استسلام:

- أنا شيخ دجا وحفيد داعو يا شهلي.. وأقول لك: كفى.

ابتسم شهلي وهو يحني رأسه لبشير، بينما سار بشير عاريا تماما إلى الداخل، قبل أن يدخل توقف للحظة وهو يلمح شبحا آخر عن بعد يتلقى جلسة علاج مشابهة، توقف للحظة لينظر،لكن شهلي جذبه للداخل بعنف وهو يقول:

- لا تنظر. نحن لم ننته من السحر الأول حتى نخطئ فنصاب بالجديد.

أدار بشير رأسه في انصياع، لكن اختلس نظرة أخرى إلى الجسد الأسود العاري في الظلام، لم تبدُ تفاصيله لكنه كان جسد امرأة بدت مألوفة له!

## (١٢)

أيام التحصين خمسة، هي التي يحتمل فيها أن يعود تأثير السحر على من أصابه مرة أخرى. لهذا عاد بشير إلى محبسه مصحوبا بشيخ عجوز آخر، تركه بشير يفعل ما يريد وانزوى في ركن بعيد، ألقى العجوز تعاويذه وشعل بخوره دون أن يلقي عليه نظرة واحدة.

لم يتكلم بشير، حاول أن يتماسك قدرما يستطيع! يفكر في كل المهانة التي لاقاها، فعلوا فيه كل شيء.. قيدوه وعروه وجلدوه ورموه تحت المطر.. ما الذي تبقى ليكون انتهاكا كاملا؟ أن يغتصبوه فعليّا ثم يقتلوه ويُلقوا جسده للذئاب؟ لا شيء مستبعد، لو أعلن شهلي أو الشيخ أن شفاء بشير وحماية القرية من اللعنة يستلزمان مضاجعته لتناوب الجميع رجالا ونساء اغتصابه وهم يطالبونه بالهدوء والسكينة لكي تتم البركة!

أدار وجهه للحائط وانسابت دموعه. أكثر ما آلمه أنه لم يستطع أن يتمسك بموقفه ورفضه أكثر من ذلك، للعذاب تحت راية الدفاع عن الموقف قيمة كبرى لا يعرفها إلا من خبرها، كلما زاد عذابك شعرت بالمزيد من القوة وأنت ترى جلادك يعاني أكثر منك وتقرأ فى عينيه رغبة فى أن تريحه باستسلامك، وإذا

فعلتها ينقلب الأمر تماما، وقتها فقط تشعر بمرارة الهزيمة ويشعر هو بلذة الانتصار.

حاول بشير أن يعزي نفسه، لو أنه في سجن أو معتقل لقاوم، لكن الأمر يختلف هنا مع هؤلاء الحمقى، يؤمنون بأنهم مندوبون من السماء لرفع المس عنه، كلما زاد أذاهم له زاد شعورهم بالتضحية من أجل شفائه. كيف يمكن أن تصمد أمام هؤلاء الذين لن يتوقفوا عند حد إلى أن يستخرجوا من داخلك شيئا لم يوجد في الأساس؟

وضع رأسه بين فخذيه واستقر في ذلك الوضع تماما، ذهب رفيقه الجديد إلى دورة المياه فانفجر بشير في بكاء حقيقي بصوت مسموع، كان يشعر بأن حياته قد تنتهي في ذلك المكان.. كل ما رسمه من أحلام وأمنيات في القاهرة سيضيع إلى الأبد، عليه أن يصبح شيخا مختلا هنا إلى الأبد، هذه هي القاعدة التي وضعوها، تختار حياتنا، أم لا حياة على الإطلاق. بشير كان في داخله يفضل الموت، أما في الواقع فقد كان أضعف من ذلك.

كان بشير يتحرك فقط عندما يقرصه الجوع؛ فيتناول لقيمات صغيرة من طعام شفاء السحر الذي لازال هو القائمة الرئيسية والوحيدة لما يقدم له من طعام.

زاره شهلي في اليوم التالي فأدار بشير رأسه إلى الحائط ولم يوجه إليه كلمة واحدة. قاوم رغبته الشديدة في الفتك به وهو يسمعه يقدم له اعتذارات متتالية ويشرح له أن ذلك من أجله هو، كان يعرف أن أي تصرف في غير محله قد يؤدي به إلى دورة أخرى من العلاج.

لكنه لم يستطع أن يوجه إليه كلمة واحدة.. لم يكن في ذهنه أي فكرة عما سينتهي إليه الأمر. كان يشعر بأنه فأر في مصيدة لا طريق للخروج منها.

اكتملت أيام التحصين فغادر العجوز فجأة. جاء شهلي ومسح فوق رأسه متفحصا ملامح وجهه، تعمد أن يتسم على اتساع فمه، سأله الرجل في ريبة:

- هل تأمرني بأي شيء يا شيخ بشير؟

أجاب بشير في حدة:

ـ هل تلك المرأة العارية كانت أمي يا شهلي؟

أكد اضطراب شهلي له ما كان يفكر فيه، أمه أيضا أصبحت عرضة للخرافات التي عاشت تحميها طوال العمر. لم يجبه شهلي بل كرر سؤاله مرة أخرى.

هز بشير رأسه نافيا وهو يقول:

- لا أريد أن أرى أحدا. أخبرهم أن الشيخ في عزلة.

هز الرجل رأسه في رضا، بشير وصف نفسه بالشيخ وهذا يؤكد أن العقد حلت.. بمجرد خروجه أغلق الباب من الداخل وجلس منكسرا في حيرة، لا سبيل لديه لمعرفة طريق الخروج، حاول شهلي معه عدة مرات ليخرجه في اليوم التالي، أرسل إليه ناندو وعسلية، لكن بشير لم يفتح لهما، لم تكن لديه خطة واضحة، لكنه كان يشعر بالأمان بين تلك الجدران.

فقد بشير إحساسه بالوقت، كان ينام ويستيقظ بشكل عشوائي على مدار اليوم، زهد الطعام وهو يحاول أن يعصر رأسه ليجد مخرجا. كان نصف نائم عندما انتبه فزعا على دقات عالية تتوالى على الباب، وصوت مليء بالبهجة التي لم يرها من وصوله.. يناديه:

- يا بشير. ياشيخ بشير، افتح الباب. أريد أن أقدم فروض الولاء والطاعة.

قام بشير من مكانه في لهفة، عرفه من صوته على الفور، الخال هلال؛ ألطف أهل دجا وأخفهم ظلّا وأقربهم إلى قلبه، لازال ممتلئا كما هو، وجهه الباسم وبشرته الفحمية مع الصبغة السوداء التي يواظب عليها يخفون عمره، هو ابن واحد من أخوال أروكا وأحبهم إلى قلب بشير وقلوب الجميع في هذه البلدة.

لم يتردد في فتح الباب رغم الآلام التي كان يشعر بها في جسده جراء قلة الحركة، وقف ينظر إليه وعيناه مليئتان بالشكوى، اقترب منه ليعانقه إلا أن هلال أخرج هاتفه وبدأ في التقاط صور متتالية له، ثم وقف إلى جواره والتقط صورة لهما معا وهو يقول ضاحكا:

- صورة مع مولاي ولي العهد، سأعلقها أمام منزلي.

حاول بشير أن يبتسم لكنه لم يستطع، عانقه هلال ثم استطرد في ود:

- أنا وصلت من أسوان فجر اليوم. عرفت أنك عدت ووجدت الكل يتحدث عن خلافك مع الملكة وعن شفائك وقبولك للمشيخة،

قررت أن آتي لأراك قبل أن تصبح شيخا، ولا أستطيع أن ألقاك إلا بعد مفاوضات طويلة مع الكلب العجوز..

نظر إليه بشير، فتح فمه ليقول شيئا إلا أن هلال سبقه:

- ما هذه النظرة على وجهك؟ ألم تفهم بعد؟ أنا أعرف أنك تحبه. لا أعني إهانته، هذه وظيفته «كلب»كان جروا ثم أصبح كلبا بالغا، وهو الآن كلب عجوز.

أجاب بشير غاضبا:

ـ أتدري ما فعله فيَّ هذا الكلب، وأنا الذي كنت أعتبره في مقام جدي؟

أشعل سيجارة من العلبة الفضية التي يحملها وهو يتابع في بساطة:

- الآن فقط فهمت؟ كنت دائما تدافع عنه. عموما هو ليس كلبا بالضبط! تريد الدقة؟ أتعرف ما يمكن أن يحدث إذا جامع الثعبان كلبة؟ الناتج سيكون دائما كلبا من فصيلة شهلي. هو الذي اتصل بي لآتي إليك، أدركت على الفور أن هناك مصيبة، شهلي لن يطلبني إلا إذا سدت في وجهه جميع الأبواب.

مط بشير شفتيه وهو يقول في إحباط:

- شهلي جلدني يا خال!

اتسعت عينا هلال في ذهول وهو يسأل:

ـ جلدك؟

هز بشير رأسه في ضعف وهو يحكي لهلال ما حدث في جلسة العلاج، لم يدهشه ما حدث كثيرا فهو اعتاده منذ الصغر. طالما فعل في كثيرين بدعوى العلاج، الاختلاف هذه المرة أنه أصاب فردا من العائلة..

ربت هلال كتف بشير وهو يقول في حنق:

- لست مندهشا، يابني هذه وظيفته. المكان هنا عبارة عن قطيع من الغنم وراعي الغنم وكلب الراعي. تعرف ما وظيفة الكلب؟ لا تسكت هكذا. لو تعرف فأخبرني.

أطلق نفخة طويلة وهو يجيب:

- حماية الغنم..

ضحك هلال ساخرا وهو يضرب كفّا بكف:

- أرأيت يا تربية القاهرة؟ أنت لا تعرف شيئا..

توقف عن الضحك فجأة، وجذب بشير من أذنه وهو يهمس فيها:

- الكلب لا يحرس الغنم. الكلب يحرس مال الراعي.

- لا أجد فارقا كبيرا. الغنم هي مال الراعي

أشار بسبابته بإشارة نفي طويلة:

- الفارق كبير. لو أنه يحمي الغنم لحماها حتى من الراعي، لكن لو أراد الراعي يا بشير أن يقفز على إحدى الغنمات، فما الذي سيفعله الكلب؟ سيقف في حراسته يا عزيزي. سيتحول من حارس

إلى قواد. أنت الآن الكبش الكبير، إما أن تسمع كلام الراعي وإما سيذبحونك ويأكلون لحمك.

عاد بشير إلى صمته، أحنى رأسه في ضعف واستسلام، كان هلال يؤكد له ما تأكد هو منه، لا سبيل له سوى الفرار من هذه المصيبة التي وقع فيها بأي حال.

جذبه هلال إلى صدره بقوة وقبّل رأسه وقد انقلبت لهجته إلى الجدية التامة:

- اهدأ يابشير. اللعنة. لم أرك هكذا من قبل.

أجابه بكلمة واحدة:

- تعبت.

ثم وضع وجهه بين كفيه ولم يتكلم، احترم هلال صمته وصمت هو أيضا. لم يدرِ ما يمكن أن يقوله له، هو نفسه هرب منذ سنوات بعيدة من دجا ونقل حياته بالكامل إلى أسوان، أهل دجا لا يحبونه لأنه رجل فاسد، يقولون إنه يشرب الخمر كل ليلة مع زوجته الروسية، لم يكترث بتأكيد ذلك أو نفيه، كان دائما يقول ساخرا:

ـ عندما يذهبون إلى الجحيم سيعرفون حقيقتي.

لم يطل الصمت، هلال كان متمردا لكنه ليس غبيًا، كان متأكدا أن بشير يريد الكلام معه، ترك له المبادرة. أشار إليه مشجعا: (هات ما عندك).

حكى له كل شيء، من الرجل الذي أتى به من القاهرة مرورا

بالاتفاق الذي كان قد تم بينه وبين أمه، كل ما مر عليه من أحداث حتى تلك اللحظة. بدت ملامح الاستياء على وجهه وهو يصيح:

- هؤلاء المعاتيه! لا حدَّ لجنونهم.

أجاب بشير بانكسار:

- لا أدري ماذا أفعل يا خال..

مط هلال شفتيه وهو يقول:

- ليس أمامك سوى حل واحد، هذا نظام الأسرة الذي لا يحتمل أي عبث، اقبل المشيخة وتماشَ معهم إلى أن تجد حلًا.

هز كتفيه مستنكرا:

- أتريدني أن أقضي بقية عمري هنا؟

أشار بسبابته محذرا:

- أريدك أن تقضي بقية عمرك، ما فعلوه فيك هو البداية، ربما يقتلونك ويضعون دمك في زجاجات يستحم بها من يريد الوقاية من السحر، لن يسمحوا لك بأن تكفر بهم فيتبعك آخرون. أروكا أوصت لك بالمشيخة ولم يعد من حقك الرفض، سيتسابقون على قتلك وتعليق رأسك على صدورهم ليرثوا منك المشيخة.. لا حلَّ لديك سوى القبول..

نظر إليه بشير في استسلام وهو يقول:

- وبعدها؟

خرجت منه ضحكة عالية وهو يقول:

ـ هكذا سيصبح الأجواش فقط من يريدون قتلك؛ لكي تنتقل المشيخة إليهم بطريقة أو بأخرى..

نظر إليه بشير مندهشا، أجابه في تأكيد:

ـ سنقلل عدد من يريدون قتلك إلى النصف. أليس هذا إنجازا؟

صمت للحظة ثم قال في لهجة جادة:

ـ بعدها ستعرف ما ينبغي علينا فعله، يمكنك أن توصي بها لغيرك بعد مائة يوم.. هذا هو الحل الأسهل.

نظر إليه بشير في إحباط وهو يسأله:

ـ والحل الآخر؟

صمت للحظة ثم أجاب:

ـ أن تبقى يابشير وتفعل ما لم يفعله كل من سبقوك، لا أعرف حلولا أخرى. عندما تصبح الشيخ ستعرف كل الحلول وتختار، سيصبح رحيلك أسهل من بقائك على عكس الآن، بمجرد أن تعلن عن رغبتك في المشيخة سيجدون حلولا لإبعادك، أودا ستجد لك حلّا والأجواش سيجدون لك حلّا، ربما وجدت حلّا عند شهلي نفسه يخبرك به عن غير قصد. بالمناسبة من ذلك الإنجليزي الذي تكلم عنه؟

قلب بشير شفتيه في حيرة.. مال عليه هلال وهو يقول باهتمام:

ـ طالما سمحوا له بحضور جلستك فهو ولا شك يحمل قيمة

خاصة لديهم، علاقات خدك كانت بلا حدود، ولا شك أن هذا الرجل أحدهم، لا يمكن أن يأتي إلى هنا من أجل السياحة، اسمع منه فلربما يساعدك، وأنا لن أتركك، وأودا يمكن أن تجد لك مخرجا سالما لترحل بعيدا عنها. فلنطرق كل الأبواب يا ولدي، لكن كبداية عليك أن تعلن قبولك للمشيخة.

هز بشير رأسه موافقا في استسلام.

نظر إليه هلال بارتياح، ابتسم وهو يخرج من طيات ملابسه زجاجة عطر.. وهو يقول له:

- عطر نفسك كل ليلة قبل أن تنام بهذا، سيحميك من سحرهم وسحر الأجواش..

أجاب بشير في دهشة:

- حتى أنت يا خال؟

انفجر ضحكا وهو يقول:

- لا أنا ولا أنت يا ولدي. هذا عطر فرنسي، ثمن الزجاجة خمسمائة جنيه.. بمجرد أن تشمه العفاريت سيظنون أنك ابن ناس، ولك ظهر وسينصرفون في سلام.

قام فاتحا ذراعيه وأخذه بينهما وهو يهمس:

- انتبه لنفسك يا بشير..

استدار ليفتح الباب، خرج بضع خطوات وهو ينادي على شهلي في صوت حاد، ظهر شهلي مهرولا وهو ينظر إلى بشير في ترقب، عاجله هلال:

ـ لن يقترب أحد من ابن الشيخ أروكا يا شهلي.

أجاب شهلي في اضطراب:

– كانت أوامر الشيخ يا هلال. كل ما حدث من أجل مصلحة بشير.

أمسك هلال بيد شهلي في شدة وهو يقول:

– إذن أبلغ الشيخ أنني كنت هنا، وأن بشير شُفِيَ واستعاد إيمانه، قل له إنه إذا أراد أن يصبح بشير شيخا بعده فلا بد أن يحفظ له احترامه، وإذا كان لا يخاف منه الآن يجب أن تخافوا جميعا من انتقامه عندما يصبح الشيخ يا شهلي. أنت بالتحديد، أؤكد لك أن ما سيفعله معك عندما يصبح شيخا يرتبط ارتباطا مباشرا بما تفعله أنت معه الآن. هل فهمت؟

امتقع وجه شهلي وهو يقول لبشير بصوت مبحوح مليء بالاستعطاف:

– أنا عبد الشيخ القديم والجديد يا بشير، سأخبر الشيخ أروكا ولن يقترب أحد منك مرة أخرى، ربنا يتم عليك الشفاء.

نظر إليه هلال بازدراء وهو يعقب:

ـ ربنا يشفيك أنت يا شهلي..

استدار إليه شهلي في غضب، ابتسم بشير لأول مرة منذ أيام ساخرا وهو يرى هلال الذي سحبه من يده ليخرج به، يدفع شهلي في خشونة ليبعده عن الطريق وهو يقول:

ـ تعال لنخرج إلى الهواء الطلق.

## (١٣)

أصبح بشير حرًّا تماما بعد زيارة هلال، استرد الكثير من عافيته وثقته بنفسه، قرر أن يفعل ما اتفقا عليه، أن يحاول أن يجد مخرجا لا يجعل دمه مستباحا لهم، أن يطرق كل الأبواب كما قال له هلال، أول ما طلبه من شهلي كان وثيقة داعو، شعر شهلي بسعادة غامرة وهو يراه يقرؤها بتركيز، أنصت في سعادة لأسئلته عن البلدة وعن نظام المشيخة.

تقمص دور المعلم وهو يشرح له كل ما جاء فيها، من الصعب وصف حال بشير وهو يستمع إلى بنود الوثيقة واحدا تلو الآخر، كان القهر مكتمل الأركان، عليه أن يظهر رضاه وإيمانه التام رغم أنه ما يسمعه يخترق أذنيه كقطرات ملتهبة من الشمع الذائب. لم يعد يجرؤ على إبداء استنكاره لما يسمعه خوفا من دورة تعذيب أخرى تحت اسم العلاج، قد يتطور الأمر ـ كما قال له هلال ـ إلى قتله أملا في شفائه. الوثيقة التي سمعها توضح كل شيء، الشيخ هنا هو الطبيب الذي يشخص مرضك ويصف علاجه، وهو القاضي الذي يدينك بجريمتك ويحدد العقوبة. الشيخ هو البلدة ووثيقتها أما أهلها فلهم الاختيار بين أن يكونوا أتباعه هو

فقط أو خصوما للجميع. لم يستطع بشير أن يسيطر على نفسه فعقب في حدة:

ـ هذه وثيقة الشيخ وليست وثيقة البلدة.

ـ هذه وثيقة المشيخة..

قالها شهلي ببساطة دون أن يعني شيئا، استوقفت كلماته بشير. فأشار إليه ليعطيه نسخة الوثيقة، كانت ورقة ضخمة مقاسها غير معتاد، اصفرت منذ سنوات داخل غطاء بلاستيكي شفاف، أمعن بشير النظر فيها، ضاقت عيناه وهو يردد ما قاله شهلي:

ـ المشيخة!

كان يشعر في تلك اللحظة بأنه عالم آثار يفك طلاسم كتابة قديمة بلغة مجهولة، نفس الطريقة التي كان يتعامل بها مع كل كتاب يقع في يده، تعلم ذلك من أحد المعيدين في الكلية، كان من الجنوب أيضا، أقرض بشير واحدا من كتبه وهو يقول :

ـ عندما تعيده سأعطيك كتابا آخر.. أفضل منه كثيرا.

وعندما عاد إليه ابتسم وهو يضعه في حقيبته، ثم أخرجه نفسه مرة أخرى قائلا:

ـ ستجده أفضل من الذي قرأته.

نظر إليه بشير في دهشة، فأجابه من فوره:

ـ أعد القراءة لترى، فهناك ما يكتب بحبر ظاهر بما يكفي ليراه العميان، أما المعاني فتكتب بحبر سري لا يراه إلا المبصرون.. البُله فقط لا يرون هذا ولا ذاك.

كانت المعاني بالفعل مكتوبة بحبر سري في تلك الوثيقة، فللوهلة الأولى رأى بشير أنها تحمي الشيخ وسلالته، مع القراءة الثانية اكتشف أن الأمر لم يكن كذلك، هذه وثيقة المشيخة.. تجعل الشيخ بوابة حصينة عصية الاختراق لأنها تحتمي
في حماية نفسه وجب التضحية التامة به من أجل الإبقاء عليها هي.. ربما تكون المشيخة أيضا بوابة ثانية لحماية السيد الأكبر.. داعو.. تذكر بشير الإنجليزي العجوز فجأة؛ فسأل شهلي عنه في فضول، ابتسم وهو يجيب بحماس:

ـ العم بارك؟ صديق الشيخ. ربما يكون وجوده من أسباب شفائك.

وجدها بشير فرصة سانحة لبطلب لقاءه.. اتسعت ابتسامة شهلي وهو يقول:

ـ هو أيضا يريد أن يلتقي بك، سآتي به فورا!

دخل بشير على سايمون الذي كان يجيل عينيه في أرجاء المضيفة متفحصا في اهتمام، ويكتب ملاحظاته في ورقة صغيرة.. التفت إلى بشير في شفقة وهو يقول:

ـ أتعبوك؟

نظر إليه بشير بشك وهو يسأل:

ـ لماذا لم تخبرني أنك تعرف شهلي؟

هز رأسه مؤكدا في بساطة:

ـ قلت لك إنني أعرف دجا أكثر مما تعرفها أنت، لا أعرف الجيل الجديد لكنني أعرف شهلي وعثمان وداعو..

أجاب بشير ساخرا:

ـ ألست أنت داعو؟

خرجت من الرجل ضحكة عالية لا تتناسب مع الوقار البادي عليه وهو يجيب بالإنجليزية:

ـ Yes son, I am Daoo

سأشرح لك كل شيء.

* * *

ـ في منتصف الأربعينيات من القرن الماضي كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت.. وبالرغم من الانتصار الذي حققناه، فإن الكثيرين رأوا أن هتلر شكَّل خطرا حقيقيًا على العالم بأكمله. وإن الحرب لم تكن في صالح الحلفاء في أجزاء كثيرة منها، في عام ١ ٠ انتصرت القوات الإيطالية على القوات الإنجليزية في إثيوبيا ثم اكتسحوها في الصومال، تبع ذلك محاولة الإيطاليين للسيطرة على مصر من خلال الهجوم عليها من الغرب الليبي. سبب تعثرنا في الشرق كان لقلة عدد القوات الموجودة في مصر. بعد انتهاء الحرب وانتصارنا فيها وعينا الدرس. وجدنا أنه لا يكفي أن تكون لك قواعد عسكرية في بلاد الشرق حتى تكون ذراعا لك. لا بد أن يكون لك جنودك في المنطقة؛ جنود يسمعون ويطيعون أيًا كان ما قيل لهم كأنهم جنود بريطانيون. لذلك فكرنا في إنشاء

معسكرات في كل الدول التي كنا نستعمرها، لا يخجلني أن أقول لك إننا اقتبسنا الفكرة من معسكرات هتلر التي كان يطلق عليها معسكرات الجنس الأصيل وكان يجمع فيها أصحاب الصفات الوراثية الأصيلة لينتج جيلا خاصًا من الألمان، قررنا نحن أيضا أن ننشئ تجمعات لجنود إنجلترا في كل البلاد الخاضعة لنا. وأطلقنا عليها في مصر تجا، لكن الاسم نفسه تحول إلى دجا على لسان أهلها بعد أشهر قليلة، فأصبحنا نحن أيضا نقول ما يقولون: دجا. لهذا يا صديقي، إذا بحثت في الخرائط عن كل البلدان التي كانت تحتلها إنجلترا، فستجد بلدة صغيرة تشكلت بعد الحرب العالمية، اسمها من ثلاثة أحرف من لغة أهل البلد اختصارا لنفس الكلمة (تجمع جنود أجانب).

كان بشير منصتا في سكون تام، لم يسمع شيئا من قبل عما يقوله هذا الرجل لكنه يبدو صادقا، سأله في شك:

ـ لكن أهل دجا لم يحاربوا..

مط شفتيه مبتسما:

ـ محظوظون، لم تقم حروب أخرى، ولم يبدُ المزيد في الأفق؛ لهذا تم تعطيل المشروع لعام كامل وتغيير طاقم إدارته. ثم تم تكليف طاقم جديد، كنت أنا جزءا منه. فبدلا من الطاقم العسكري، تم تكليف طاقم علمي، وبدلا من تكوين معسكر للجنود، كانت مهمتنا تجريبية. تجمع لهؤلاء الذين يمكن أن يساعدونا على توضيح مواقفنا من الشعوب التي كنا نرعاها، وأننا يمكن أن نساعد هذه البلد على نهضة لم تحلم بها إذا تعاونوا معنا بدلا من المقاومة

والقتل وخطف الجنود والحديث عن الاستقلال والإرهاب الذي أطلقوا عليه اسم الفدائية في ذلك الوقت.

قاطعه مستاء:

- كنتم تحتاجون عملاء؟

هز رأسه نافيا وهو يقول.

- كنا نريد أن نحميهم من شرور أنفسهم ونوسع مداركهم، كانت الفوضى تتزايد، والجريمة تنتشر،هل تصدق أنهم كانوا يحتفلون كلما قتلوا جنديًا من رجالنا؟

ضحك بشير مستنكرا:

- الجريمة ؟ نحن نسميها بطولة.

- كل الأسماء نسبية يا بشير، البطل هو نفسه الخائن، والفدائي هو الإرهابي، والثائر هو الفوضوي.. السؤال هو: أين ستقف؟ فبناء عليه ستحدد التسمية المناسبة للأمر من وجهة نظرك ومن مكان وقوفك.

- لا شيء نسبي. البطل هو البطل، والفدائي هو الفدائي، والخائن خائن.

قاطعه باركلي نافيا بثقة:

- خطأ. حتى الكافر ما هو إلا مؤمن مخلص في نظر أصحاب عقيدة أخرى. هل رأيت نسبية أكثر من ذلك؟

نحن لم نخدع أحدا. بحثنا فقط عن أشخاص تؤمن بنا. تدرك

أن الطعام والنوم والحياة الآمنة المستقرة أهم من الشعور التافه بأن من يحكمك يحمل نفس لونك ودينك وعقلك. ما أهمية ذلك؟ لا شيء.. أتعرف يا بشير.. كل البلاد التي كانت فيها الحملة أصبحت أكثر احتلالا بعد أن تركناها، احتلالا داخليًا..؟ انظر حولك لتعرف جيدا.

- للحرية ثمن.

ضحك باركلي وهو يقول:

- الشعوب لا تأكل الحرية يا بشير ولا تركب الحرية ولا تتزوج الحرية، حال هذه البلدة كان أفضل أيام الحملة، المهم.. هذا كلام فات وقته.

نظر إليه بشير بامتعاض دون أن يعلق.

واصل باركلي في حماس:

ـ عملنا لمدة ستة أشهر كاملة، وضعنا القواعد التي سيتم بناء عليها اختيار من سيضمون للمعسكر، الرأي المبدئي كان أن يتم تجميع رجال الدين لأنهم الأكثر تأثيرا هنا. بينما في الهند اخترنا تجميع الفنانين الذين كان لهم تأثير أكبر هناك، وهكذا.. هل تفهمني؟

أومأ بشير برأسه فتابع:

ـ مع أول محاولة مع رجال الدين في ذلك الوقت فشلنا تماما. كانوا رغم اختلاف أديانهم أغبى من فهم الموضوع، يحملون في عقولهم ثوابتَ جامدة لم نستطع تعديلها، عاندوا الفكرة تماما، وهنا تم تغيير الاختيار في مصر بالتحديد ودونا عن كل التجمعات

الأخرى، قررنا أن نجمع من يصلح للمهمة ثم جعله مؤثرا ليساعدنا على نشر ما نريد. وبالرغم من عدد الفقراء في مصر في ذلك الوقت، فإن الكثيرين كان لديهم معتقد ثابت أن كل من سيتعاون مع الإنجليز هو خائن، فتعثرنا مرة أخرى..

ـ ثم؟

ـ ثم وجدنا الحل الوحيد في أن يتم اختيار مجموعة ممن كانوا يرون أننا الأحق بحكم مصر؛ هؤلاء الذين يمكن أن يقنعهم المال أو القوة أو البشرة البيضاء والعيون الملونة أو كل ذلك مجتمعا. حتى بين هؤلاء قررنا أن نختار من يطيع بسهولة ودون مقاومة؛ حتى لا يضيع الوقت أو يتحول الأمر إلى محاضرات تعليمية..

ـ كيف انتقيتموهم؟

أجاب باركلي بفخر:

ـ الأمر كان صعبا. أدركنا أن المشكلة ليست فقط في أن تجد من يطيع، المشكلة أن تتمكن بعد ذلك من غرس الفكرة في رأسه، ويصبح عقله وضميره مخلصين للمشروع. أما من يطيعك لمصلحة مؤقتة فلن يكون جنديًا مخلصا أبدا، وقد ينقلب عليك في أي وقت، احتجنا وقتا طويلا لتحديد طريقة الاختيار.

ارتسمت على وجهه ابتسامة استمتاع وعيناه تضيقان وهو يتذكر

ـ أنا شاركت بنفسي في وضع الاختبار الأول، كان غريبا لكنه كان جيدا. أربعة رجال ملامحهم أورو.. ، يذهبون إلى المنازل بثياب مدنية و.. ون أسلحة، مجرد حوار، تليه بضعة أوامر للجالس

أمامهم: قم، اجلس، ارقد هنا، أحضر لنا كوبا من الماء، اسكب كوب الماء في الخارج، اخلع جلبابك وأرنا كتفك اليسرى. على عكس بلاد أخرى لم نقترب على الإطلاق من أمور تخص النساء؛ لأنها كانت ستفسد الاختبار فنحن نعرف طباع الشرقيين جيدا، إ اجتاز كل تلك الأمور نخبره عن قرب تدمير بلدته بسبب حرب قادمة قريبا أو فيضان عنيف وأننا اخترناه سرّا لينضم إلى معسكر الحماية حيث سيمنح بيتا ومالا، ونمنحه بطاقة صغيرة يذهب بها إلى قسم الشرطة لكي يتم ترحيله إلى تجا! وهؤلاء من صنعوا البلدة، رغم بعض المشاكل التي حدثت بعد ذلك.

ضحك بشير ساخرا:

ـ المشكلة الآن أنك تخبرني أن أهلي جميعا من الخونة.

أجاب بجدية:

ـ هذا كلام قديم يا ولدي..

أشاح بيده وهو يسأل:

ـ أين كانت المشكلة؟

قام باركلي من مكانه فجأة، ضاقت عيناه في غموض وهو يقول.

ـ أعلى معدل انتحار في تاريخ الشرق، ١٤٪ تقريبا في العام الأول، جرائم قتل مخيفة، تمثيل بالجثث، رعب بدا كبيرا، ثم تزا. في الأعوام التالية!

نظر إليه بشير مستفسرا في إلحاح:

ـ كيف؟

هز باركلي كتفيه متنهدا وهو يقول:

ـ بدأنا دراسة الأمر بتأنٍ و..

في تلك اللحظة دخل شهلي مبتسما وهو يقول موجها حديثه إلى باركلي:

ـ كيف حال الشيخ الآن؟

نظر إليه بشير في ضيق ولم يجب، جلس إلى جواره فسكت باركلي وبدأ شهلي يثرثر.. قاطعه بشير وهو يسأل:

ـ أخبرني يا شهلي.. هل تعرف أحدا هنا مات منتحرا؟

أضطرب شهلي في جلسته، نظر إلى باركلي الذي بدا وجهه جامدا، أجاب بعد لحظة:

ـ لا تخف يا شيخ بشير.. نحن أقوى منهم.

ـ منهم؟

هز رأسه مؤكدا:

ـ الأجواش الذين سحروهم جميعا، وجعلوهم يقتلون أنفسهم يا بشير..

مط بشير شفتيه في إحباط.. لا فائدة من أي حديث مع هذا المختل.. لكنه أكد له المعلومة على الأقل.. بينما ابتسم باركلي ساخرا وهو يقوم من مكانه قائلا:

ـ هيا بنا يا شهلي.. اترك الشيخ ليستريح.

هَمَّ بشير بالكلام، منعه باركلي بإشارة من يده وهو يقول:

- سنكمل كلامنا لاحقا يا بشير.. نم الآن واسترح فقد كان يوما طويلا.

استوقفه بشير وهو يسأل في إلحاح:

- أخبرني بِسِرِّ الانتحار.

أجابه باركلي وهو يرسم ملامحَ غامضة على وجهه:

- الجنون يا بشير.

## (١٤)

لم ينم بشير، كان يشعر بالشك في كل ما قاله باركلي، ربما يكذب كما فعل عندما ادعى أنه أتى مع زوجته، ربما حتى لا يكون إنجليزيًا وتكون حكايته أسطورة أخرى، لم يدرِ كيف يمكن أن يعرف الحقيقة، من سيجيبه؟ ظل يتقلب في سريره لساعات، أين يمكن أن تجد الحقيقة في بلدة مثل هذه؟ هل يوجد من يمكن أن يحره بحقيقة ما قاله باركلي؟ لن يخبره أحد ممن لم يقولوا له شيئا طوال السنوات السابقة، لا يعرفون أو لا يريدون. النتيجة واحدة.

سأم بشير تقلبه فقام في ضجر، خلع جلبابه وارتدى ملابسه القاهرية ومعطفا صوفيًا ثم انطلق في جولة تمنى أن تساعده على النوم، مشى في حذا منازل السهالك، البيوت في دجا متراصة في دوائر وحلقات متالية، في المنتصف والعمق تجد منازل فقراء الأجواش، يتلو ذلك ثلاث دوائر من منازل الأجواش ثم مثلهم من منازل السهالك.. ثم ثلاث دوائر أخرى يعيش فيها الأغنياء من الطرفين.. ثم المشيخة على الطرف الخارجي تجاورها بيوت كبارهم من سلالة داعو حتى وإن لم يكونوا من الشيوخ.. في الجهة الأخرى من البلدة يوجد ما يطلق عليه بشير مبنى العزل، وما أسماه باركلي بالمصنع وإن كان متطرفا عن البلدة كثيرا!

انطلق بشير سائرا حول الدائرة الكبرى التي توجد فيها المشيخة والتي تحيط بالبلدة بأكملها، أدار ظهره إلى المنازل ليجد أمامه فراغا لانهائيًا، كان الفجر يناضل لكي يشق سماء المدينة.. فالنور لا يطلع على هذه المدينة بسهولة.. تشعر به متعثرا خلف تلك الجبال التي تبدو كوحوش خرافية عرفت جيدا أين تقف لكي تؤخر ظهور شمس الصباح، التي تحتاج إلى أن تناور كثيرا وتقطع مسافة أطول من كل المسافات التي تقطعها في مدن أخرى حتى تصل إلى حيث يراها الجميع.. المدهش أنهم لا يرونها عندما تصل إلى ذلك الحد؛ لأنها تكون أعلى من أن ترى من بشر قصار القامة كهؤلاء..

أدار وجهه إلى دجا فاصطدمت عيناه بزحام البيوت القصيرة، شعر برغبة عارمة في أن يفعل ما لم يفعله منذ سنوات طويلة، سار في الحارات التي تضيق من دائرة لأخرى، طرق ترابية جافة تدور حول البيوت المتتالية في شكل يشبه المتاهات التي ترسم في كتب الأطفال، لكنه يعرف خرائطها جيدا فلا شيء تغير منذ طفولته. كان يريد أن يصل إلى قلب البلدة، يطلقون عليها (دالاو) أي رائحة الخيول، لم تكن هناك خيول على الإطلاق في أي فترة من الفترات التي عاصرها بشير، لكنه يعرف جيدا أصل التسمية، عرفها في طفولته لأول مرة عندما زار أسوان مع أبيه، واسترجعها عندما دخل مزرعة الخيول مع أصدقائه في يوم الرحلة التي احترقت فيها يده، ضحك وهو يقول:

ـ دالاو!

أخذ نفسا عميقا يعيد إليه ذكرياته، الرائحة ليست رائحة الخيول

بل رائحة روثها، كان الأجواش يعدون أنفسهم للبدء في رحلات العمل التي ينطلقون فيها إلى أي بقعة من بتاع الرزق. بسطاء مثلهم مثل جميع عمال مصر يعدون لوازم العمل وهنا يختلفون في شيئين. أولا: لأنهم يبدءون ما يسمونه بالتحضير بعد منتصف الليل ويتوقفون عنه تماما مع بزوغ أول ضوء من الفجر. ثانيا: لأن كل ما يفعلونه هناك هو مشهد لا مثيل له إلا في دالاو.. وقف بشير يراقبهم في صمت كأنه يراهم لأول مرة. ألم يتغير شيء هنا.. الرائحة خانقة لا تزعج أحدا سواه، رائحة الروث هي السائدة إلا أن للدماء وقطع اللحم المتساقطة على الأرض أثرا واضحا يخترق أنفك أيضا.

تلك هي أدوات العمل التي يستخدمها الأجواش، يجمعون فضلات الخيول من كل المدن المجاورة ويضعونها في كومة كبيرة، تمتد أيادي الأطفال إليها لتعبئها في أكياس سوداء وتربط جيدا.. حيوانات تذبح وتصفى دماؤها في أوانٍ معدنية.. يقومون بتقطيعها ويضعونها في أكياس صغيرة أيضا.. أما الدماء فتحفظ في أكياس بلاستيكية شفافة، وقف بشير يراقب في ازدراء، تذكر يوما عندما كان يقف في نفس هذا المكان مع جده الشيخ عثمان الذي شرح له يومها تفاصيل ما يفعلونه وهو يبتسم في انتصار.. الدماء والروث والحيوانات الميتة.. هذا ما يعتبره سحرة الأجواش طعام الشياطين الذين يعملون في خدمتهم.. هذه الثلاثية التي تجعل الجوشي ساحرا كافرا مقيتا.. سأله يومها:

ـ وماذا نفعل نحن ياجدي؟

ابتسم في فخر وهو يقول:

- نحن لسنا من السحرة.. نحن نشفي من الجان..

- وما الفارق؟

- الفارق كبير يا ولدي.. الجن مذكور في القرآن.

- والسحر أيضا..

- القرآن لم يذكر كيفية عمل السحر..

- وهل قال كيفية استخراج الجن يا جدي؟

لطمه جده على رأسه بقوة فأسقطه على الأرض وهو يقول:

- تتطاول على السماء أيها الملعون!

لم يدرِ بشير كيف تطاول على السماء، ظل يبكي في حضن أمه وهو يرى الجميع غاضبين منه، ولم يخاطبه جده بعدها لأيام طويلة إلى أن جاءت به أمه مع شهلي وأعلن بشير - الذي كان في التاسعة تقريبا - توبته أمام الجميع، وأكد أنه فهم جيدا الفارق الكبير بين السهالك والأجواش رغم أنه لم يفهم حتى الآن وهو يوشك أن يصبح شيخهما.

لم يكن ذلك الموقف منفردا، عشرات المرات أراد أن يتكلم لكن لطمة جده كانت تعيده إلى صوابه قبل أن يتكلم.. بعد وفاة عثمان وتولي أروكا أصبح بشير أكثر جرأة، كثرت مناقشاته التي سربت الشك إلى النفوس فيما يخصه، بمجرد أن بدأ دراسته في الجامعة تأكد من أنه لا يحيد عن الطريق لكنه يبحث عنه، وبعد أن

أنهاها استطاع أن يحدد موقفه أكثر، هذا الطريق يخص دجا وحدها، لا علاقة له بالسماء ولا بقية الأرض، ولا فائدة ترجى ممن يؤمنون ، لم يبقَ لديه سوى الابتعاد عن هذا المكان وهذه المدينة، لكن الأمر يزداد صعوبة كل يوم، إما أن يعيش هنا شيخا وإما أن يموت.

ظل بشير غارقا في ذكرياته وتساؤلاته، انتفض عندما سمع صوت جنة يأتي من خلفه صائحة:

ـ يا ولد.

لم تكن تخاطبه، كانت تضع لولدها الأكياس التي أعدتها له، انتبهت لوجوده فبدا له أنها فزعت عندما رأته في الليل على غير المعتاد، مدت يدها إلى عصاها في هلع، ابتسم بشير في سخرية عندما وجدها لأول مرة فزعة منه وليس العكس. هو لم يعد يخاف أحدا منهم، مسحت يدها في جلبابها وألقت بقطعة قماش كبيرة على كل ما كان أمامها من (أدوات العمل). جلست على حجر ضخم أملس السطح، ثم صاحت فيَّ بصوت مبحوح:

- ما الذي أتى بك إلى هنا يا ابن أروكا؟

- بشير يا خالة. اسمي بشير..

لم تلن ملامحها بأي شكل من الأشكال وهي تجيب بازدراء:

- أعرف. لكني لا أراك بشيرا، أراك نذير شؤم، مثل أمك وجدك، لماذا جئت إلى هنا؟

ظل بشير يحدق فيها، لم يكن لديه رد، تحرك مبتعدا.. فنادته وهي ترفع رجليها لتعقدهما فوق الحجر:

- هل تعرف كيف كان الحال قبل أن يأتينا جدك؟

استدار بشير إليها فقالت في حدة:

- كنا في خير حال، جدك عثمان الدجاوي كان يعمل معهم، جاءنا في يوم ودعانا إلى دجا، قال للناس إن هناك لعنة كبيرة ستصيب كل من يعيش على ضفاف النيل أو قريبا منه.. طوفان مثل طوفان نوح، من لن يركب سفينته فسيموت هناك ملعونا إلى الأبد، ذهب معه من ذهب، وبقي هناك من بقي. هؤلاء أصابتهم اللعنة بالفعل..

- الطوفان؟

ضحكت ساخرة وهي تقول:

- بل الخزان. خزان أسوان ثم السد العالي، هَجَّروا الناس في أيام معدودة، وأغرقوا ملايين النخل في يوم حزين يعرفه جيدا كل من عاشوا هناك.

سألها وهو يرفع حاجبيه في دهشة:

- أنت نوبية يا خالة جنة..

نظرت إليه طويلا ثم تنهدت وقالت:

- لم يعد ذلك مهمًا. أنا الآن من هنا، أبين زين وأضرب الودع وأرى حظ الصبية، بعد أن رأيت حظي..

- كان لابد أن يكون هناك خزان وسد..

- اللعنة عليك. أنت مثل كل الصغار هنا، لا تفهمون شيئا،

تركنا أرضنا ولم تكن جريمة. لم نعد إليها قط ولا عوضونا عنها، هذه هي الجريمة، أهل السودان الذين ذهبوا إلى وادي حلفا أخذوا أموالا طائلة، أما أهل مصر فلم يجدوا من يراضيهم. تركونا هنا في دجا.

- غالبا ستجدين من ذهبوا إلى السودان يقولون العكس.

- ربما يا ابن أروكا، لكن جدك لم يكن على حق، كان كاذبا، باع نفسه لهم وخدعنا. كان يجب أن يخبرنا أن هناك خزانا وسدّا، وأننا سنذهب ولا نعود. صدقناه وجئنا إلى هنا وقال إننا سنعود مرة أخرى، لكن أحدا لم يرجع.. ثم قال إننا من الأجواش وأنا لا أعرف مَنْ هم الأجواش ولا السهالك.

سألها في حيرة:

- كيف لا تعرفينهم؟

هزت رأسها:

- كنا نعرف من هم السهالك ومن الأجواش، عائلتان كبيرتان مثل عائلات أخرى لم تسمع أنت عنها، وعندما حدث التهجير جاءت أخرى ليست من هؤلاء ولا هؤلاء، انضموا إليهم، أنا واحدة منهم. أبي كان رجلا غنيّا يملك مائتي نخلة، غرقوا جميعا. أذكره وهو يقول لأمي في طفولتي إننا سنذهب إلى الدجاوية، بكت أمي غاضبة وهي تقول له: لن أذهب مع هؤلاء الدجالين، حرام. صفعها أبي على وجهها لأول مرة وهو يقول:

الحلال فيما يحدث؟ من أين سنأكل؟ أنا لا أملك صنعة

ولا أعرف شيئا آخر غير تخلي الذي كنت أمتلكه، وبلحي الذي كنت أبيعه.

رأيت جدك لأول مرة وهو يرحب بأبي، تطور الأمر مع أبي شيئا فشيئا، فبعد أن عاش مثل عشرات من جاءوا إلى هنا على الإطعام الذي يقدمونه للجميع. قرر أن يطور من الأمر، فرشة صغيرة لتجارة البلح لم تكن كافية، بدأ يبيع البخور والعطارة، ثم تطور الأمر إلى عطارة السحر لأنه وجد أن هذا ما يحتاجه الناس أكثر. السدر والكندر والحلتيت، كان أبي يقول إنه لا يبيع السحر بل يبيع شفاءه.

بدا أن الأمور ستكون أكثر استقرارا. لكن فجأة بدأنا نسمع كثيرا كلمتي السهالك والأجواش فقط، كان شيئا غريبا، كسحر فرعوني أسود انتهى باختفاء أسماء كل العائلات وبقاء اسمين فقط السهالك والأجواش، أتعرف يا ابن أروكا أن نصف السهالك على الأقل أصبحوا من الأجواش بأمر جدك ومن معه.

ـ كيف؟

أجابته بمرارة:

ـ فجأة بدأ جدك يقول إن السهالك هم أهل الجان وفك الأعمال السفلية، والأجواش هم أهل السحر.. ثم قالوا إن الأجواش السحرة كفرة والسهالك هم العارفون بالله. وكانت أعداد البشر النازحة إلينا تتزايد، وكل من يأتي كان جدك يعلمه نفس الشيء، ثم يضم من يختاره إلى السهالك ويضم الآخر إلى الأجواش، ومن يأتِ جديدا يصدق والقديم ينسى. في البداية كان كل ما يفعله السهالك يفعلونه الأجواش، عثمان قال عنا:

ـ هؤلاء هم خَدَمَةُ الشياطين.

أسكنونا هنا في دالاو وحدنا. ولم يعد أحد من الدجاوية يقترب من فرشة أبي؛ لأن جدك أعلن أن الشراء مِنَّا يورث الفقر ويدخل السحر إلى البيوت.. وهكذا تحول أبي من البيع والشراء إلى التعطل مرة أخرى، إلى أن رحمه الله وأنزل عليه بركة قراءة الطالع، لولا تلك الكرامة لكنا الآن قد متنا من الجوع. حدثني عن حالي، لو لم يكن جدك موجودا في الدنيا..

نظر إليها طويلا.. ثم سألها في شك:

- لماذا لم يقف كبار الأجواش في وجه جدي؟

نظرت إليه بغضب هائل، تمتمت ثم أجابت:

- لأنه جعل كل الكبار من السهالك، وترك الفقراء والمرضى فقط للأجواش!

كان ما سمعه منها يشبه الكلام الذي كان يتردد في البلدة سرًا منذ طفولته، لم يسمعه قبل ذلك بالتفصيل ولم يهتم به، كراهية الأجواش التي كانت مزروعة في قلبه منذ طفولته وبعده عنهم بأمر عثمان جعلاه يتجاهل كل ما يقولون، الأمر يبدو الآن منطقيًا تماما، ليس كل الأجواش أجواشا ولا السهالك سهالك. لا علاقة للأمر بالعائلات ولا بالدماء، مجرد تصنيف مصطنع. تذكر ما يعرفه جيدا عن العائلات التي انضمت إليهم بعد هجرة السد، كيف لم يلاحظ؟ لماذا لم تكن لهم أسماء؟ لا بد أنهم انضموا جميعا إلى السهالك أو الأجواش بأمر الشيخ الذي يصنع للناس ماضيهم ومستقبلهم.

سألها في تردد:

- وحكاية داعو؟

أجابت على الفور:

- استغفر ياولد. سيدك داعو ليس حكاية بل حقيقة، نعرفها جميعا وتشهد عليها الأرض والسماء.. وأنت من ذريته، الجميع هنا من ذريته، ليست أسرتكم فقط كما يشيعون كذبا. داعو ترك وراءه دعوة ألا يعمر أرضه هذه إلا من يحملون دماءه ويعرفون بركاته، هذه الأرض تطلب أهلها وتطرد من ليسوا منها، أنت يا بشير ضعيف الإيمان أفسدتك أمك بأنْ ألفت بك بين من لا يحملون إيمانا ولا عهدا، لو أنك آمنت بقوته وجبروته لَوَجَدْتَ نفسك ما لم تحلم به. هذا هو شرط أن ترث قوته.. الإيمان، وأنتم يا أولاد عثمان بلا إيمان!

الإيمان؟ بشير يزداد إيمانا مع كل ساعة يقضيها هنا، مؤمن الآن بأنه ينتمي إلى بلدة كل ما فيها مختلط حتى إن معرفة أي حقيقة تكاد تكون مستحيلة، هذا هو الإيمان الحقيقي الذي سيأخذك إلى الجنة لأنك ستغادر هذه الأرض الملعونة، أفيد كثيرا من إيمانه بأنه من أحفاد جني مستأنس. ما فائدة إيمانه بداعو؟ هل إذا آمن به فسيمشي على الماء ويخترق الجدران ويخفي جسده كما يقولون عن بعض الأجداد؟

في تلك اللحظة كانت الحاجة جنة صامتة تماما، ثم بدأت تغني بصوت نوبي شجي:

- إن دونيا إيـج.. إن دونيا إيـج..

كرر وراءها بصوت خافت، كان الجو البارد والليل وما مر به يجعل صوتها يخترق عقله اختراقا.تمتم وهو ينظر إلى الأرض تحت قدمه:

ـ صدقت يا خالة جنة. الدنيا هنا فعلا جحيم. جحيم ويبدو أنني علقت فيه وسأكون جزءا منه شئت أم أبيت. يبدو أن هناك مئات الأشياء التي حدثت في سبيل بقاء عثمان الدجاوي وسلالته على رأس المشيخة، ويبدو لي الآن أيضا أن بقاء سلالتهم في نفس المكان يستحق تضحيات كثيرة وكبيرة من الجميع، أو بالجميع وأولهم أنا!

ساد المكان فجأة حالة غريبة من الهرج والمرج، تحرك الجميع جريا في اتجاه واحد.. حتى جنة غادرت ولم ترد على سؤاله، أوقف طفلا صغيرا كان يجري من أمامه وسأله في فضول:

ـ ما الذي يحدث؟

أجابه الصغير ببراءة وهو يشير إلى الزحام:

ـ الرزق!

ثم انطلق جاريا، اندس بشير وسط الزحام إلى أن وصل إلى المنتصف تماما، أدهشه أن أحدا لم يعلق على وجوده رغم أنهم بالتأكيد عرفوه. حتى جنة ألقت عليه نظرة خاطفة ثم ابتسمت في شماتة لم يفهمها في لحظتها. فهم كل شيء، وجوده في تلك اللحظة ليس غريبا، ظنوا أنه أتى مع رسل الرزق. في المنتصف

كانت تقف مطيعة خادمة أودا، يرافقها بعض الرجال، كانوا جميعا يحملون أكياس الطعام ويجرُّون عشرات الأغنام استعدادا لذبحها وهم يرددون:

- طعام الأسبوع.. وكل أسبوع، سترسل الشيخة أودا إليكم طعاما إلى أن يرفع الله عنا وعنكم الغمة.

تحرك بشير متواريا عن أعينهم خجلا أو خوفا.. التقت عيناه بعيني مطيعة التي توارت أيضا في فزع، لم يكن الأمر يستدعي الكثير من الذكاء ليدرك أن أمه أو هو شخصيًا مَنْ يطلق عليه خدم أودا الغمة!

انطلق مبتعدا وهو يتساءل في حيرة: هل كان داعو جنيًا عاديًا، أم كان شيطانا كامل الأوصاف؟ أودا من سلالة الشيطان، من هؤلاء الذين لا يفعلون الخير إلا في سبيل الشر. ولايعطون إلا من أجل أن يأخذوا أكثر، ولا يتقربون من الآخرين إلا رغبة في إبعادك عنهم. شهلي صدق في شيء واحد. أي لعنة ستصيب هذه المدينة فوق كل اللعنات التي فيها إذا أصبحت أودا بكل ما في داخلها من سواد شيخة تقود هؤلاء الذين يحملون في قلوبهم سوادا أكبر؟

## (١٥)

دخل بشير إلى غرفة ناندو في هدوء تام، وجده نائما في سكون وهو يرتعد من آن لآخر، وتخرج منه همهمات غير مفهومة، بدأ يرى بوضوح ما أشار إليه باركلي، كل من في هذه البلدة مختل بشكل ما، حتى هو نفسه. ربما يكون حاله أفضل منهم لكنه أيضا مضطرب بشكل ما، لم يستطع أن يحدد إن كان الأمر وراثيًا، أم أن بلدة كهذه لن تنتج أبدا أسوياء. من أين سيأتون بين ما نشئوا عليه وما تعلموه؟ المرض الجماعي قد يكون مبررا يولد لديه شيء من التعاطف، لكن لماذا لم يتوقف أنصاف العقلاء ليبحثوا عن أصل القصص التي تحكى هناك؟ همس بصوت مسموع مخاطبا شقيقه النائم:

ـ داعو ليس قصة وهمية مصدرها عقول لئيمة. داعو متغلغل في رءوس كل من يعيشون هنا، الخلاف على عدد المنتسبين إليه، وهل هو حكر على أسرتنا، أم أن لنا شركاء فيه؟ ماذا عن جدي عثمان؟ هل ما قاله عنه جنة صحيح، أم كذبة أخرى اخترعها الأجواش عنه وصدقها أطفالهم حتى وصلت إليَّ؟ كيف يمكنك أن تعرف الحقيقة والكذب في عالم تضخ فيه الحكايات والخرافات في الآذان ضخًا، ثم تنتقل إلى الألسنة مباشرة دون أن تمر على العقول؟

لم يجبهناندو، مد يده ليهزه في رفق وهو يهمس:

ـ ناندو.. أريد أن أرى غرفة جدي الآن.

نظر إليه ناندو من بين جفنين فتحهما بصعوبة، أشار إليه بالموافقة، مد يده إلى أحد الأدراج التي توجد إلى جواره، أخرج منها مفتاحا انطفأ لونه الذهبي، أشار إليه ليتبعه في صمت، كان يمشي على أطراف أصابعه وكذلك فعل بشير. صعدا إلى جناح جديهما ثم وقفا أمام غرفة نومه المغلقة. أدار ناندو المفتاح بهدوء، أصدر الباب صريرا خافتا وناندو يرجوه:

ـ هششش.

كان بشير يهاب تلك الغرفة منذ طفولته، المنطقة المحرمة من المنزل، في طفولتيْهما كان الشيخ عثمان لطيفا معه هو بالتحديد، لكن عندما يأتي وقت دخوله هذه الغرفة كل شيء ممنوع تماما..

كان قلب بشير يدق بعنف وهو يطأ أرض الغرفة،طالما وقفا أمام ذلك الباب متبادلين النظر من ثقبه بحثا عما يفعله عثمان في الداخل، وكانت صرخات الأم أو صرخات شهلي تأتي غاضبة حادة فينطلقان جريا وهما يضحكان؛ فتزيد المتعة والفضول.. كان الشيخ يقول إن هذه الغرفة هي التي يلتقي فيها بداعو.. طالما تمنى بشير أن يرى ذلك اللقاء رغم خوفه الشديد منه.

تلاحقت أنفاس بشير وهو يدخل الغرفة السحرية، أرحب من كل غرف المنزل، الأضواء تدخلها من الفتحات المثلثة فتنعكس على ما فيها، في منتصفها سرير نحاسي ضخم، ارتجف بشير عندما رأ-

للحظة جده نائما عليه قبل أن يهز رأسه فيختفي. الحوائط بالكامل مشغولة بكتابات زرقاء متداخلة، آيات كالتي تتلى لاستخراج الجان، رسوم بدائية متباينة اللون والحجم لتماسيح وثعابين وبشر، أسواط وسلاسل معدنية. حائط كامل مغطى بأسلحة مختلفة ما بين سيوف ذهبية وفضية لامعة وبنادق قديمة، تتوسطه نافذة مفتوحة تدخل تيارا من الهواء لتحرك الستائر الحمراء الطويلة فتبدو كجلباب طويل يرتديه شبح عملاق.

تحرك بشير على الفور، أغلق النافذة وهو يرتجف رغما عنه من فرط البرودة والانفعال، فرك كفيه ونفخ فيهما نفسا دافئا، أجال عينيه في الغرفة، كل ما يخص جده من جميع أنحاء المنزل تم وضعه فيها بغير نظام.. جلابيبه الفضفاضة، عباءات ألوان وأشكال وكنزات قاهرية ملقاة على السرير والكراسي الضخمة. صناديق خشبية تطل منها أشياء مختلفة. كرات وأطواق ملونة، عصي سوداء وبنية اللون ببروزات معدنية فقدت لمعتها بمرور السنين، سيوف وخناجر، كل هذه الأشياء التي لا يمكن أن يعرف الرابط بينها غير أنها جميعا ملك جده عثمان!

كان بشير متوترا رغم أنه حاول أن ينكر ذلك، في النهاية هي مجرد غرفة عادية، يشعر بعيون تراقبه وبحركة خفية في الغرفة، استدار فجأة فلم يجد شيئا، شعر بها في ناحية أخرى فاستدار مرة أخرى، عندما لم يجد شيئا وقف ساكنا وهو يدير رأسه في حيرة، أخرجه ناندو من حالته عندما جذبه من يده مشيرا إليه لكي يسرع، قفزا فوق السرير إلى الجهة الأخرى، مال ناندو تحته مستخرجا صندوقا معدنيًا ضخما، لم يحاول حتى أن يمد يده إليه بل أمسك

بطرف السرير بيديه وهو جالس على الأرض بحيث يكون اتجاه قدميه إلى ما تحت السرير في اتجاه الصندوق، ثنى ركبتيه جيدا ثم دفع الصندوق بقوة ليخرج من الناحية الأخرى. لأول مرة منذ أتى بشير أفلتت منه ضحكة. عبث ناندو هنا عدة مرات وعرف أبعاد الصندوق ووزنه والطريقة المثلى لاستخراجه من تحت السرير. الصندوق له قفل ضخم. مع ذلك لم يحتجْ سوى دقة واحدة من ناندو ليفتح مظهرا ما في داخله من (كنز).

سبحة كبيرة من العقيق الأزرق، وبضع زجاجات من العطور، وقطع من البخور الخام. ثم آلاف الكتب المتراصة إلى جوار بعضها، أغلبها كتب عتيقة وبعضها يبدو جديدا نسبيًا.. نظرة سريعة على عناوينها كانت كافية ليعرف أنها بالكامل كتب في السحر بكل ألوانه والجن بكل أشكاله.. مال عليها بفضول ليفتحها، لكن ناندو لم يعطه الفرصة.. أخرج كيسا قماشيًا أصفر اللون، حجمه غير تقليدي أعطاه انطباعًا أنه فُصِّلَ ليحتوي حجما محددا من الأوراق، وأعطاه له.. فتحه بشير على الفور ليجد أمامه ورقا مصفرا يحمل كتابات بخط اليد!

حاول بشير أن يفتح الكيس لكن ناندو أمسك بيده وأشار له ليضعه في طيات ملابسه، مال بعدها تحت السرير مرة أخرى ليخرج كيسا آخر من القماش يحتوى على بضعة مجلدات تحوي صورا قديمة، نظر إليها بشير في دهشة وهو يكتشف أن جده عثمان لم يكن إنسانا عاديًا. لا يصدق من رآه معهم في الصور. هل كان الشيخ يعرف كل هؤلاء؟ يجلس معهم بكل هذه الحميمية. الصور في أماكن وأوقات مختلفة. ربما يجمع بينها جميعا أنه يقف وهم

جالسون أو أنه ينحني ضاحكا أو مبتسما في وجوههم وهم لا يرسمون على وجوههم ابتسامة صفراء لا تعبر عن أي شيء سوى عن محاولة للابتسام لسبب ما. لكن هذه الصور التي يرى فيها جده منذ كان في الثامنة عشرة من عمره طبقا لحساباته التي تنتمي إلى أيام ملك مصر والسودان، والصور التي تنتمي إلى ما بعد رحيله ورحيل من تلوه إلى أن رحل جده شخصيّا، جميعها تؤكد شيئا واحدا. أن دجا لم تكن بعيدة عن رؤية قصور الحكم في القاهرة.

قلب بشير الصور واحدة تلو الأخرى، وهو يتيقن من أن عثمان لم يكن مجرد رجل عجوز قصير القامة رفيع القوام يحكم بلدة منبوذة، ولم تكن قوته تكمن فقط في ملامحه الحادة وعينيه اللتين تنفذان إلى أعمق أعماقك من نظرة واحدة.. لم يكن مجرد شيخ لمدينة تافهة على حدود مصر. جده كان رجلا له دور هام. يمتلك علاقات متشابكة مع وزراء ورؤساء حكومات لم يعرفهم بشير إلا أثناء دراسته في القاهرة.. كل هذه الأسماء التي مع جده في الصور والتي كتبها بخط يده، على كل منها لا يعرف عن أغلبهم غير أنهم الآن شوارع ضخمة في القاهرة.

لم يستطع أن يخفي شعوره بالفخر. ربما لهذا يكرهه الأجواش. ولهذا كان يعرف دائما ما سيحدث مبكرا، لكنه لم يكن يستطيع أن يخبرهم بكل التفاصيل فاكتفى بأن يخبرهم أن الطوفان قادم قبل أن يأتيهم السد والخزان! ربما كانت خطيئته أنه لم يخبرهم بتفاصيل ما كان يعرفه؛ ولهذا اعتبروه خائنا..

نظر إلى ناندو في شك وهو يهمس:

ـ جدنا كان أهم مما أتصور ياناندو.

همس ناندو:

ـ ربما.

أشار إلى كيس الأوراق الذي يحمله بشير في يده:

ـ لا بد أن تقرأ بنفسك!

مد بشير يده ليفتح الكيس، انتبه فجأة على صوت في ركن الغرفة فوضعه في صدر جلبابه بحركة تلقائية، التفت هو وناندو في فزع، لم يجدا شيئا، تحرك بشير في اتجاه مصدر الصوت بينما وقف أخوه متجمدا في مكانه، كان مازال هناك صوت حركة خافتة يأتي من خلف الدولاب، ناداه ناندو مرتعدا ليخرجا من الغرفة، لم يتوقف بشير، أزاح الدولاب الثقيل ببطء فلم يتحرك كثيرا، لكن حركته كانت كافية ليخرج القرد الصغير من مخبئه وهو يطلق صرخة مفزعة، سكن بشير في مكانه بينما قفز ناندو صارخا فزاد من رعب القرد الصغير الذي تحرك في اتجاه النافذة المغلقة فاصطدم بها، سقط على الأرض ثم قام بسرعة فائقة، أخذ يقفز في جنون بمحاذاة حوائط الغرفة من مكان إلى آخر كما لو كان ذبابة محبوسة في إناء زجاجي، وهو يواصل صرخاته المفزعة.

تمالك ناندو نفسه سريعا، بدأ يجري خلف القرد محاولا أ يمسك به، بدا المنظر مضحكا وهو يقفز بذراعين مفتوحتين فوق قطع الأثاث فيسقط على وجهه ثم يقوم ليحاول مرة أخرى، ابتسم بشير، ثم ذكرته حركات ناندو بألعاب طفولتيهما فغابت ابتسامته،

تكررت المحاولات فلمح على وجهه تصميما غاضبا يفوق ما يحتمله الأمر كثيرا، عندما سقط على يد واحد من الكراسي وسالت الدماء من أنفه صاح بشير في حزم:

ـ توقف.

التفت إليه ناندو وهو يمسح دماءه، دهش بشير عندما وقف القرد أيضا وهو يحاول أن يفرد قامته، راقبه للحظات ثم أردف:

ـ اجلس مكانك.

جلس القرد وهو ينظر إليه في حذر، قفز عليه ناندو لكنه كان أسرع منه كالعادة، أمره بشير بأن يهدأ، ثم أشار إلى القرد الذي استقر فوق الدولاب وهو يقول بصوت هادئ:

ـ اقترب.

أجابه بنظرات زائغة بينه وبين أخيه، ابتسم بشير وهو يمد يده:

ـ اقترب ولا تخف.

تردد طويلا ثم قفز بحركة أبطأ من المعتاد وهو يراقب ناندو الذي لم يجد فائدة من محاولة أخرى، مد يده إلى بشير فأمسك به مطمئنا، مد ناندو يده وهو يحاول أن يخفي غيظه، تحرك القرد مختبئا خلف بشير الذي ضحك وهو يقول:

ـ أنت تخيفني أنا أيضا.

ـ هل سنسلمه لشهلي، أم للأجواش؟

لم يجبه بشير، بل التفت إلى القرد مبتسما وهو يلقي عليه سلسلة

من الأوامر، كان مدربا بالفعل، صافحه واستلقى على ظهره ودار حول نفسه في الهواء. استمتع بشير بفقرته، كانت استجابته له تزداد سرعة مع الوقت؛ ربما لشعوره بالاطمئنان، ناندو كان يراقب في استياء وهو يكرر سؤاله عمن سيأخذه، قرر بشير أن يسلمه لشهلي فهو لم يكن راضيا عن حكم أودا، ربما يبيعه أو يطلقه بعيدا عن البلدة. قفز ناندو ممسكا بالقرد من يده مستغلا استكانته، اندهش بشير وهو يراه يصفعه على رأسه بعنف شديد عدة مرا كما لو كان ينتقم منه، أفلته من يده بصعوبة، ثم دفعه بعيدا وهو يصيح فيه:

ـ أنت مجنون؟

تجمد ناندو في مكانه وهو يحدق في بشير غاضبا، قفز القرد منزويا فوق الدولاب وهو يلعق يده ثم يمسح بها رأسه، ناداه بشير فلم يأتِ مرة أخرى بل نظر إليه في خوف، تحرك بشير فاتحا النافذة ومزيحا ستائرها، فلم يتحرك. استداروا جميعا في اتجاه الباب الذي كان يفتح في حذر، دخل شهلي برأسه وهو يلقي تعاويذه، بمجرد رؤيتهما تنهد في ارتياح وهو يقول:

ـ أنتما؟ ما هذه الضجة؟ أفزعتما كل من في المشيخة. وما الذي أدخلكما إلى هذه الغرفة؟

انتهز القرد انشغالهم وقفز خارجا من النافذة، التفت شهلي إليه في فزع.

قال ناندو بصوت حانق:

ـ سمعنا صوت القرد فحاولنا الإمساك به. لكن بشير أعجبه دور القرداتي.

وجم بشير وهو يتذكر كلمات أودا.. القرد يصنع القرداتي، فتمنى ألا يراه مرة أخرى.

مد شهلي يده إليهما قائلا:

ـ المفتاح.

سلمه له نانذو ثم غادر غاضبا، تحرك بشير وهو يتحسس الكيس الموجود في صدره لكن شهلي استوقفه:

ـ انتظر يا ولدي، الشيخ أروكا يريد أن يراك الآن.

أجاب بهدوء:

ـ لا بأس.. سأذهب إليه بعد قليل..

أجاب بإصرار:

ـ سنذهب الآن يا بشير، وأرجوك أن تراضيه فهو غاضب جدًا.

تحرك بشير وهو يعدل من وضع كيس الأوراق في صدره، جاءه صوت شهلي معاتبا:

ـ هل ذهبت للأجواش بقدميك يا شيخ بشير؟

* * *

لم يضطرب بشير كثيرا عندما كررت أروكا عليه نفس سؤال شهلي، خالف الأمر توقعاته قليلا، في الظروف العادية كان ليتوقع

أن تجري مطيعة إلى المشيخة حاملة الخبر ثم تبدأ أودا في نشره على الفور، ما أربك حساباته قليلا أنه رأى مطيعة أيضا هناك، وعرف أنهم يمنحون الأجواش طعاما في السر ليضمنوا محبتهم وقت الحاجة، تصور أنهم قد يخفون الأمر مقابل أن يخفيه هو أيضا، أما أن يوصلوا نصف الحكاية فقط وبهذه السرعة فهذا لم يكن في حسابه.. أجاب في لا مبالاة:

ـ ألست أنا شيخهم القادم؟ لا بد أن أعرف كيف يعيشون.

انفجرت صارخة في وجهه:

ـ وأنا الغمة التي ستنزاح قريبا يا بشير؟ أهكذا تتحدث عن أمك؟

وقف يحدق فيها مندهشا، أدار وجهه إلى أودا التي كانت تقف خلفها لا تبدي أي انفعالات، أودا لم تنقل نصف الحكاية كما ظن بل نقلت حكاية أخرى لاقت تصديقا فوريًا، ظل يضخ فيها إلى أن لمح عليها اضطرابا حاولت أن تخفيه. لم يدرِ ما ينبغي عليه قوله وهو يسمع مقطوعة لانهائية خرجت من فم أمه معددة عيوبه ومصائبه منذ طفولته. خائن مثل أبيه وهي قليلة الحظ و...

شعرت أودا بالانفجار الذي أوشك أن يأتي من بشير فمالت على أختها قائلة:

ـ هدئي من روعك، ربما لم يعنِ ذلك.

التفت إليها بشير مرة أخرى وهي تطلب منه بصوت مليء بالصدق أن يعتذر لأمه؛ يعتذر عما فعلته هي وخدمها، ما أثاره أكثر هو نظرة شهلي البريئة وهو يعرف بالتأكيد كل شيء، لا بد أيضا

أنه هو من سمح بدخول أودا عليها لتحكي لها هذا الكذب.. لكن لماذا؟ هذا ما لم يعرفه.

نظر إلى أمه في غضب، سألها باستياء:

ـ هل صدقتها؟

هزت أروكا رأسها نافية وهي تقول بصوت آلي:

ـ أودا لم تخبرني بشيء.. أنا عرفت من رجالي.

أجابها مستهزءا:

ـ رجالك؟!. ربما مطيعة أو واحد من خدمها، أو أحد خدمك الذين استقوا المعلومات من أودا. لا أستبعد أن يأتيك أحد الأجواش ريخبرك أنني فعلت وقلت ذلك أمامهم.. ألا تعرف أختك يا شيخ أروكا؟

كان بشير يفكر في أن يعدد لها كل الحكايات التي أخبرته بها على مدى سنوات عمره، كل ما فعلته أودا وألصقته بأروكا شخصيًا وكل ما ادعته على أروكا أيضا. أودا كانت تعشق شابًا من الأجواش وادعت أن أروكا هي التي تعشقه، حلق جده عثمان شعرها بأكمله، أودا أشاعت أن أمه تهذي أثناء نومها بما يؤكد أنها متزوجة من واحد من الجان لذلك لا تصلح للمشيخة. أودا قالت في كل مكان إن أباه هجر دجا؛ لأن أروكا لا تمنحه حقه في جسدها؛ فهاجر بحثا عن زوجة جديدة. أودا أطلقت على أخيه المعتوه وعليه النذل. كيف تصدقها ولا تصدق ولدها بعد كل هذا؟

تراجع عن الحديث معها في اللحظة الأخيرة وآثر الصمت. يعرف جيدا أن تلك معركة خاسرة، أمه الآن في حالة يعرفها ورثتها عن جده عثمان. حالة الحواس الموجهة. تبنى هذه الحالة على آلية تعرفها أودا أكثر منه، خلاصتها أن من أتى بالخبر أولا هو الأصدق. لن تسمع أمه سوى ما تريد أن تسمعه، ولن ترى سوى ما تريد أ تراه. وهي الآن تريد أن تسمع وترى ما أخبرتها به أودا: بشير ذهب إلى الأجواش، خاطر بنفسه وأهان أروكا أمامهم.

تدخل شهلي في الحديث قائلا:

ـ بشير.. هل تحدثت مع جنة؟

ـ هل كنت تراقبني أنت أيضا؟

رد شهلي على الفور:

ـ حكت لك قصة الخزان والنخل؟

نظر إليه بشير بشك.. واصل شهلي:

ـ هذا ما تحكيه للجميع حتى من يعرفون الحقيقة، لا تصدقها، تكرر خرافات تداولها الكبار، فهي لم ترَ نشأة الخزان ولا السد لأنها لم تتجاوز الستين، ولدت هنا في دجا وأبوها كان دقاقا للزار في الموالد، ولا علاقة لها بالنوبة من قريب ولا من بعيد.

ا كلامه منطقيًا فطال صمته، كلهم يكذبون طوال الوقت، لن يعرف الحقَّ تلك البلدة أبدا، نطقت أروكا في حدة:

ـ وأنت تقول لهم إنني غمة ستزاح؟

رمى خالته بنظرة أخرى، بدت قلقة من رد فعله، لكنه لم يحادثها على الإطلاق، بل قال لأروكا باستياء:

ـ طالما تثق بها إلى هذا الحد؛ اجعلها شيخا بعدك، أودا تستحقها.

قالها ببساطة وسخرية، فانفجرت أروكا في غضبها مرة أخرى وهي تصرخ لاعنة اليوم الذي رأته فيه، نفس هراء المشيخة والأرض والقبيلة، اندفع شهلي محاولا تهدئتها لكنها كانت في ثورة عارمة، طلب شهلي منه ومن أودا المغادرة فورا. لم يتحرك بشير في وسط ذهوله من فرط غضبها، أما أودا فنهرت شهلي لأنه تجاوز حدوده في الحديث مع أسياده، كانت تعرف أن بشير يسخر منها لكنها انتظرت ردًا من أروكا، أي ردًا لتفهم منه المزيد عما يدور في رأسها، لكن غضب أروكا كان عارما. شهلي لم ينكمش كعادته في الحديث مع بنات عثمان، بل على العكس. نظر إلى أودا باحتقار وجرأة لم يرهما بشير في عينيه قبل ذلك.. ثم مال على أروكا هامسا في أذنيها ببضع كلمات لم تؤثر فيها كثيرا، وظلت على غضبها وصياحها. أمسكها من ذراعها فقاومته للحظة ثم مشت معه وهي تواصل لعناتها التي صبتها على بشير. غادرا الغرفة إلى مكتب الجد بينما وقف بشير متسمرا في مكانه، شهلي لم يكن بهذه الجرأة في التعامل مع الشيخ. لم يره يوما يضع يده عليه ولا يهمس في أذنها. كان يعاملها دائما على أنها ابنته، لكنه كان يحافظ دائما على مسافة ثابتة بينها وبينه. أودا على وجهها تساؤل لا يختلف عن تساؤل بشير، فوجئ بها تنظر إليّ كما لو كانت نسيت كل ما حدث وهي تقول له ببساطة:

ـ شهلي تجاوز حدوده معنا يابشير. كيف يطردك أنت يا ابن الشيخ من غرفة أمك؟ هذا الخادم لابد أن يتعلم الأدب.

لم يجبها بشير، شرد في كل ما رآه، تابعت هي بصوت أكثر عمقا:

ـ هل رأيت كيف يضع يده على أمك؟

واصل بشير صمته وهو ينظر إليها في ازدراء، لم تكترث كثيرا:

ـ أنا لم أقل لأمك شيئا،هي عرفت من رجالها أنك ذهبت، غالبا شهلي كان يمشي وراءك، لكني لم أستطع أن أنكر عندما سألتني..

أجاب بشير وهو يمط شفتيه:

ـ والغمة؟

هزت رأسها وهي تقول:

ـ أنا قلت لها إن مطيعة هي التي قالت حتى تنزاح الغمة؛ مطيعة كانت تعني الفقر.. لكن أمك لم تفهم.. ألم تلاحظ يا بشير أن أمك لا تبدو طبيعية على الإطلاق؟

منحها بشير نصف ابتسامة وهو يقول:

ـ خالتي.

ابتسمت هي أيضا في ود:

ـ نعم يا ولدي..

فرد سبابته أمام فمه قائلا:

ـ اخرسي..

ارتجفت أودا وهي تقول:

ـ أخرس؟

أجابها وهو يتفحصها بعينيه:

ـ تمساح، أم بركان، أم ميت؟

ـ ماذا تقول؟

ـ لا شيء!

كانت تقف أمامه وجسدها يرتعش هي أيضا كما كان جسد أمه يرتعش منذ قليل، لكنه لم يكترث إطلاقا ولم يحاول حتى أن يراقب رد فعلها، أودا تختلف عن أروكا.. لم تعتد أن يواجهها أحد ولا أن تواجه أحدا. كانت طفلة عثمان المدللة. جدته كانت تحاول دائما أن تغرس في قلبه حنانا تجاهها لم يفهمه أحد في العائلة. هل يمكن أن تغار أم من ابنتها؟ هذا ما كان يشعر به ويراه في العلاقة القائمة ما بين جدته وابنتها أروكا، التي كانت الأجمل من كلتيهما، هكذا أصبحت أودا وأمها فريقا.. وجده عثمان برغم ذكائه الطاغي مشجعا لذلك الفريق؛ لأنه لم يكن يستطيع أن يقف ضد رغبة أو كلمة زوجته. كان بشير يندهش عندما يراه مستكينا لإهانة من إهانات جدته أو مؤمِّنا على واحدة من أفكارها السخيفة. وكان يستاء من جدته كثيرا عندما يرى أودا إلى جوارها في جلسات كان يطلق عليها هو ونادو جلسات التنويم. نادو كان يجيد تقليدها تماما، كثيرا ما كان يؤدي

له في الليل فقرة ضاحكة تخص خالته وأساليبها.. كان يقف على السرير في حركة تمثيلية وهو يقول:

والآن مع خبيرة التنويم المغناطيسي العالمية أودا عثمان، ثم يقفز من على السرير محاكيا مشيتها.. وهو يقول:

ـ البداية أسلوب التمساح..

يندهش بشير عندما يرى عيناه تنفجران بالدموع في لحظة وهي يحاكيها عندما تبكي أمام جدته لتندب سوء حظها وقلة حيلتها، وتذكر أروكا عشرات المرات في سياق متشابه مفهوم، مغزاه أن أروكا هي التي أخذت كل شيء.

ثم يهدأ للحظة ويغمض عينيه كما لو كان فقد وعيه، إلى أن يقترب بشير منه فيقفز فجأة وهو يصيح:

ـ والآن، مع أسلوب البركان..

تجحظ عيناه ويرتعش جسده وهو يضع يديه داخل جلبابه ليرفعه وليحاكي صدر خالته وهو يرتفع وينخفض في حالاتها البركانية التي كانت تنفجر فيها غاضبة بصراخ هيستيري يشبه هذا الذي فعلته أمه منذ قليل.. ثم يضيف فقرة الختام وهو يرقد على الأرض قائلا بصوت مختنق:

ـ وختاما: أسلوب الميت.

ثم يلقي نفسه على الأرض متقلبا كما لو كان يعاني واحدة من نوبات الصرع.. يخرج لسانه ويلهث متظاهرا بالقيء والاختناق،

ثم يدخل في غيبوبة مصطنعة لا تنتهي إلا مع تصفيق بشير له في حماس.

بعد نهاية فقرات ناندو كان يقوم من مكانه محاكيا صوت خالته وهي تلقي بقائمة الطلبات الصغيرة أوالكبيرة والتي احتاجت كل هذه الطقوس للحصول عليها، وكان العرض يتكرر كلما سمعا جديدا عن أودا. فوجئا مرة بأمهما تراقب من فتحة الباب الموارب.. سكت ناندو فجأة عندما لمحها بعد أن أنهى عرضه، فتحت هي الباب وهي تنهره متظاهرة بالغضب فتظاهرا بالنوم وارتفع شخيرهما في وقت واحد، انفجرت في الضحك فقفزا من سريريهما منفجرين في الضحك معها، ثم سكتت فجأة وانخرطت في البكاء فانسابت دموعهم جميعا في صمت، في ذلك اليوم بالتحديد تعلم بشير أن يكره الظلم حتى وإن لم يستطع أن يكره الظالم!

أروكا عاشت الجزء الأول من حياتها في هدوء، بأحلام شابة دجاوية بسيطة تنتظر فارسها القادم، تفعل كل ما يأمرها به عثمان دون أن تطلب منه أي شيء ودون أن تحصل منه حتى على العدل. تبكي في صمت وتضحك في صمت وتمرض في صمت.. حتى عندما رحل أبوه الذي كانت تعشقه بعد أن انصاعت لأمرعثمان الذي نقل لها المشيخة بالرغم من اعتراضه لم تتكلم، لم تخبر أباها بذلك فعاش ومات وهو يظن أنه أنعم عليها بأكبر نعمة يمتلكها، ولم يعترف لنفسه بأنه أعطاها لها مرغما بينما هي التي ضحت من أجل رضاه بحياتها وسعادتها؛ تلك التضحية التي تطلب مثلها من بشير.. لكنه لن يفعلها وإن تظاهر بذلك.

كانت أودا قد انتهت من وصلة صراخ طويلة لم يسمعها بشير في وسط شروده، أفاق فجأة عليها وهي ترتجف قائلة:

أخرس يابشير.. أنا يا بشير؟!

ثم تحركت مترنحة في اتجاهه إلى أن أصبحت على مسافة كافية منه ليمسك بها، زاد ترنحها وبدا أنها على وشك السقوط على الأرض.. بالفعل تهاوت ساقطة بين ذراعي بشير الذي أخذ خطوة مفاجئة إلى الخلف، سقطت أودا على الأرض بكل ثقلها بينما كان بشير يغادر قائلا بازدراء:

ـ الإجابة: ميت.

(١٦)

انطلق بشير غاضبا إلى غرفة المكتب خلف أمه وشهلي، نجحت أودا برغم كل ما يعرفه عنها في زرع الشك في داخله، كان الفضول يملؤه لمعرفة ما استجد في تلك العلاقة ليسمح له بكل هذا التطاول. لم يخطر بباله للحظة أن تكون أمه على علاقة شرعية او غير شرعية بشهلي. لكنه أدرك أن هذا العجوز استغل فرصة وحدة هذه المرأة وضعفها رغم قوتها ورفع حواجزَ لم يكن عليه أن يرفعها. يعرف بشير جيدا ما يحدث، يشبه ما لاحظه كثيرا أثناء سنوات الدراسة، العشرة والتجانس والتجالس يرفعون كل الحدود رويدا رويدا بين البشر إذا لم يتم إعادة وضعها في كل يوم. حتى ولو كان ذلك بين الشيخ وخادمها.

فتح باب الغرفة ليجد مشهدا أثار حفيظته وغضبه ودهشته مجتمعين. كانت أمه جالسة على الكرسي الكبير وشهلي جالس أمامها على ركبتيه ممسكا بكوب من مشروب ما يعطيه إليها، وهي في ثورتها العارمة التي لم تهدأ. عادة كانت أمه أهدأ من ذلك، لم يعجبه ذلك على الإطلاق، ولم يعجبه أن يسحبها شهلي من يدها بهذه الطريقة لذلك عاجله قائلا بغضب:

ـ كان الممكن أن يهدأ ويشرب ونحن في تلك الغرفة.. أليس كذلك؟

هَزَّ رأسه نافيا:

ـ خفت؟

ـ عليَّ؟

ـ خفت أن يرى أحد ما ينبغي ألَّا يراه.

أشار إليها.. وقف بشير يراقبها في دهشة.. التفت ليرى أمامها نفس أطباق الطعام التي كانوا يضعونها أمامه! كسرات من الخبز الجاف وطبق من زيت الزيتون وعسل أبيض مخلوط بحبة البركة وعيدان القرفة الجافة. أمه أيضا في عزلة العلاج.. تأكل طعام الشفاء ولا تلتقي أحدا. حكموا عليها أنها مسحورة. من الذي يحكم هنا؟ من هذا الذي هو أقوى من الشيخ ليحكم عليه؟ مَنْ غيرُ شهلي؟ أدار وجهه المليء بالغضب تجاهه.. قرأ شهلي ما يدور في رأسه فأشار بطرف يده في اتجاه أمه.

بدأ وجهها يتفخ وعيناها تعطيان درجة احمرار مرعبة. للحظة شعر أنه سيشهد بعينيه خرافة جديدة من خرافات أهل دجا. أمه ستتحول بعد قليل من فرط الغضب إلى شيطان أحمر أقرن وستنفث نارا من أنفها وفمها. أو ربما ستتحول إلى صورة شفافة غير مرئية في كرامة يجب ألَّا يراها أحد لكيلا تغيب. تلك الخرافات الكارتونية التي يملئون بها رءوس الجميع. الحقيقة أنه شخصيًا بدأ يشعر بخوف حقيقي عندما أحس بأن أمه تتحول بالفعل. بدا له أنها

تحاول السيطرة على الغضب الخارج من داخلها بدون جدوى. كما لو كانت في حالة قيء عنيفة لا تريدها، لكنها لا تملك لها كبحا. تتوقف لحظة لتزيد أكثر.. انطلقت فجأة في وصلة طويلة من السباب واللعنات التي لم يصدق أن أمه تنطق بها.. سباب باللغة النوبية لا ينطق به إلا أرذل الرجال.. ثم سباب قاهري جعله يشك أن أمه أيضا عاشت لفترة في حواري القاهرة.. كل ما قد يخجله ذكرته في سبابها.. لم يسلم من وصلتها أهله ولا أبوه ولا حتى هي.. لم تترك عضوا في جسدها (حيث إنها أمه) أو جسده يمكن أن تسبه به إلا وفعلت.. حتى شهلي لم يسلم منها.. حاول أن يقترب منها فقذفته بالكوب الذي في يدها حتى كاد أن يشجَّ رأسه لولا أنه مال ليتفاداه.. سحبه شهلي بعيدا هذه المرة، وبشير يسأله في فزع:

ـ ما هذا؟

هز رأسه في توتر:

ـ انتظر وسترى..

تواصل غضبها وهي تلقي وتحطم كل ما تصل إليه يدها، جلس هو ساكنا إلى جوار شهلي على الأرض، سأله عما إذا كانت حالة الغضب هذه تنتابها كثيرا أم لا حكى له أنها تتزايد يوما بعد يوم. وأن سيطرتها على نفسها تقل بمرور الأيام. جلس إلى جوارها منتظرا أن تهدأ.. أمسك بيديها وهو يشعر في داخله بقلق حقيقي عليها. لم تكن أمه في نظره سيئة ولا شريرة. طفولته المبكرة معها كانت مثل أي طفولة عادية. متى تغيرت أمه؟ بمجرد أن بدأ جده يعدها لتصبح الشيخة بدلا منه، كان لا بد أن ترتدي عباءة الشيخ

عثمان. جلسات مكثفة لتكتسب كل الصفات التي أكسبها لابنه الأخرى عندما كانت كل نواياه تنصب عليها في المشيخة. لذلك فصفات الشيخ عثمان جزء أصيل من جلد أوداء لكنها مجرد كسوة تغطي جسد أروكا. عندما رحل أبوه كانت أمه لا تزال محتفظة بالكثير من براءتها؛ لذلك فهي لم تقاوم كثيرا بل اكتفت بالبكاء عليه. الآن حاول بشير الرحيل فلم تبكِ أمه كما فعلت في المرة السابقة بل غضبت، ولم يتركوه يرحل. بل أعلنوا أنهم سيقتلونه، هذا ما كان يفعل أبوها، وهذا هو الفارق الكبير بين أروكا قبل المشيخة وبعد المشيخة. لكنها أمه ومازال يحبها.. تمنى أن يأخذها معه ويبتعد عن هذا المكان. أن ينتزع منها المشيخة انتزاعا ويلقي بها لمن يسعون وراءها، يخبرها أنها أضاعت عمرها وحياتها في التظاهر بأنها ملكة في منطقة من العالم لا ملوك فيها على الإطلاق. ما الفائدة من أن تصبح ملكا في مستنقع من الجهل والخرافات؟ ما الذي سيرضيك؟ شعورك بالقوة؟ سحر العباءة؟ اللعنة عليها وعلى كل من ارتداها..

بدأ جسد أمه يهدأ رويدا رويدا. بدا له أن ما أصابها هذا هو نوع من الصرع الذي اقتحم جسدها وفعل فيه ما فعل. مدت يدها إليه في ضعف وهي تقول بصوت مبحوح:

ـ هل جئت يابشير؟

أجابها بصوت هادئ:

ـ نعم.

عادت لتسأل:

ـ لم تكن تريد أن تعود  أليس كذلك؟

نظر إليها في تردد:

ـ نعم، يا شيخ أروكا..

أجابت في حزن:

ـ أنا أخطأت عندما سمحت لك بالدراسة في القاهرة. هأنت بعد عامين فقط لا تريد العودة مرة أخرى. ولا أحد يعلم ماذا ستفعل عندما تنهي دراستك، أنت حتى لا تريد أن تقضي هنا ليلة واحدة..

نظر إليها في حيرة، لم يفهم شيئا. كانت تعيد حوارا خاصا فيه عند عودته في المرة السابقة منذ عامين بالتحديد، بدا له أنها تعيش زمنا آخر، قال في تردد:

ـ تحدثنا في هذا الأمر وانتهينا منه.

نظرت إليه باستنكار:

ـ لا لم ينتهِ يا بشير، ستبقى يا بشير وس....

بدأت تكرر كل ما قالته له في تلك المرة، نفس الكلام والانفعالات. شهلي وقف ينظر إليها ويهز كتفيه في حسرة.. أما بشير فقد كان مذهولا لا يدري ما ينبغي عليه عمله.. لم يستطع أن يكون جافًا معها مثل المرة السابقة لأسباب عديدة.. همس لها في صوت خافت:

ـ استريحي يا أمي، وسنواصل حديثنا لاحقا.

هزت رأسها نافية بإصرار وهي تتهمه بأنه يخدعها، وأصرت على

إتمام الحوار. أتمته هي من جانب واحد. أما بشير فالتزم الصمت، في هذه اللحظة أخبر نفسه بخبر هائل. أمه ليس مريضة جديًا كما كان يظن، بل فقدت عقلها بشكل ما، لا تذكر أي شيء عما حدث بينهما في الأيام السابقة ولا تذكر شيئا حتى عما فُعل فيه أمام عينيها لإخراج السحر الذي يمنعه من قبول المشيخة؛ لهذا غسلوها هي أيضا بماء المطر، ولهذا لم تَحْمِهِ كما وعدته عندما بكت وهو يرجوها أن تتركه يخرج من دجا ومن لعنة المشيخة. ارتجف جسد بشير وهو يحاول أن يشرح لنفسه ما حدث، الشيخ أروكا سيفقد قوته، الحائط الحديدي الصلب الذي كان بشير يختفي وراءه على وشك الانهيار؛ لذلك قفزوا من فوقه وأتوا ببشير من القاهرة.

نظر إلى وجهها بإمعان متفحصا التجاعيد البادية عليه، هل الأمر مجرد مرض، أم أن أروكا في طريقها إلى الموت؟

هز رأسه في حسرة، لا أحد هنا يتحدث عن الموت، لكن بشير يخافه منذ اليوم الذي عرف فيه أن الشيخ عثمان مات. عرف أنه أقوى من أقوى رجل عرفه في حياته. هاهو يقترب منه مرة أخرى، لا يريد أن تموت أمه ولا يريد أن يموت هو.. أفلتت كلماته في غضب:

ـ لماذا لا تموت دجا؟

هذا ما تمناه في تلك اللحظة، تساءل: لماذا لم يخلق الله أوطانا تموت كما يموت البشر؟ تستيقظ لتجد نفسك يوما يتيم الوطن وتتخلص منه ومن كل مشاكله وتترحم فقط عليه من آن لآخر، ثم تجد وطنا آخر يتبناك. دجا لا تريد أن تتركه ليرحل مبتعدا، أم شريرة ومختلة تفضل موت ابنها في حضنها على أن يعيش سعيدا بعيدا عنها.

ألقى نظرة أخرى على حال أمه، إذا كانت تتآكل هكذا منذ فترة، فمن الذي قرر أن يعيده إلى البلدة؟ شهلي؟ نظر إليه طويلا وهو يتساءل في حيرة عما إذا كان ذلك العجوز يمسك في يده جميع الخيوط بكل هذه القوة.

انتهت من كلامها الذي لم يسمع منه سوى بدايته. بدا عليها الهدوء فنظر إليها مبتسما.. لم ترد بسمته بل ظهر على وجهها انطباع جامد فارغ من كل شيء؛ وجه حجري صلد كالذي اعتاد أن يراه منذ أتى.

قبَّل رأسها وغادر الغرفة وهو يشير إلى شهلي الذي مشى خلفه وهو يحكي مستطردا، كان يريد أن يرى بشير بنفسه ما يحدث لأمه، وأن يعرف أن شر أودا لم ينقص بل على العكس، وكان يريد أن يحكي لبشير كل شيء.

أخبره بالطبع أن أمه ممسوسة بجنيٍّ فريد من نوعه يسمى أبا النسيان. جنيٌّ لعين يتربص بقرية داعو منذ أجيال عديدة فيصيب بعضهم ويترك البعض الآخر. شعر باهتمام حقيقي تجاه ما يقوله ليفهم ما يحدث. يعرف أنه سيحكي له الحقيقة، ولكنه سيعللها بتخريفة من تخاريف أهل البلدة. كل مرض أو فشل أو عثرة مصدرها لن يخرج عن الحسد والجان والسحر.. وبالتالي لا شيء يحدث قضاء وقدرا أو من جراء سوء تقدير.. بل كل شيء يأتي من عند طرف ثالث شرير في المعادلة.

منذ ما يقرب من ستة أشهر بدأت الأعراض تتسلل إليها رويدا رويدا. في البداية لم يكن الأمر ملحوظا، لكن مع تكرار نسيان

الأسماء والأماكن التي تضع فيها الأشياء، بدأ شهلي يراقبها وهو يعرف أن ذاكرتها هي أشد ما كان يميزها منذ طفولتها المبكرة. تبع ذلك نوبات عنيفة من الغضب الذي تفقد فيه سيطرتها على نفسها تماما، أصابه هلع شديد لأنه عاصر نفس هذه الأمور مع جده عثمان قبل وفاته. كان هو القائم على عدم نشر الخبر عن جده لذلك لم يعرف أحد سوى خادمه المقرب وبناته، عثمان نفسه عرف. أدرك أنه في طريقه إلى الخرف الكامل واعترف للجميع بذلك، أوصى بالمشيخة لابنته الكبرى واعتزل الناس، عندما زادت لحظات الخرف قال إن وجوده في الدنيا لم يعد مناسبا، في اليوم التالي صدمته سيارة ظهر هو أمامها فجأة على الطريق السريع. لا أحد يعرف هل فعل ذلك في لحظة شرود، أم جنون، أم فعله في لحظة عقل يائسة لأنه لم يكن ليسمح لأحد بأن يراه مجنونا بأي ثمن.. حتى لو كان هو الثمن. عثمان الدجاوي ما كان ليفعلها، حكى له شهلي ما لم يعرفه من قبل. أمه ضحت بحياتها التي كانت هانئة وبرغبتها في ألا تخسر زوجها من أجل جده، لم تخبر أحدا. تسترت على مرضه وقبلت المشيخة، وصف شهلي ما فعلته بأنها كانت تضحية كبيرة منها. وأنه الآن مطالب بأن يفعل نفس الشيء من أجلها.. ليكون ابنا بارًا

- أودا عرفت، لن نستطيع إخفاء الأمر طويلا يا بشير. الأمر سيخرج عن السيطرة وسيلاحظه الجميع.

نظر إليه في حيرة.. استطرد في لهجة مليئة بالاستعطاف.

ـ لهذا تغيرت الحسابات يا ولدي، أمك كانت ستبقى في المشيخة إلى أن تموت ثم تتركها لمن يطلبها، عندما أحست بمرضها طلبت عودتك، تريدك أن تحميها وتستر مرضها. لا يمكن أن يأخذ المشيخة في حياتها إلا واحد من ذريتها، ناندو مختل والكل يعرف ذلك، إذا لم تعد فسيعزلونها ويحبسونها ولا يعرف أحد ما سيحدث لها، لست ملزما بقبول المشيخة ياولدي، لكن الأكيد أنك ملزم بأمك وبألا تتركها تحت رحمة أحد منهم وهي على هذا الحال.

صمت بشير تماما، نظر إلى شهلي نظرة طويلة حائرة، ألح شهلي قائلا:

ـ ماذا ستفعل في أمك يا بشير؟

تنهد بشير في إحباط ثم أجاب:

ـ حدد يوم العهد يا شهلي. لكني أبقى ساعة بعد اليوم المائة، وسآخذ أمي معي.

ابتسم شهلي في سعادة وهو يقول:

ـ كراماتك يا شيخ بشير.

## (١٧)

أعلن شهلي عن موعد يوم العهد، غضب بشير عندما عرف أنه سيكون عند اكتمال البدر، نظر إلى السماء فوجد فيها هلالا رفيعا باهتا، أيام عشرة أضيفت إلى مدة بقائه في بلدة يُحصي فيها الدقائق حتى يغادرها بلا رجعة، لم تكن لديه اختيارات سوى القبول، هَوَّن عليه الأمر كثيرا ما قاله لنفسه وهو يقف أمام نافذة غرفته:

ـ سأشتري ما تبقى من حياة أمي بهذه الأيام.

شريط طويل من الماضي والحاضر وما قد يحدث في المستقبل أهداه راحة كان يفتقدها، فبعد أن كان يطلب الرحمة من أمه، أصبح مطالبا بمنحها الرحمة. وبعدما كان يرجوها أن تتركه ليبدأ حياته وحده، يرجوه شهلي ألا يتركها لكي تنهي حياتها وحدها. الفارق كبير في نظر بشير.. قد يستطيع أن يهزم هذه المرأة مهما بلغت قوتها، لكنه لا يستطيع أن يخذلها أمام ضعفها. يتجاوز الأمر تلك (الشيخ) التي تتحكم في حياة كل من حولها. فهذا الجسد الذي يعرفه جيدا، حمل في داخله امرأتَيْن.. ويبدو أنه سيحمل الثالثة عما قريب. الأولى كانت هي أمه زوجة عرفات الدجاوي.. والثانية هي الشيخ أروكا|.. الشيخ عثمان. لذلك فمشاعره مختلطة فيما يخص

ما سيفعله، ومع من منهما سيتعامل؟ من يقاوم، ومن يهادن؟ أروكا زوجة عرفات. ما يذكره عنها يقل كثيرا عما يذكره عن الأخرى ابنة عثمان، لكن ما رآه ولّد سيلا من ذكرياته معها، يمشي خلفها ممسكا بطرف جلبابها مثلما يفعل كل أطفال البلدة مع أمهاتهم. ترتدي جلبابها وتسير في الطريق وهو خلفها إلى أن يصلا إلى السوق. تشتري وتفاصل وتجادل، تضحك مع كل نساء القرية، تشتري له كوز العسل من نفس الرجل العجوز في السوق في كل مرة، يأكل نصفه ويعجز عن أكل ما تبقى منه فتهدده بأنها لن تشتريه مرة أخرى، ثم تأخذ ما تبقى منه وتأكله وهي تنظر إليه في غضب، ثم تشتري له في اليوم التالي واحدا آخر بمجرد أن يطلبه منها بعد أن تعقد معه اتفاقا أنه سيأكله حتى نهايته، وينتهي الأمر بأن تأكل هي ما تبقى. جسد أمه الذي كان ممتلئا أكثر من ذلك في شبابها، نصفه على الأقل أتى من أكواز العسل التي كان يتركها لها. وعندما كانا يعودان إلى المنزل بأفواه ملطخة، كان جده يهز رأسه في استياء وهو يعاتبها على ذهابها إلى السوق بنفسها وهي ابنة الشيخ، وكان شهلي يضحك وهو يسألها: (أكلتِ حلاوة بشير؟). أما أودا فكانت تنظر إليها باحتقار ساخر. ثم تنقض على أحد ما صارخة بجنونها المعتاد؛ خادمتها، شهلي،أو حتى جده شخصيًا، تحدثه عن أن أمي ستفضح العائلة بذهابها إلى السوق واختلاطها بالأجواش وبعوام السهالك. فيثور عثمان على ابنته معلنا أنها لن تذهب إلى السوق مرة أخرى، لكنها كانت تذهب عندما تريد رغما عن جده؛ لأن هناك رجلا آخر يسمح لها بالذهاب إلى السوق عندما تريد. رجلا اسمه عرفات الدجاوي.

حفلة الذهاب إلى المدرسة الابتدائية؛ المدرسة الوحيدة في القرية والتي يدخلها الجميع ولا يستكمل الدراسة فيها إلا القليل، في ذلك اليوم دخل أبوه حاملا الدفاتر والأقلام التي أوصته أمي بشرائها من أسوان، وبدأت رقصة إفريقية بالتبادل بينهما وهما يحملانه ويغنيان ويتجادلان في مستقبلي، أراده أبوه مهندسا زراعيًا وأرادته أمه ضابطا في الجيش كهؤلاء الذين كان جده يلتقط لهم صورا، وأراد هو أن ينام حتى يأتي الصباح سريعا ويذهب إلى المدرسة.

ميلاد ناندو، كان متعبا، وكان أبوه يبدو أكثر تعاسة مما كان يعرفه عنه منذ فترات طويلة.. ربما لأنهم كانوا قد انتقلوا إلى بيت الجد بالفعل، يومها نادته أمي وأجلسته إلى جوارها على السرير ووضعت ناندو على حجره وهي تهمس في أذنه:

ـ أنت الكبير وعليك أن ترعاه..

فنظر إليه في فخر وثقة ومال على رأسه وقبلها.. فمالت أمه على رأسه وقبلتها! ثم أشارت إلى أبيه ليقترب وقبّلت رأسه، كان بشير راقدا إلى جوارها على السرير ورأى ملامح أبيه عندما طبعت أروكا قبلتها على رأسه. بدا له مستاء. أغمض عينيه بقوة شديدة كما لو كانت القبلة تلسعه، ثم فتحهما على نظرة زائغة لم تعنِ شيئا وقتها لكنه لم ينسها، يفهمها جيدا الآن. رغم أنه رحل بعد عامين تقريبا من ذلك اليوم فإنه كان يعرف أنه سيرحل؛ لذلك كان مجيء ناندو يزيد الأمر صعوبة، وقبلة زوجته الصادقة لسعت قلبه أو ربما كان في تلك اللحظة يكرهها حتى إنه لم يحتمل قبلتها.

في اليوم الذي رحل فيه أبوه بعد أن ألقى على ولديه نظرة طويلة في جوف الليل، لم يحاول أن يأخذهما بين ذراعيه لآخر مرة، أخذت أروكا بشير بين ذراعيها. لم يكن يعرف أن أباه طلقها ورحل إلى الأبد، عندما احتضنته وظلت تبكي طويلا بكى معها، تساءل يومها: لماذا لم تأخذ ناندو أيضا في حضنها؟ لكنها كانت تعزيه عن رحيل أبيه الذي عرفه جيدا وأحبه، ظلمت ناندو أيضا كالعادة، كان من حقه عليها أن تحتضنه هو أيضا اعتذارا عن الأب الذي أضاعته بمشروعها مع أبيها في حكم دجا.. لكنها لم تفعل.

عرفات الدجاوي. الرجل الخلوق الذي كان أباه. لا يعرف بشير الملابسات التي قبل فيها عثمان زواجه من ابنته غير أنه كان أحد أبناء العمومة، وفي أسرتهم هناك نظام محدد للزواج بناء على القرابة والترتيب الأقرب يتزوج ابنة العم الأكبر، وهكذا كان نصيب أروكا هو عرفات، وتقبله جده على مضض. كان يعمل في أسوان فارسا. مدربا للخيول في أحد الفنادق الكبرى، هو نفسه كان كالحصان الجامح. يغيب أياما ويعود أياما وكان الشيخ يهابه أكثر مما يهاب الجميع. لم يكن عرفات يريد أن تصبح أروكا شيخا؛ غالبا لأن رجلا مثله لا يقبل أن تكون زوجته أقوى منه في أي اتجاه. أنجبت أمه ناندو وبعد عامين بالتحديد نقل جده إليها المشيخة في حياته، بعدها بأيام قليلة رحل أبوه إلى أسوان ثم إلى فرنسا غضبا من أروكا طبقا لما حكته له في صباه. بشير يفتقده حتى اليوم، حاول في القاهرة بناء على اقتراح من نور أن يسأل عنه من خلال السفارة عدة مرات. دائما كانت محاولته تنتهي عند الحارس الواقف على البوابة بورقة يعطيها له فيها اسمه بالكامل ورقم هاتفه، ثم يعود

بعد أسبوع ليخبره أنهم لم يجدوا شيئا عنه. حاولت نور أن تقنعه بالاستمرار في المحاولة لكنه يَأَسَ، أجابها بأن آباه القديم قد اختفى تماما من الحياة، غالبا ما سيكون اسمه تبدل باسم فرنسي. الأكيد أن أباه فعل ما يتمناه هو الآن، تمرد على وطنه وبحث عن وطن آخر يتبناه ويمنحه حياة جديدة تختلف عن حياته هنا. أصبح فرنسيًّا وأصبحت دجا بالنسبة إليه تاريخا قديما يتذكره فيتنهد وهو يحتسي كوبا من النبيذ الفرنسي، ويتساءل عن أحوال زوجته وأبنائه دون أن يفكر في حتى في مجرد السؤال عنهم. هكذا انتهت تماما أروكا زوجة عرفات وظهرت ابنة عثمان مكانها؛ امرأة أخرى تملك قلبا وعقلا جديدين، أو ربما تملك عقلا جديدا لكنها بلا قلب. وها هي الآن تفقد عقلها رويدا رويدا لتتحول إلى جسد خاوٍ لا يوجد في داخله أي شيء!

* * *

توجه إلى غرفة أخيه وفي صدره ما يريد أن يخرجه، خطر له للحظة أن أروكا تتمارض، وأن هذه هي الخطة التالية الموضوعة بالاتفاق بين أمه وشهلي لكي يبقى هناك ولا يرحل مرة أخرى. لكنه يعرفها جيدا، طالما رآها تكذب لتظهر قوتها.. ولكنها لن تكذب لتظهر ضعفها، بدا ناندو غاضبا لأنه اتهمه بالجنون إلا أن بشير أكد له أنه لم يقصد ذلك، قبَّل رأسه فَلانَ قليلا، لم يظهر حماسا للحديث معه إلا عندما بدأ يحكي له ما حدث مع الشيخ بصوت حزين.

ألا ترى أنها تستحق ذلك؟

صدمه ناندو بذلك السؤال، خرج منه بتلقائية تحمل مسحة من

الشماتة كانت كافية ليدرك بشير أنه كان يعرف، لابد أنهم جميعا يعرفون ويتظاهرون بالعكس، لا أحد يجرؤ على أن يصرح بأن الشيخ أصيب في عقله، أي شيء يفعله أو يقوله يمكن أن يوصف أمر علوي لا يفهمه الآخرون، وسيصبح القائل متهما على الفور، داعو قال إن الشيخ لايمرض ولا يعتل، حكم عليه بنزع المشيخة في تلك الحالة؛ لأنه كان يعرف أن ذلك يعني أن من حوله فشلوا في الإبقاء عليه كهيكل مقدس. هنا فقط ينبغي عزلهم جميعا، لم يحدد من يعزله لكنه بالتأكيد كان يعني من استطاعوا إثبات العلة عليها. لم يستطع أن يحدد مشاعره تجاه شقيقه في تلك اللحظة. لكن ما طغى عليه تماما كان شعوره بالشفقة تجاه أمه حتى ولو كانت مذنبة.

لاحظ ناندو تغيرا في ملامحه فاقترب منه، بدأ يشرح له وجهة نظره فيما يحدث مدافعا عن نفسه، الجميع هنا يعيشون على الظلم ولهذا يبتليهم الله بالمصائب واحدة تلو الأخرى لا سيما أمه. بدأ يعدِّد ما أصابها من رحيل زوجها وعلاقتها بأختها ثم موت جده وما حدث لناندو نفسه، ثم قرار بشير بالرحيل عنها إلى الأبد. تعجب عندما لاحظ أنه اعتبر أن مرضه هو من البلايا التي أصيبت بها أمه، وتعجب مرة ثانية عندما وجده قد قرر أنه راحل لامحالة وهو جالس في مقابلته، سأله عن الأوراق التي أخذها من حجرة عثمان، كانت لم تزل في حوزته، أصر على أن يقرأها على الفور قائلا:

ـ لكيلا تحزن عليهم.

فتح بشير الأوراق على مهل، أضاء ناندو المزيد من الأضواء ليسمح له بقراءة الخط المتآكل، ثم جلس القرفصاء في مواجهته

كما لو كان يراقبه. كان الورق من ثلاث نسخ؛ النسخة الإنجليزية الأصلية بدت كما لو كانت مخطوطة أثرية، ورقها أكثر اصفرارا ومكتوبة بخط الآلة الكاتبة القديمة الرفيع الذي يراه بشير دائما أكثر غموضا. لم يكن يحتاج إلى معجم لمعرفة أن النسخة الثانية هي ترجمة حرفية للوثيقة الإنجليزية التي حملت أختاما باللغتين وتوقيعات لم يعرف عنها شيئا، أما النسخة الثالثة فكانت تكرارا للنسخة العربية الأخرى إلا أنها بدت له كما لو كانت نسخة (المذاكرة)، خطوط تحت بعض السطور باستخدام أقلام متنوعة وكلام صغير في الهوامش وتقسيمات تشبه ماكان بشير يفعله في كتب الكلية، بدأ يقرأ باهتمام.

أصيب بشير بحالة من الاشمئزاز وهو ينقل عينيه بين السطور،

المكتوب هو تعليمات لرجل بدا مختلّا تماما، يتحدث عن تجربته مع عبيد في مزرعته في الهند ثم في إنجلترا، الفكرة الرئيسية لديه كانت في أن أفضل طريقة للسيطرة على العبيد هي التفرقة بينهم جميعا بناء على أي نوع من الاختلاف بينهم وجعله أعمق وأكبر كان من الطبيعي أن يرى ذلك الخطاب مجرد حفرية لرجل مختل يبدو من لغته أنه عاش منذ قرو ، إلا أن ما أثاره هو العلامات التي على الهوامش؛ لاسيما سطرا مكتوبا فيه:

لقد أوجزت عددا من الاختلافات بين العبيد؛ فلتأخذ هذه الاختلافات، وتجعلها أكبر

إلى جواره رسم بقلم أسود باهت خطّا واحدا يتفرع إلى خطين كتب تحتهما (السهالك والأجواش)!

ترك أصل الخطاب وبدأ يقرأ المكتوب في الهوامش؛ أسهما صغيرة تخرج بأسماء متتالية. هذا خط جده على الأرجح، تغير مقاس الخط ودرجة وضوحه وارتعاشه بمرور الأعوام. كان خطه صغيرا في البداية، ثم أصبح كبيرا، ثم صغر مرة أخرى، ثم ارتعش! رأى اسم أروكا وأودا وشهلي. وأبيه وأسماء سمعها ويعرفها، وأخرى سمعها ولا يعرفها.. وكانت الكلمات تتوالى:

الأساليب، العبيد، الاختلافات، مخطط، انعدام الثقة، التملق. النفاق، السيطرة، الاستعباد. كل الكلمات سيئة السمعة مكتوبة على التوالي في صفحة واحدة، سطور بعينها كادت تقتلع عيني بشير من مكانهما.

اجعلهم يروْك إلها ينتظرون رضاه لا شيخا ينتظرون فعله، حافظ على عزلتهم، كل من يأتي من خارج البلدة بكلام جديد خائن إلى أن يصمت أو يرحل مرة أخرى، حاصرهم بالخوف واجعل أمانهم بين يديك، اخلق عدوّا من الأغبياء الطامعين الذين سيفعلون كل ما تستفزهم لفعله، اقتل واحدا من أهلك بيدك لتقتل مائة من أعدائك، إياك أن تقضي على خصومك بالكامل فهم الشرارة التي ستساعدك دائما على أن تشعل النار، اغرس فيهم شعورهم بالذنب ليتمردوا على أنفسهم لا عليك أنت، الجهلاء والحمقى أكثر وأطوع فاخلق رجالا منهم يخاطبونهم بما تريد على قدر عقولهم. اجعل المتمردين أفرادا ولاتحاسبهم على ما يقولون، ارمهم بالكفر والجنون والزنا واتركهم بين الناس ليفعلوا فيهم ما يشاءون.

توقفت أنفاس بشير وهو يردد بغير وعي:

ـ جدك كان يعمل هنا إلها للشر.

أومأناندو برأسه مؤمِّنا وهو يقول:

ـ أرأيت؟

قلب بشير باقي الأوراق على عجل. كلها أوراق تعليمات ومخططات بلغات مختلفة مصحوبة بترجمتها. من أين كان يأتي بها؟ أفلتت منه زفرة طويلة تحمل دهشة وتكذيبا في آن واحد، عثمان كان له من يعلمه، وكان تلميذا نجيبا حتى إنه طبق ذلك على ابنيْه فترك بينهما كراهية لن تنتهي، هَزَّ رأسه وهو يلوم نفسه على المبالغة عندما بدأ يتخيل أن جده كان يذهب ليتلقى التعليمات ويتم تدريبه على ما سيفعله، هَزَّ رأسه مستنكرا وهو يتساءل ساخرا عمن يحتاج إلى أن يتحكم في دجا. التفت إلى ناندو ليسأله عن باقي المفاجآت التي تحملها صناديق عثمان وعن رأيه في المكتوب هنا، لكنه لم يجب.

أتته أنفاس ناندو منتظمة في عمق شديد وزفرات متتالية، أطفأ الأنوار مشفقا عليه رغم رغبته الملحة في أن يسأله عن الكثير. قرر أن يحاول النوم، كان ما عرفه أكثر من أن يتحمله يوم واحد. لم يرد الذهاب إلى غرفته، رقد على الأرض إلى جوار سرير أخيه بعد أن اكتفى بما رآه وأغمض عينيه محاولا الاسترخاء، توقع أن تأتي أحلامه لتكمل كل ما حدث في ذلك اليوم، إلا أنه لم يكن يعرف أن المزيد سيأتي سريعا.

# (١٨)

قضى بشير ليلة قلقة مليئة بالكوابيس، كل من يعرفهم تقريبا حُشدوا في أحلامه متصارعين وهو يراقبهم بصمته المعتاد، قتلت أودا أختها وقتل شهلي جنة ومات ناندو من كثرة الصراخ، ظن أنه مازال يحلم عندما استيقظ على أصوات صراخ وصياح تأتي متداخلة لا يستطيع تميز فحواها، قفز فزعا بحثا عن أخيه فلم يجده، نزل مسرعا ليجد الجميع في المضيفة. كانت أودا تلطم وجهها، وشهلي يردد تمتمات غير مفهومة وأمه هادئة تماما على غير الليلة السابقة. أما ناندو فقد كانت على وجهه ملامح التوتر والشماتة والخوف مجتمعين.

اقترب من ناندو هامسا:

ـ ما الذي حدث؟

أجابه في عصبية:

ـ اللعنة تقترب. وبالطبع أنا أول من ستصيبه..

نظر بشير إليه مستفسرا، جاء الرد على لسان شهلي:

ـ عسلية اختفت منذ الفجر. بحثنا عنها في كل مكان، بعض شباب

القرية أخبرونا أنهم رأوها تتجه نحو مبنى العزل، عندما ذهبنا إلى هناك وجدنا مصيبة..

صمت للحظة فاستعجله قائلا:

ـ ماذا وجدتم؟

نظر إليه شهلي وعلى وجهه أمارات الفزع وهو يجيب بصوت مرتعش:

ـ وجدنا الباب مفتوحا وقد اختفت السلسلة الحديدية التي كانت على بابه.

سأله بشير باهتمام:

ـ وهل بحثتم عنها في الداخل؟

هَزَّ رأسه نافيا وهو يجيب:

ـ لم يجرؤ أحد على أن يدخل، أنت تعرف أن الوباء يسكن في ذلك المبنى..

أشاح بشير بيده في استياء وهو يتحرك في اتجاه الباب:

ـ أنا سأذهب لأبحث عنها في داخله.

استوقفه شهلي وهو يصيح محذرا:

ـ انتظر يا ولدي.. لاتذهب.

نظر إليه بشير في غضب وهو يقول:

ـ أنا لست خائفا.. حتى لو كان ذلك المبنى قد حمل في داخله

وباء في يوم من الأيام، لا يمكن أن يظل موجودا فيه إلى الأبد، هل تريدون أن تتركوا طفلة صغيرة دخلته بالخطأ دون أن تحاولوا إخراجها؟

صمت للحظة ثم تابع:

ـ ألم تحاولوا حتى أن تنادوا عليها من الخارج؟

هَزَّ شهلي رأسه نافيا. قال له بشير في حدة:

ـ ألم تفعلوا أي شيء؟ أنتم لستم بشرا..

ولولت أودا وهي تصرخ:

شهلي فعل شيئا يا بشير.

نظر إلى شهلي في شك.

جاء الرد من أودا مرة ثانية:

ـ أغلق الباب، ووضع قفلا وسلسلة بدلا من التي اختفت.

أمسك بشير بتلابيب شهلي بعنف وهو يصيح:

ـ ألم تترك لها الفرصة حتى لتخرج لو أنها في الداخل؟

نكس شهلي رأسه وهو يقول بصوت خافت:

ـ حتى لو خرجت يا بشير؟

ـ حتى لو خرجت؟ ماذا تعني يا شهلي؟

رفع رأسه وهو يقول بثبات:

ـ سيكون لزاما علينا أن نقتلها بأيدينا يا بشير لكيلا تنشر الوباء. هذه أوامر داعو..

إلا إذا..

ـ تكلم..

ـ إلا إذا خرجت بكرامة خاصة.. فالمعجزات أقوى من اللعنات.



تجاهل بشير هذيان شهلي، بَدَّلَ ملابسه في ثوانٍ معدودة وخرج يجري في اتجاه المبني، الطريق إليه شبه مهجور. نباتات شيطانية وأشجار شائكة، كل من في الداخل خرجوا وراءه. تبعهم العشرات من أهل القرية الذين كانوا قد تجمعوا أمام المشيخة عندما سمعوا بالمصيبة.

وقف ينظر إلى الباب المعدني الضخم.. عليه سلسلة جديدة لامعة وقفل ضخم، التفت إلى شهلي بغضب وهو يقول:

ـ المفتاح.. أين المفتاح؟

هَزَّ شهلي رأسه في إصرار:

ـ لن أعطيه لك، دعها يا ولدي تلاقي مصيرها ولا تؤذنا جميعا..

دفعه بشير غاضبا فأسقطه في عنف، أدار عينيه في أرجاء المكان، كان يشعر بغضب شديد أقوى كثيرا من خوفه، وكان يتساءل في دهشة عمن جرؤ على فتح ذلك الباب، توقف فجأة عندما لمعت الفكرة في رأسه. عاد إلى شهلي الذي كان لايزال جالسا في الأرض ينظر إليه في ترقب، أمسك بشير برأسه وهو يسأله:

ـ أين باركلي؟

بدت في عيون شهلي نظرة استفسار، تابع بشير:

ـ الشيخ بارك.. هل هو عندك؟

هَزَّ شهلي رأسه نافيا وهو يقول:

ـ لا أدري.. كان عندي لكنه أخبرني أنه يريد أن يتجول في البلدة.. ولم أره من ذلك الحين.

خرجت تنهيدة ارتياح من بشير لم يفهم شهلي مصدرها، بدا أكثر هدوءا وهو يفتش بعينيه إلى أن وقعتا على قطعة حديدية، وضعها في منتصف القفل والتقط حجرا كبيرا وأخذ يدق عليها.. مع كل دقة كان صراخ الواقفين يتزايد. ميز من بين الأصوات صوت الشيخة جنة التي أخذت تصرخ:

ـ ابن أروكا عاد بالشر على الجميع، هل رأيتم؟ ألم أقل لكم؟

زاد هياج الواقفين وهي تردد ما قالت، كان لما تقوله ثقل كبير في عقول الجميع، حتى بشير زاد توتره من صوتها، التفت إليها صائحا:

ـ اصمتي.

لكنها لم تصمت، التقط حجرا أصغر من الذي في يده وألقاه عليها فشجَّ رأسها فأخذت تصرخ والدماء تسيل منه، لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه، تأكدوا من جنونه فتراجعوا، ومع الدقة الأخيرة التي كسرت القفل زاد الهياج كثيرا، وعندما بدأ بشير يفتح الباب على مصراعيه. انطلق الجميع مبتعدين، حتى جنة. أخذت تجري

والدماء تسيل من رأسها، بينما كان بشير مشغولا تماما بالعالم الذي وجده أمامه، لم يتنبه إلا على صوت الباب المعدني الذي يغلق وراءه.. التفت ليري شهلي يجذبه بكل ما أوتي من قوة، ثم سمع صوت قفل معدني يغلقه من الخارج، أتاه صوت شهلي مرتعشا:

- إذا كنت حفيد داعو حقًا فستأتيك المعجزة، وستعرف طريق الخروج.

## (١٩)

وقف بشير ينظر إلى القاعة الرحبة التي فتح عليها الباب، كانت أناقتها التي لم تخفها أكوام التراب المتراكمة واضحة. سقف عالٍ ونوافذ ضخمة مرتفعة، وأرضيات خشبية. ضوء النهار يبدو أدكن في الداخل من جراء التراب الذي يغطي نوافذها، لكنه كافٍ لترى جيدا بعد دقائق معدودة. لاحظ آثار الأقدام الموجودة والتي تتجه نحو السلم العريض. آثار أقدام كبيرة إلى جوارها آثار صغيرة تبعها بشير وهو يتمنى أن يكون ظنه في محله.. نادى بصوت جهوري مليء بالخوف:

ـ عسلية..

لم يأته رد، صعد إلى الدور الثاني، وجد أمامه أبوابا متعددة. تابع السير خلف الآثار التي انتهت أمام غرفة بعينها. لم يندهش على الإطلاق عندما فتح الباب ليجد أمامه ما كان يتوقعه، كان باركلي جالسا على مكتب خشبي أنيق، وعلى الأرض كانت عسلية جالسة تلعب بعروس خشبية، ترتدي جلبابا زاهيا أحمر اللون يمنحها بهجة في غير موضعها، تنهد بشير بارتياح بينما ابتسم باركلي وهو يقول في هدوء:

ـ مرحبا يا شيخ بشير. تفضل.

ألقى بشير بجسده على المقعد الجلدي الذي يشبه المقاعد الموجودة في المشيخة، لاحظ أن الغرفة نظيفة تماما إلا من آثار أقدامهم. نظر إلى باركلي مستفسرا:

ـ ما الذي يحدث هنا؟

أجابه باركلي بهدوئه المعتاد:

ـ لا شيء. مرحبا بك في غرفة مكتبي.

تلفت بشير حوله مرة ثانية، كان ما حوله هو مجرد غرفة مكتب أنيقة. لا شيء أكثر من مكتب وبضعة مقاعد ومكتبة ضخمة فارغة تماما، بدا بشير كما لو كان يحادث نفسه وهو يقول:

ـ مبنى العزل؟!

ضحك باركلي وهو يقول:

ـ قلت لك ولم تصدقني.

أجابه بشير بحسرة:

ـ لم أعد أعرف ما أصدقه.

رفع شهلي سباباته مشيرا إليه وهو يقول:

ـ الأمر بسيط. لا تصدق إلا ما تراه عيناك.

هَزَّ بشير رأسه في استسلام:

ـ صحيح.

مط باركلي شفتيه للحظة ثم قال ضاحكا:

ـ لا. ليس صحيحا، بل لا تصدق حتى كل ما تراه عيناك. ما الذي رآه الناس منذ قليل؟ أنت تدخل هذا المبنى ولا بد أن شهلي حاول أن يمنعك. أليس كذلك؟

أجاب بعصبية:

ـ ليته منعني فقط، شهلي أغلق عليّ الباب من الخارج.

أطلق باركلي ضحكة هادئة وهو يقول:

ـ ذلك الثعلب. مازال يدهشني. عموما هذا ما رآه الناس، أما الحقيقة فمختلفة تماما..

نظر إليه في حيرة:

ـ ماذا تعني؟

أشار إليه ليقوم، أخرج من جيبه قطعة كبيرة من الشيكولاتة وهو يقول لعسلية:

ـ سأذهب مع بشير لأريه شيئا. انتظرينا هنا يا صغيرة.

نظرت إليه عسلية وعلى وجهها مسحة من الخوف، تجاهلها باركلي وهو يمسك بذراع بشير، ذاهبا به إلى الغرفة المجاورة التي بدت كما لو كانت نسخة من الغرفة الأخرى وهو يشرح:

ـ كل الغرف هنا متشابهة. نفس المساحة والأثاث، أتت من إنجلترا في شحنة واحدة منذ عشرات السنين.

ثم خبط على المكتب براحة يده وهو يقول:

ـ صناعة إنجليزية ممتازة.

أردف بعدها:

ـ هناك فارق واحد بين الغرفتين. هل لاحظته؟

هز بشير رأسه نافيا. أشار باركلي إلى باب صغير في جانب الغرفة، قبل أن ينطق بكلمة واحدة كان الباب قد انفتح على مصراعيه ليدخل منه جسد يعرفه بشير جيدا، اتسعت عيناه دهشة وهو يرى شهلي ينحني أمامه في احترام:

ـ أوامرك يا شيخ بشير!

نظر بشير إلى ما خلف الباب المفتوح فوجد سلما آخر. سأل باركلي في حيرة:

ـ سرداب؟

أجاب في بساطة:

ـ لا ياولدي. سلم العمال والخدم، وسلم الحريق في الطوارئ. لا دهليز ولا سرداب.. أنت طبعا كان لا بد من دخولك من المدخل الرئيسي.

ـ ماذا تريدون مني؟

فتح شهلي فمه ليجيب، أسكته باركلي بإشارة من يده وهو يجيب:

ـ كراماتك يا شيخ بشير! نحن نساعدك، أنت قبلت المشيخة،

هل تعرف عدد من سيريدون قتلك إذا أصبحت أنت بكل ما قيل عنك شيخا؟ الطامعون والكارهون والحاقدون عليك كثيرون. لا أحد يراك تستحقها حتى أنت شخصيًا، الكل سيطلب رأسك؛ السهالك والأجواش وأودا وناندو!

ردد في استنكار:

ـ ناندو؟

هز باركلي رأسه في تفهم:

ـ أعرف أنه أخوك ويحبك وتحبه، لكن صدقني عند النقطة التي تقف أنت عندها الآن لا يمكنك أن تثق بأي مخلوق.

ـ لم أعد أثق حتى في نفسي، على أي حال الاتفاق أن تساعدوني على أن أرحل بعد الأيام المائة وأتركها لهم جميعا.

علق شهلي معترضا:

ـ يا ولدي لا تكن عنيدا، أنت ستكون..

أسكته باركلي مرة أخرى بنظرة غاضبة هذه المرة.. ثم أجاب بنفس النبرة الهادئة.

ـ سأساعدك على الرحيل كما قلت لك، لكن لترحل حيًا لا بد أن تطيعنا، البداية ستكون في أن تصبح شيخا حقيقيًا. يجب أن يهابك كل الطامعين فيك وفي ضعفك وترددك. يخافونك ويتمنون رحيلك بغير أن تؤذيهم. أنت الآن في وسط البحر يا بشير، والسفينة الوحيدة التي ستنقلك إلى البر هي أنت تكون شيخا قويًا يهابه

الجميع مثل جدك. أي طريق آخر ستحاول أن تسلكه سيؤدي بك إلى الغرق.

ـ وسنغرق جميعا معك يا ولدي.

قالها شهلي فنظرا إليه في آن واحد غاضبيْن، فآثر الصمت. تابع باركلي:

ـ لا بد أنك تعرف أن دخولك إلى هنا اليوم فتح بوابات اللعنة على أهل البلدة.. جميعهم الآن في بيوتهم يرتجفون خوفا من الآتي، ويفكرون في قتلك أنت وعسلية بمجرد خروجكما من هنا؛ لأن هذا هو المخرج الآمن الوحيد في عيون الجميع..

نظر إليه بشير في توتر:

ـ ولماذا فعلتما ذلك؟

أجاب باركلي بثقة:

ـ هذه البداية لتصبح شيخا حقيقيًا. هنا المصنع يا بشير كما قلت لك. نصنع الشيخ بكل ما يحتاجه، اليوم نحن صنعنا الكارثة التي يخاف منها الجميع الآن،الوباء واللعنة والطفلة الصغيرة التي فتحت أبوابها. من يستطيع أن يرفع عنهم كل هذه المصائب دون أي أضرار إلا رجل جدير بالمشيخة؟ حفيد حقيقي من أحفاد داعو..

نظر إليه بشير ساخرا:

ـ ألست أنت داعو؟

التفت شهلي إلى باركلي في دهشة، أشار إليه باركلي في برود:

اذهب إلى الغرفة الأخرى يا شهلي. اجلس مع عسلية وطمئنها.

تحرك شهلي بدون تردد، نظر باركلي إلى بشير مبتسما وهو يقول:

ـ شهلي هو خادم الشيخ، يجب ألَّا يعرف أكثر مما يحتمل عقله، أنا أقنعته بصعوبة بأنه لاتوجد لعنة هنا، لا تتحدث أمامه بحرية ولا تفسد إيمانه بنا.

أجابه بشير:

ـ إيمانه بنا؟! هل صدقت أنك داعو بالفعل؟

هز رأسه مؤكدا وهو يضحك بأنفاس متقطعة:

ـ ليس بالضبط. أنا صاحب الفكرة، صنعته لأجعل من جدك شيخا كما سأفعل معك الآن، وأنا الذي أعطيته الاسم في هذه الغرفة بالتحديد، كان عندنا طباخ يسمى عبد البديع، وكانت زوجته تناديه داعو. كلما سمعتها تناديه كنت أشعر أنها تعوي كالذئاب، أحد الزملاء هنا قال إن الاسم يبدو كما لو كان من أسماء الجان، من هنا جاءت الفكرة.. وقد نجحت وصدقوه.

ـ أنا لم أصدق.

ابتسم باركلي:

ـ أنت طفرة يابشير. هل تذكر أنني أخبرتك عن الانتحار الذي انتشر هنا؟ هل تعرف سببه؟

نظر إليه في ترقب فتابع وهو يقول بصوت خافت:

ـ اتضح لي بعد سنوات من البحث أن الطريقة التي اخترنا بها

سكان دجا والمبنية على الطاعة الكاملة لم تأتِ لنا بجنود عاديين، الطاعة الآلية التي حدثتك عنها ثبت بعد ذلك أنها عرض من أعراض الأمراض النفسية. الفصام والاكتئاب والجنون كلها قد تخلق طاعة عمياء ويكون ذلك هو عرضها الأول. يختلف الأمر عندما تطيع طبقا لإيمانك بدين ما، أو إيمانك بأنك جندي لا بد أن يطيع من أجل وطنه. أما أن تؤمن وتطيع أشخاصا لا تعرفهم ولا تعرف عنهم شيئا، فهذا ما يجعلك مختلّا، أنا شخصيًا كان عندي فضول لمعرفة إذا ما كانت تلك صفة أم طبعا متوارثا، تمنيت أن أرى ما سينتجه ذلك المجتمع بعد أن يرحل جيله الأول. يبدو لي أن الأمر وراثي، عثمان جن في آخر أيامه، وأمك أصيبت بالزهايمر مبكرًا حتى ناندو وأودا ليسا سويين، أنت العاقل الوحيد في نظري هنا، وهذا ما يجعلك مختلّا في نظر الجميع. أنت الطفرة فيما يحدث؛ ولذلك يجب أن تساعدني لمعرفة ما سيحدث في وجودك. هل ستصلح عقولهم، أم سيفسدون عقلك؟ لم أتوقف عن الاتصال بجدك إلى أن مات، ثم بشهلي من بعده؛ ولهذا عندما طلب أن آتي من أجل مساعدتك لم أتردد. فرصتي الأخيرة لأستكمل بحثا قد تُفيد من سيأتون من بعدك وبعدي.

أجابه بشير في استياء:

ـ لترى بنفسك ما حدث لفئران التجارب

عارضه مدافعا:

ـ أنا لم أتدخل في شيء مما حدث قبل ذلك، كنت أراقب فقط.

لكني ـ كما قلت لك ـ يجب ألَّا أصدق حتى أرى بنفسي. وأنت بالنسبة إليَّ نموذج جيد للخروج عن القاعدة.

ابتسم بشير ساخرا وهو يقول:

ـ تريدني أن أصدق أنك هنا من أجل أن تساعدني وتدرس ما يحدث فقط يا مستر باركلي؟ قل لي إنهم أرسلوك استكمالا لعملك وأنا أصدقك.

مط باركلي شفتيه وهو يقول:

ـ أرسلوني؟ أنتم بلدة غير موجودة على الخريطة يا بشير، لاتهم أحدا غير أهلها. على أي حال سأقنعك، شهلي العجوز أذكى مما تظن. ودجا أغنى مما تظن.الاتفاق فيه مبلغ لابأس به من المال، قبضت نصفه والنصف الثاني سآخذه قبل أن أرحل بعد أن تصبح شيخا حقيقيّا. سيكون الأمر لك بعد ذلك.ترحل أو تبقى ملكا في هذا المكان، كما تريد. في النهاية سيكون الجميع فائزين. أنا أخذت النقود واستكملت مشروعي، وأنت أنقذت نفسك وأمك.

أردف بعد لحظة:

ـ وطبعا أنت الآن تفهم أن جلوسي أمامك في القطار لم يكن مصادفة!

هز بشير رأسه في اقتناع:

ـ دعك من مشروعك. أنت هنا من أجل النقود التي ستأخذها، الآن أصدقك.

ابتسم باركلي في برود:

- جميل.

سأله بشير في حدة:

- قل لي ما الذي يحدث الآن؟

نادى باركلي على شهلي ليأتي، جلسا أمامه وهو يشرح لهما (خطة الخروج)، لم يكن لدى بشير أي اختيارات سوى أن يقبل بما قدمه إليه باركلي، كان يعرف أنه لن يخرج من ذلك المبنى بدون أن يذعن للخطة التي وضعها الإنجليزي العجوز وصدَّق عليها شهلي. تردد كثيرا إلا أنه قال لنفسه على غير الحقيقة إنه لابد أن يفعل ذلك من أجل عسلية الطفلة الصغيرة التي لا ذنب لها سوى أن شهلي رأى فيها نموذجا جيدا للعقدة التي يريد باركلي أن يصنعها. اندهش بشير من نفسه عندما شاركهم اللعبة. كانا يتناقشان في المشكلة التي لم يعملا لها حسابا.. عندما تخرج عسلية من المبنى مع بشير وتعود إلى أسرتها وتخبرهم بأنها دخلت مع شهلي ثم وجدت في الداخل رجلا عجوزا تراه معه، سخر بشير من حيرتهما وهو يقول:

- كل شيء هنا يحله الجان، كل ما عليكم أن تخبروا الجميع أن جنيًا تمثل في صورة شهلي ليأخذ الصغيرة إلى الداخل، وكل ما ستحكيه عما حدث هنا ستقول إنه من الجان.

هزا رأسيهما في إعجاب متزامن، أصر شهلي على أن إتمام الأمر يستلزم حرق المبنى، فهو يعرف جيدا كم الخوف الذي حمله

أهل دجا في قلوبهم من ذلك المبنى وفي قلبه هو شخصيًا، وافق باركلي على مضض، في النهاية المكان بأكمله لا يعني له شيئًا، فكر قليلًا ثم أردف:

ـ لا داعي لحرقه بالكامل. يكفي أن نحرق الأثاث في غرفة واحدة، وأشيعوا أن المبنى احترق، سنحتاجه.

سأله بشير في لامبالاة:

ـ للذكرى؟

ضحك باركلي وهو يقول:

ـ لا، سيتحول إلى مصنع مرة أخرى. مصنع الشيخ بشير، أول مصنع في دجا.

قال شهلي مستفسرا:

ـ وما الذي سينتجه هذا المصنع؟

ضحك باركلي وهو يجيب بثقة:

ـ هنا صنعنا دجا، وصنعنا الشيخ عثمان.. والآن نصنع الشيخ بشير.

سأله بشير في ترقب:

ـ ألا يوجد واحد ممن حضروا صناعة دجا وعثمان حيٌّ غير شهلي؟

أجاب باركلي وهو يهز رأسه استحسانا:

ـ ولا حتى شهلي يا بشير، هو أيضا وافد، توالى موتهم بأسباب غامضة أثناء حكم عثمان..

* * *

لم يمضِ وقت طويل إلى أن وقف شهلي في السوق في نفس اللحظة التي كان رجاله يحرقون فيها المبنى، نظر إلى الدخان المتصاعد إلى السماء وهو يصيح بابتهاج:

ـ فعلها الشيخ بشير

ثم انطلق يجري بكل ما تسمح به سنوات عمره في اتجاه المصنع، جرى خلفه عدد من رجاله بناء على أمر سابق تلقوه، انضم العشرات إلى القطيع دون أن يفكروا حتى في اللعنة المزعومة. كان المشهد أسطوريًا؛ بشير يقف بقوامه الممشوق حاملا الصغيرة بين ذراعيه وهو يتصبب عرقا أنتجته الحرارة رغم برودة الجو، خلفه المبنى وقد تصاعدت النيران من سطحه ومن نافذة الغرفة التي كانت عسلية تجلس فيها منذ قليل. وقفوا جميعا ينظرون في صمت منتظرين ما سيقوله شهلي، لكنه لم يتحرك انتظارا لتوافد المزيد من أهل البلدة الذين لم يخذلوه، تحقق له العدد الذي كان يرجوه فاقترب من الباب الضخم المغلق بالسلسلة والقفل ثم بدأ في الصياح:

ـ بركة الشيخ بشير.. خرج بالصغيرة من الباب المغلق!

انحنى أمامه في إجلال وخشوع بدوا حقيقيّين لبشير، لكن هذه المرة اختلف الأمر، شهلي لم ينحنِ وحده بل انحنى معه كل

الواقفين في المكان، حتى جنة التي اقتربت من السلسلة والقفل لتتأكد من أنهما محكما الإغلاق، وعندما وجدت السلسلة تامة وقفت تحدق في بشير في ذهول، لم تنحنِ مثلما انحنوا لكنها لم تعترض عليه كما اعتادت أن تفعل، بل قالت بصوت خفيض:

ـ وونور ستروجي! إلى أين ستأخذنا يا بشير؟

ابتسم بشير رغما عنه وهو يسمعها تطلب ستر الله قلقا منه، كانت هذه هي المرة الأولى تقريبا التي تناديه فيها باسمه.. وعندما طالت انحناءاتهم أمامه شعر بشيء من الراحة، عاتب نفسه للحظة على الابتسامة وعلى شعور الراحة لكنهما لم يتغيرا، خدعة يستحقونها، ما الذي أخذه من هؤلاء عندما كان صادقا معهم؟ لا شيء، ترددت في أذنيه كلمات هلال: هذا هو القطيع أمامه مستسلم، يقودهم كلب الراعي كما وصفه خاله.. أما من أصبح الراعي فقد كان لم يزل في حيرة من أمره، لكنه لا يملك أي اختيارات.. على الأقل حتى هذه اللحظة!

ظلت النار مشتعلة لما يقرب من يوم كامل، لم يعرف بشير أن رجال شهلي هم من كانوا يشرفون عليها، يزيدونها تأججا فوق السطح الأسمنتي وفي الغرفة التي اختارها باركلي، ويمنعون انتشارها في باقي المبنى بجرادل الرمال والمياه. لم يحاول أحد أن يقترب أو يطفئها، بل انصب اهتمامهم على إطفاء ما يتطاير من النيران ليلا إلى الأشجار القريبة لكي لا تسرح النار في القرية، دون أن يعرفوا أ النار التي كانت تطير لمسافات بعيدة كانت تصنع وتقذف بمنجنيق بدائي في اتجاهات محددة لتزيد من

حروف الجميع، انشغلوا بها عن مصدرها، ثم قضوا ليالي يرقصون ويحتفلون بانتهاء لعنة ذلك المبنى لكنهم ظلوا يحملون في عقولهم شيئا من الخوف من انتقام قد يحدث من روح أو اثنين لم يحترقا مع ما احترق. الوقت الطويل الذي مر وألسنة اللهب المرتفعة في السماء كانت كافية ليراها كل فرد في البلدة، وليسمع القصة المهولة عن بشير الذي أنقذ الطفلة من براثن الأرواح التي أرادت أن تأخذها إلى حيث لا يعلم أحد. انتهى الأمر بإعلانين. أن الشيخ بشير أظهر كرامة كبرى وأن احتفال استلامه المشيخة سيكون في الأسبوع القادم، حاول بشير أن يتعايش مع الخدعة التي شاركهم فيها، كان يكتفي بسؤال واحد:

ـ هل تأذى أحدا؟

تهتز الرءوس نافية فيتنهد هو بارتياح مصطنع، رغم أنه في الحقيقة لم يهدأ ولو للحظة واحدة.

(٢٠)

للنفس البشرية قدرة خارقة على التأقلم مع الأوضاع الجديدة لاسيما وإن كانت مريحة، حدث ذلك مع بشير في الأيام التالية بعد الإعلان عن كرامته وعن اقتراب يوم العهد. تعامل مع مركزه الجديد في قلوب الناس بثقة زرعوها في صدره بإجلالهم المبالغ فيه. أصبح يمشي بين الناس ويتقبل كل ما يقدمون عليه من أفعال مختلفة حتى وإن احتقر بعضهم في سره وعلانيته أحيانا. أيام قليلة فقط هي التي لم يحاول فيها أن يخرج من المشيخة هربا من تأنيب الضمير الذي كان ينتابه وهو يرى نفسه جزءا من خدع آل عثمان التي كان يمقتها، عندما أدرك أنها وسيلته الوحيدة ليصبح آمنا في بلدته تقبلها على مضض، اختفى رويدا رويدا. أودا أيضا تغير حالها معه، أصبحت أكثر لطفا، لم تتحدث معه في الأمر بل تجاهلته تماما وتعاملت معه بألفة لم يرها منه منذ عودته. حيرته كانت فقط لابتعاد ناندو عنه لدرجة أنه أصبح يغادر أي مكان يجمعهما، حاول أن يحادثه فأجابه باقتضاب:

ـ لم تخبرني أنك قبلت المشيخة.

ثم انتابته نوبة السكون التام إلى أن غادر بعد محاولات عديدة

معه لشرح الأمر، لم يكرر بشير المحاولة معه مرة أخرى. أصبح يراه وهو يخرج في كل يوم حاملا عصا ضخمة بعد أن قرر أنه لن يهدأ إلى أن يصطاد القرد الذي فرق بينه وبين أخيه، لم يرد شهلي أن يغضبه فأعلن أن القرد الفار يحمل روحا شريرة وعلى الجميع أن يبحثوا عنه، كان يظهر من آن لآخر كخيال يتحرك بين طرقات البلدة وفوق أسطحها فيدق الصفائح المعدنية وهو يقفز مصدرا صوتا كقرع الطبول فتنطلق شفاههم جميعا باستعاذات، استحسن باركلي الأمر عندما عرف به، أعلن أن انشغال الناس بذلك الأمر في الأيام التي تسبق العهد أفضل كثيرا من انشغالهم بالشيخ القادم من المدينة.

كان بشير يتألم وهو يرى أخاه يدخل في كل ليلة متسللا؛ لكيلا يراه أحد بعد أن فشل في معركته وعاد حاملا آثارها على جسده أو ملابسه، اشتكى لشهلي فقال له مبتسما:

ـ سنمسك به ونريح ناندو في الوقت المناسب.. هكذا قال الشيخ بارك.



انتصفت الأيام التي مرت للوصول إلى يوم العهد، كان بشير جالسا في غرفته يقلب في دفتره الصغير عندما وجد أودا تدق بيدها على باب غرفته وهي تصيح باستياء:

ـ تعالَ يابشير لترى خالك المجنون!

قام من فراشه متثاقلا وهو يسألها عما حدث، حكت له أن هلال

ظل يطرق الباب وعندما وجدها تفتحه جذبه مرة أخرى وأغلقه طالبا منها أ ، وعندما ذهب شهلي فعل نفس الشيء.. وبدأ ينادي عليه من تحت البيت:

ـ يا شيخ بشير..

نزل بشير وهو يبتسم في هدوء من أفعال هلال. جميل ذلك الرجل الذي يفعل ما يمليه عليه عقله بدون أي تحفظات، فتح الباب باحثا عنه لكنه لم يكن أمام الباب، كان واقفا على جانب الطريق مبتسما بطفولة طاغية حاملا هاتفه في وضع التصوير، أشار في اتجاه سيارته التي كانت تقف على بعد أمتار، أدار بشير رأسه تجاه السيارة وبدأ هلال في التصوير.

انقطعت أنفاس بشير تماما واختفى كل شيء من أمامه: هلال والسيارة والمنزل والأصوات، لم يعد يرى شيئا إلا تلك الابتسامة الواسعة الجريئة وملامح العتاب المختلطة بالحب على وجهها، وهي تقول بصوت عالٍ:

ـ هل كنت تظن أنني لن أجدك يا عم اللب؟ لو في آخر الدنيا، فسأعرف كيف أصل إليك.

ربما لو سأل بشير نفسه عما كان سيفعل، لو وجد نور أمام المشيخة في دجا لأجاب في اضطراب بأنه باختصار سيسقط مغشيّا عليه في صمت، لا تختلف حالة الذهول التي أصابته عن فقدان الوعي كثيرا. أفاق منها بعد لحظات وهو يصيح:

ـ أنت مجنونة.

الشعور الذي كان مسيطرا عليه تماما لم يكن الدهشة، بل السعادة الطاغية. تقدم إليها وهو لا يستطيع أن يتمالك نفسه من الضحك الذي اختلطت فيه كل مشاعره، مد يده ليصافحها، أشاحت بوجهها إلى الناحية الأخرى وهي تقول:

ـ لن أمد يدي. أنت نذل!

ـ أمي أيضا تقول عليه ذلك.

كانت هذه جملة عسلية التي اندست في المتصف بينهما وهي تنظر إلى نور في فضول، مالت نور عليها لتقبلها وهي تقول:

ـ آه والنبي يا بتي..

استعاد بشير المكان والزمان على دخول عسلية في المشهد، أدار رأسه ليجد هلال واقفا يأخذ عشرات الصور، زوجته الروسية العجوز تجلس داخل السيارة تلوح له ضاحكة وهي تبتسم في تأثر. شهلي يقف عند باب البيت، أودا وناندو رأسان يطلان من نوافذ البيت، رغم كل هذا لم يضطرب أو يشعر بالحرج. كانت اللحظة أجمل كثيرا من أن يفسدها على نفسه بأي شعور آخر، فكر للحظة في أن يجذبها من يدها ويأخذها بين ذراعيه في عناق طويل وهو يبكي معتذرا، لكن بحسابات بسيطة اعترف أن ذلك كان مستحيلا.

لكنه فعل مستحيلا آخر. أخذها من يدها وأدخلها إلى المشيخة بعد أن أزاح شهلي الذي أصابته حالة شلل لحظية من أمام الباب. الدهشة ليست من مظهر نور بالتأكيد، نور مجرد شابة مصرية عادية، تساءل دائما عما إذا كانت بشرتها بيضاء أم قمحاوية،

ترتدي الحجاب الذي يرتديه ثلثا بنات الجامعة. وقميصا واسعا وبنطلون جينز أزرق وحذاء رياضيًا، في دجا تأتِي أحيانا راقصات وأجانب يكدن يكن عاريات ولا يندهش أحد. لكن أن تأتي بنت قاهرية جميلة خلف شاب دجاوي فهذا مايرونه سحرا. تجاهلهم بشير جميعا وأجلسها في المضيفة، كانت تحدق في الأرض في صمت ربما متسائلة عن صواب ما تفعل. دخل هلال وزوجته وجلسوا معهما في المضيفة، مال على أذن بشير وهو يشير إلى زوجته:

ـ محرم!

عرف منهما القصة. نور جاءت مع رحلة الجامعة إلى أسوان بحثا عنه، من أول يوم وصلت فيه إلى الفندق سألتهم عن دجا. أخبروها أن هناك رجلا (دجاويًا) يتعامل مع المطعم. دلوها على هلال الذي لم يتمالك نفسه من المفاجأة عندما سألته عنه، طلبت منه أن يصف لها الطريق إلى دجا لتذهب في الصباح ورفضت تماما دعوته للذهاب معه. وطبعا هلال لا ييأس، في الصباح الباكر وجدته أمام الفندق معه زوجته وهو يريها صور جلسته الأخيرة مع بشير على هاتفه المحمول، ثم قدم لها بطاقته الشخصية حتى تتركها مع أصدقائها إلى أن يرجع مع ضمان موظفي الفندق له. باختصار قدم لها كل الضمانات الممكنة ليكون شريكا في تلك اللحظة الرائعة.

ـ أنت مجنونة.

كررها بشير مرة أخرى.

أجابت في حدة:

ـ المفترض أن تكون أنت من يبحث عني، وليس أنا

ـ أنت لا تعرفين ما أعانيه.

ضحكت بعصبية:

ـ نعم. عرفت من خالك، أنت الآن تختار بين أن تصبح العمدة أو أن تكون شخصا عاديًا، مسكين، عموما أنا لم آتِ من أجل سواد عينيك، معي لك أوراق مهمة! مدت يدها إليه بمظروف أبيض اللون لم يثر فضول بشير، أدرك أنه مجرد ذريعة تتخذها نور لتحفظ كرامتها.

أجاب دون أن يأخذه:

ـ الأمر أكبر من ذلك، يا نور.

ألقت نور المظروف على صدره وهي تقول:

ـ لا أكبر ولا أصغر يا بشير، الحياة اختيارات.هناك اختيار أول ثم اختيار ثانٍ ثم ثالث، ضع أنت اختيارك الأول. بعد ذلك كل الاختيارات التالية ستكون أسهل كثيرا. أنا هنا اليوم لأسلمك هذا الخطاب، ولتعرف شيئا واحدا، أنك اختياري الأول، جئت في رحلة مع الجامعة مع دفعة لا أعرف منها سوى صديقة واحدة والمشرفة، ونزلت أسأل في الفندق عن بلد مجهول وركبت سيارة مع رجل غريب حتى وإن كانت معه زوجته وصورك إلا أنني قرأت نصف القرآن في الطريق. لتعرف شيئا واحدا فقط، أنني أحبك، ولأعرف أنا شيئا آخر. أنني حاولت معك إلى النهاية، بعد ذلك..

أشاحت بيديها معا وهي تقول:

ـ في ستين داهية!

أشار إليها لتهدأ:

ـ يا نور الموضوع معقد.

هزت كتفيها وهي تقول:

ـ أنا لا يهمني، أنت أسمر البشرة وأنا أحب السمار، زوجة خالك روسية وتبدو كالقمر. كل أصدقائي سيسخرون مني لزواجي من نوبي، لكني لا أهتم، أنت أيضا يجب أن تريدني ولا تهتم بعاداتكم وتقاليدكم، يا رجل، هل ستصاع لأمر يقضي بأن تتزوج سهلوكة أو لا تتزوج. نحن أيضا لدينا تقاليد وأعراف، مع ذلك أقنعت أمي بك، هي لن ترفضك بالطبع يا بشير.فإذا كنت تريدني أنا أعطيك آخر فرصة. فاهم؟

صمت بشير واختفت كل البهجة التي لاقي بها نور، عندما تذكر أن الأمر لن يقف عند مجرد لقاء حب قديم، نور جاءت من أجل الخطوة الكبيرة، لتعرف هل ما زالت لديها فرصة مع بشير أم لا، انتظر إلى أن تهدأ ثم أخبرها بكل ما حدث، عرفت أنه سيصبح الشيخ خلال أيام مؤقتا على الأقل، ضحكت وهي تقول:

ـ جميل.. مبروك يا حضرة العمدة.

ابتسم قائلا:

ـ اسمها المشيخة.

ـ العُمُوديَّة، المشيخة، الإمارة. كله جميل. الحارة عندنا فيها ، احدة أبوها من عمال الأمن في نادٍ كبير.. نجمة الشارع لأن أباها حكم بنفسه في بوابة من بوابات النادي..

ضحكت ضحكات متقطعة ثم واصلت:

ـ شيخ بوابة يعني!

نظر إليها بارتياح وهي تتكلم بروحها المرحة، أكثر ما افتقد منذ وصل إلى دجا هو الحب. الكراهية والكآبة هما أكثر ما تعاملت معه منذ جئت.. أما نور فهي العكس.. الحب والمرح.. تمنى أن يترك كل شيء ويرحل معها على الفور..

نظر إلى الأوراق التي في يده وهو يسألها في فضول:

ـ ما هذه الأوراق؟

لم تجبه، لكنها كانت تحمل أختاما متعددة، على غلافها اسمه بحروف أجنبية.. في الخلف كان يوجد اسم المرسل:

ـ Arafat Bouedu

نظر إليها بشير في تساؤل.. أجابته بكلمة واحدة:

ـ افتحه.

لم يتمالك بشير نفسه عندما أدرك أن ما بين يديه هو خطاب من ، الدجاوي سابقا بودو حاليًا، اكتسب اسم أسرة زوجته وعاش به في فرنسا.. سألها في دهشة:

ـ كيف؟

الإجابة كانت مفهومة حتى قبل أن تنطق هي بها، نور لم تيأس كما فعل هو، وواصلت المرور على السفارة كل بضعة أيام دون أ˙ تمل، فقط حولت عنوان المراسلات إلى عنوانها هي.. كانت تكتب رسالة مقتضبة مكررة:

عم عرفات الدجاوي.. أنا نور خطيبة ابنك بشير.. أعرف أنك سافرت وتركت خلفك بلدة الجان والعفاريت التي كنت تنتمي إليها.. لكنك لم تختفِ من حياة بشير بل تحولت إلى شبح آخر في حياته. كل ما أطلبه منك هو رسالة واحدة إليه تخرجك تماما من حياته، أو تدخلك إليها مرة أخرى. لا تستكثر عليه دقائق قليلة ليطوي صفحتك تماما كما طويت أنت صفحتهم منذ سنوات.

نور.

لم تفلح الخطابات إلى أن طلب منها يوما ما موظف الأمن الذي اكتسبت تعاطفه بتكرار الزيارات أن تنتظره للحظات. عاد إليها مصحوبا بشاب مصري لطيف، أخبرها أنه سكرتير ثاني السفارة المصرية في باريس، جاء لإنهاء بعض التأشيرات التي تخص البعثة الدبلوماسية، ثم أردف في ود:

ـ أنت وحظك!

انقضت نور على الشاب وهي تحكي له ملخصا مقتضبا،أبدى اهتماما بالأمر وهو يقول بابتسامة ود:

ـ حتى لو كان اسمه تغير.. سنجد في ملفات السفارة هناك كل ما يخصه، إذا كان له عنوان لدينا أعدك بأن يصله الخطاب.

كادت نور تطير من السعادة وهي تبحث عن بشير لتحكي له ما حدث، لكنه كان قد رحل تاركا لها قلبا أحمرَ كبيرا وخطابا (خائبا) على حد قولها، بعد أسبوع واحد كان لديها ذلك الخطاب الذي أعطته لبشير دون أن تفتحه.. قررت أن الأمر يستحق أن تذهب وراءه من أجله، أو من أجلها، أو من أجلهما. وقد كان.

لم يدرِ بشير ما يفعله لنور، خيط آخر من خيوط حياته يمسك به في يده بناء على إصرارها بعد أن كاد يفقده تماما بناء على ضعفه.. جاءت جملة هلال مباشرة إلى الهدف تماما وهو يقول:

ـ أنتِ بستين رجلا!

نظرت إليه زوجته باستياء وهي تقول بلكنتها الروسية:

ـ الرجل لم يفعل شيئا.. البنت هي التي فعلت!

ثم مالت على نور هامسة:

ـ هنا ينسبون كل فعل جيد إلى الرجل.. وكل فعل سيئ إلى المرأة..

ضحكت نور ساخرة وهي تعقب:

ـ وهناك أيضا..

أجابت السيدة بضحكة مشابهة:

ـ وهناك أيضا.. في روسيا.. اللعنة على الرجال في كل مكان..

لم يكن بشير منصتا لهم، فتح الخطاب في لهفة وجلس يقرأ في تركيز، فصمت الجميع وهم ينظرون إليه بابتسامة متشابهة.

ولدنا بشير:

أتمنى أن تكون بخير،

إنني لم أختفِ ولم أهرب كما تظن. أمك وشهلي يعرفان عنواني واسمي وكل شيء عني، ستجد لديهم كل ما أرسله أنا أيضا إليك أنت وأخيك من خطابات وهدايا تباعدت مع انعدام الرد منكم. ما أريد أن أقوله لك باختصار إنني لن أعود حتى في زيارة إلى دجا ولا إلى مصر بأكملها، ليس لي في مصر ما أزوره، ودجا لا تناسبني ولا تناسب أحدا إلا من يعيشون فيها. مع هذا الخطاب ستجد كل الأوراق التي ستحتاجها في السفارة للحصول على تأشيرة زيارتك أنت وأخيك إلى باريس. وإذا أردت فسأرسل دعوة ثالثة لخطيبتك التي أرسلت لي الخطاب الأخير. مرفق عنواني بالكامل وأرقام هواتفي.. أتمنى أن تقبلا دعوتي وتأتيا حتى تتعرفا على العالم الذي لم أكن أعرف أنه موجود إلا بعد أن تركت خلفي تلك البلدة الملعونة.. وأؤكد لكما أنني بالفعل أتمنى أن تأتيا لزيارتي التي ستسعدني كثيرا، ربما أقنعكما بأن تبقيا إلى الأبد.

عرفات.

ابتسم بشير في ارتياح وهو يطوي الخطاب بما فيه، أمسك بتذاكر السفر والدعوة وطوح كل الأوراق بعرض ذراعه، لم يعنِ له الأمر شيئا، الخطاب لا يحمل مشاعر الأبوة الساخنة التي كان يتصورها ولا حتى الاهتمام الكافي.. سألته نور عما جاء في الخطاب فضحك بحسرة وهو يقول:

ـ عزومة مراكبي، لو أرادنا لأتى.

صمتت نور.. نظر إليها بشير بحب وهو يردد بصوت هامس:

ـ هل ستظلين هكذا إلى الأبد؟

أومأت برأسها فقال في امتنان:

ـ ألن تيأسي مني؟

ـ أنا يائسة منك منذ زمن.. لكني لم أيأس من نفسي بعد.

ابتسم وهو ينظر في عينيها مباشرة، أدارت وجها إلى الجهة الأخرى ثم أعادتها بعد لحظة، اضطربت وهي ترى نظراته لا تتحول، قامت من مكانها واتجهت للأوراق التي ألقاها بشير وهي تقول:

ـ هل تسمح لي بأن أقرأها؟

أومأ برأسه في لامبالاة.. وضعتها في حقيبتها ثم جذبته من يده قائلة:

ـ قم لتريني بلدكم!

نظر إليها وهو يفكر فلم تمهله:

ـ يا عم فرجني على البلد.. نأخذ معنا الحاجة الروسية زوجة خالك.. وقل لهم: فوج سياحي.. ثم إنك قلت لي إنك أصبحت العمدة.. إذن تفعل ما تريد.. هيا بنا!

ارتدى بشير قميصا صوفيًا فضفاضا وسروالا من الجينز الأزرق وحذاءه الرياضي، وضع نظارته الشمسية على عينيه

لأول مرة منذ وصل إلى دجا وانطلق خارجا مع نور، كان المشهد مثيرا للفضول ولاشك، موكب صغير مكون من هلال وزوجته الروسية في المقدمة، يليهم بشير ونور التي كانت تتعلق بذراعه كل بضع خطوات فيفلتها مبتسما في حرج بالغ فتعود لتتعلق به مرة أخرى بعد عدة أمتار. وعلية الصغيرة تجري في المنتصف بين الجميع.. على بعد عدة أمتار في الخلف، كان شهلي يتبعهم عن بعد وهو يتمتم بكلام لم يسمعه بشير ولكنه توقع أنه يلعنها ويلعن كل بنات القاهرة المنحلات، رفعت رأسها فجأة وهي تقول في حيرة:

ـ هناك شيء يتحرك بسرعة فائقة.

ابتسم بشير وهو يؤكد لها أنها تهيؤات، لم يرد أن يخبرها أن بلدته تحوي قردا طليقا لكيلا تفزع.

كان العشرات يقفون أمام منازلهم ينظرون ويتهامسون. بالتأكيد يتكلمون عنه وعن نور التي تثبت النظرية التي أشاعتها أودا بأنه كان في القاهرة يجري وراء بنات مصر. حتى وصل الأمر أن واحدة منهمن جاءت جريا وراءه. لا شيء في دجا يثير الفضول أكثر مما يخص المرأة. من أحب ومن تزوج ومن خان ومن هرب. وبالطبع وجود فتاة غريبة اللون ترتدي الحجاب الإفرنجي كما يصفونه هناك كان فرصة سانحة لحوار سيستمر شهورا وربما لسنوات.

مع كثرة أسئلة نور؛ بدأ بشير يتقمص دور المرشد السياحي ليشرح لها كل ما يخص شكل القرية. كل ما اعتادته عيناه ولم يعد

يفكر فيما رآه مرة أخرى بعيونها. أسئلة لم تطرح من قبل. لمن هذه البيوت الملونة المكونة من دورين؟ هذه بيوت السهالك. بيتنا هو الوحيد في القرية المكون من أدوار ثلاثة. بيوت الأجواش مطلية باللون الأسود أو غير مطلية على الإطلاق، وتتكون من دور واحد إلا بيت شيخ الأجواش فهو مكون من دورين. قاطعه هلال وهو يشرح أن الشيخ عثمان أمر ألا تطلى بيوت الأجواش من الخارج إلا باللون الأسود. لذلك فضل أغلبهم ألا يطليها بالمرة، وأن يتركها بلون أحجارها بدلا من السواد. لم يكن بشير قد سمع ذلك الأمر من قبل. علقت نور ضاحكة:

ـ كلهم حمقى.. لو أنهم جميعا دهنوا منازلهم باللون الأبيض في يوم واحد لما استطع جدك أن يفعل شيئا.

كان وجود نور وهلال في الموكب يضفي على الجو بهجة لم يعتدها بشير في هذه البلدة منذ سنوات بعيدة. البهجة تأتي من داخل النفوس، وتنعكس على من حولنا. هذا ما ردده بشير لنفسه وهو يضحك رغم أنه كان قلقا إلى أقصى حد. كان لديه هاجس أن يهاجمه أو حتى يسبه واحد من الأجواش فيجد نفسه في موقف لا يحسد عليه، عندما لاحظ هلال توتره اقترب منه متسائلا.. صارحه بقلقه فأجابه في لهجة جادة:

ـ لا أحد يجرؤ على أن يمس الشيخ الجديد وضيوفه.. فليقترب واحد منهم وسيرى ما سيحدث له وهو وأهله جميعا. انظر إليهم وستفهم.

أجال بشير نظره فيمن يمر عليهم. كانوا جميعا متسمرين في مكانهم. بدا له هلال على حق. لم يبدُ له أنهم يضمرون شرّا رغم أنهم ولاشك كانوا يضمرون الكراهية، استراح لكلامه قليلا، تخلى عن دور الحارس الشخصي لنور واكتفى بدور المرشد السياحي، لكنه ندم بعد دقائق. فجأة وفي غفلة من الجميع حدثت الكارثة.

## (٢١)

في لحظة كانت نور في الأرض وقد نزع حجابها من فوق رأسها وتمزق قميصها وهي تصرخ في فزع؛ محاولة التخلص من الجسد الذي جثم فوقها. تسمر الجميع للحظات محاولين أن يحددوا ما سيفعلونه لتخليصها من تحت جسد الشيخ أروكا!

كانت أمه تصرخ غاضبة:

- لن تأخذيه مرة أخرى يا برجيت. لن تأخذيه.

كان بشير أول من تحرك محاولا نزع أمه من فوق جسد نور الذي تشبثت به بكل ما تملكه من قوة، وكانت نور تحاول فقط أن تحمي وجهها من أظافر أروكا التي نشبتها في كل ما استطاعت أن تصل إليه من أماكن، اكتشف بشير في تلك اللحظة أن أمه تعاني من ضعف عقلها وذاكرتها فقط بينما لازالت تمتلك ما يكفي من قوة جسدها الضخم، واكتشف أيضا أن امرأة دجاوية تقترب من الستين تمتلك قدرات قتالية أفضل كثيرا من شابة عشرينية قاهرية، حتى لو كانت من القلعة كما كانت تقول له دائما عندما تدلل على أنها (مقطعة السمكة وذيلها).

استغرق المشهد دقائق قليلة كانت كافية لترك آثار لابأس بها في وجه نور، وتركها تحاول أن تغطي صدرها وكتفيها بما تبقى من قميصها، لم يتردد بشير في خلع قميصه في لحظة ولف نصفها العلوي به كما لو كان شالا، بينما كان خاله هلال يمسك بأروكا من الخلف وهو يحاول أن يختبأ خلفها لكي لا تراه فتنتقم منه لاحقا، وشهلي يستغفر ويحوقل، وعسلية تصرخ في حالة هيستيرية من الفرحة، وناندو صامت يراقب، وأودا تقف عن بعد دون أن يعرف أحد أنها من أتت بها خلفهما وهمست لها بالاسم. أما أروكا فكانت تلهث من فرط التعب والانفعال وهي تتمتم بكلمات متتالية عن غدر الرجال وعهر برجيت وعن زوجها الذي عاد إليها فتبعته الحرباء لتأخذه مرة ثانية، أما نور فقد كانت تقف مذهولة، كل ما فعلته كانت التحديق في فزع وهي تحكم وضع جلبابه على رأسها وكتفيها، ثم تنظر إليه متسائلة في حيرة.

انطلق موكب العودة مسرعا إلى المشيخة دون أن يتكلم أي منهم سوى أروكا التي واصلت سبابها ولعناتها، تحاول كل بضع خطوات أن تمسك بغريمتها مرة أخرى فيفصلون بينهما، نور كانت تبحث عن آثار الدماء في وجهها وشفتيها، تمالكت نفسها بعد عدة أمتار وهي تسأله عمن فعلت ذلك فيها، انفرجت أساريرها عندما عرفت الحكاية من بشير رغم ما بدا عليها من الأسى، أراحها أن تعرف أن من هاجمتها هي عجوز مختلة رغم أن ذلك سبب له وخزة في قلبه، شعر بشير أيضا ببعض الارتياح عندما وجدها تنظر إليه بعطف وحب:

ـ لهذا لم تعد إليَّ؟

أومأ مؤكدا رغم أنه لم يكن يعرف إن كان ذلك حقيقيًا أم لا كان رحيله من دجا حتميًا في عقله طول الوقت، أما عودته إليها فقد كانت مصدر حيرة شديدة، عندما كان يفكر فيها كان يتردد. كان يحبها لكنه كان يحمل على كتفيه همين؛ هم الخروج من عالم لا يرحم ولا يترك من هو مثله يغادره بسهولة، وهم ما كان يراه فيها من انطلاق وجرأة يخيفانه منها. كل شيء كانت تفعله كان يزيد من حبه لها وكذلك من خوفه منها، حتى في تلك اللحظات كانت تتسلل إلى رأسه أفكار تغضبه من نفسه أكثر مما تغضبه منها، كان يرى أن مجيئها إلى دجا من أجله وإن كان يستحق المزيد من عشقه لها إلا أنه أيضا يستحق المزيد من القلق، سفرها وحيدة وركوبها السيارة مع رجل لا تعرفه حتى ولو كانت معه زوجته. نظر إلى وجهها الذي لانت ملامحه ولابتسامتها التي استردتها وهي تهمس لي مشجعة:

ـ ولا يهمك يا عم اللب، أنا فداك وفداه أمك..

ألقى عليها نظرة طويلة، كانت تمسك بأطراف الجلباب لتغطي صدرها الجميل وشعرها الكستنائي الذي تسلل من تحته ليعبر عن غضبه مما حدث له في تلك اللحظات المهينة رغم أن صاحبته لم تغضب. مدت يدها لتخبئ ماظهر من شعرها ثم لتضم الجلباب على صدرها أكثر وهي تهمس:

ـ لا تنظر إليَّ هكذا.

شعر بالحرج عندما أمسكت به متلبسا، لم يجد ما يمكن أن يقوله في تلك اللحظة مجملا تعليقه على كل ما حدث لها معه منذ عرفها حتى تلك اللحظة أفضل من كلمة واحدة:

ـ أنا آسف!

تلفتت حولها لتتأكد أن هناك مسافة كافية بينهما وبين من في الخلف، ثم مالت عليه هامسة:

ـ وأنا أحبك!

في تلك اللحظة شعر برغبة عارمة في البكاء. عفريتان من ملوك الجان يتصارعان على امتلاكه فيشعرانه بأنه يتمزق عجزا، يملؤه الألم لأنه لا يستطيع أن يتحرر من أحدهما ويصبح تابعا للآخر فيستمتع بانضمامه لمملكته راضيا. الحب وأتباعه، الشوق والرغبة والجرأة. وتقاليد دجا التي تقهره، التحفظ والعيب وما يصح وما لا يصح! كانت الأمور ستكون أيسر كثيرا لو أنه لم يخرج من دجا. يعيش مثلهم ويتقبل كل ما يقبلونه، أو لو أنه قاهري لا يتبع أفكار دجا. على مدار أعوام الدراسة كان يحسد كل من تحرروا من قضايا التقاليد والعادات. بشير كاره للتقاليد. تمنى أن ينتمي إلى هؤلاء الذين كانوا يفعلون كل شيء دون أن يترددوا رغبة في الاستمتاع بحياتهم، يكافئون أنفسهم كل يوم بمتعة أخرى من متع الحياة إلى حين إشعار آخر. أو من الآخرين الذين كانوا يمتنعون عن أشياء كثيرة من أجل الله؛ هؤلاء الذين ينتظرون المكافأة في عالم آخر أكثر عدلا من هذا العالم، هؤلاء يستمتعون بما يفعلون وهؤلاء يستمتعون بما لا يفعلون. أما هو وأمثاله ممن لايفعلون خوفا أو حرجا من الناس فيراهم يعيشون ويموتون بلا مكافآت. كانت نور تعرِّفهم له بالازدواجيين. تتحدث عن بنات ترتدين في الأحياء التي يَسْكُنَّ فيها ملابس ويخلعن عباءاتهن بمجرد دخولهن

إلى الجامعة ليرتدين ما يحبينه ويستمتعن به، حكت له عن أخريات يخلعن كل شيء في المصايف تحت سمع وبصر أهل لا يسمحن لهن بالخروج من البيت بغير حجاب في القاهرة، هو شخصيًا عرف أثناء دراسته زملاء ينتظرون غياب صديقاتهن ليعبثوا مع المتاح من بنات الجامعة، يلعنون من يمسك بيد صديقته في الجامعة صباحا، ويمارسون الزنا ليلا، اعترف لنفسه منذ سنوات بأنه أيضا مزدوج رغم أنه لا يتغير نهارا ولا ليلا، ولا يخلع ملابسه ولا حجابه الذي ترتديه روحه، لكنه مزدوج ما بين العادة والرغبة. ليس حرًا ولا عبدا.

كل هذه الأفكار تأججت في عقله بتأثير من الرغبة التي اجتاحته عندما شاهد شعر نور المبعثر وضمها تحت جسد أمه الذي تمنى أن يستبدله بجسده هو، رافعا صدره الأسود اللون على صدرها الفاتح اللذيْن أزاحت أمه عنهما الستار في مشهد أسطوري أشعره بالجنون.. اعترف لنفسه تحت تأثير كل تلك الهلاوس بأنه كائن بشري معذب، غرسوا فيه مقاومة نفسه بنفسه دون أن يقولوا له سببا غير أنه (لا يصح)!

انتبه على هزة من أصابع نور وهي تسأله هامسة:

- إلى أين ذهبت؟

ابتسم في خجل من قبض عليه متلبسا.. اقترب منهما الخال هلال وقد شجعته ابتسامة نور معتذرا لها:

- سامحينا يا بنتي.. اعتبريها أمك.

ضحكت نور في عصبية وهي تقول:

ـ أمي تفعل فيَّ أكثر من ذلك.. لكنها تحافظ على قطعة من ملابسي.

ضحك هو أيضا:

ـ احمدي الله يا بنتي.. طالما حبستك بيرجيت فلا بد أنها كانت تنوي تمزيق جسدك كله.

أدار بشير رأسه إليه في تساؤل:

ـ من هي بيرجيت ياخال؟

أجاب هامسا:

ـ بيرجيت؟ ألا تعرف حتى الآن يا بشير؟ كيف لم يخبرك أحد؟

* * *

جلس بشير يراقب نور وقد ارتدت الجلباب الذي أتى به شهلي على عجل، أسود اللون على صدره شريط حريري أحمر تعلوه ورود صفراء صغيرة، على رأسها طرحة سوداء اللون تخص أمه بعد أن رفضت أن تضع حجابها السماوي فوق رأسها لأنها رأته غير متناسق، لم يكن يشعر بالارتياح وهو يراها في زي شابة دجاوية رغم بهائها الذي زاد في تلك الملابس، فقد فقدت الكثير من سحرها في عينيه وشعر هو بأن دجا قد بدأت تصيبها هي أيضا بلعناتها كما تفعل مع كل من يقترب منها، هلال كان يرمقها باستحسان، أما شهلي فلم تبدُ عليه أي انفعالات بعد أن قام بنفسه بإدخال أروكا إلى غرفتها وتأكد من أن ثورتها هدأت تماما.

امتدت أياديهم إلى أكواب القهوة الساخنة المتراصة أمامهم، أخذ هلال رشفة كبيرة ثم بدأ يتكلم بصوت هادئ لم يخفِ الكثير من انفعالاته:

ـ لم يكن أبوك رجلا عاديًا في دجا. كان نموذجا مختلفا من الشباب؛ ثائرا رافضا لكل ما يحدث. ربما ما تحمله في عقلك من تمرد على هذه البلدة موروث من والدك، أو ربما تكون قد سمعته وهو يتكلم في طفولتك وانغرس كلامه في داخلك وخرج على لسانك عندما كبرت. كنا أنا وهو صديقيْن لا يفترقان أبدا. أنا الساخر وهو الغاضب! يمكنني أن أقول لك الآن يا بشير إن لعنة أي مجتمع ملعون مثل هذا الذي نحيا فيه ثلاثة. الساخر والناقم والساكت. اكتفى هو بالغضب والرفض والنقمة حتى رحل، واكتفيت أنا بالسخرية والضحك حتى أصبحت أخشى أن ينصلح الحال يوما فلا أجد ما أضحك عليه. ما الذي كان ينقصنا في شبابنا لكي نقف في وجه ما كان يفعله جدك في الجميع؟ كان ينقصنا العاقل. إن وقوفك في وجه الثعبان ليس شجاعة بل حماقة، وأن تحاول أن تلدغه بأسنانك ليس إقداما بل جهل. عليك أن تستدير من خلفه وتمسك به من رأسه حتى تنتصر عليه. هذا ما لم نفعله لا أنا ولا أبوك، كنا سعداء بما يقوله علينا الجميع. نحن الشرفاء الذين نقف في وجه الظالم، لكن الحقيقة أننا لم نكن نقف في وجهه، بل كنا نقف تحت قدميه مع الآخرين.

تنهد هلال في حسرة. لأول مرة يراه بشير في تلك الحالة من الشجن، كان دائما ما يرى أن من يعرف ما يقول في وقت الهزل

ليضحك الجميع، لا بد أن يعرف أيضا ما يقول في وقت الجد ليسمعه الجميع، واصل هو حديثه في صوت عميق:

- أعتقد أن زواج أبيك من أمك جاء استكمالا لعناده مع جدك. وقبول جدك للزواج كان رضوخا للتقاليد ومحاولة لضمه إلى قطيعه. وقتها لم يكن في باله أن تأخذ أروكا المشيخة ولا حتى أودا. عثمان الدجاوي كان يظن أنه سيظل شيخا إلى الأبد. كان يؤمن بأنه من أحفاد داعو الخالدين. اندهشت وقتها من إيمانه بتلك الأسطورة، لكني لم أندهش بعدها عندما التقيت بالعشرات ممن يصدقون عن أنفسهم ماضيا اختلقوه وعاشوا به بديلا عن الواقع الذي دفنوه في صدورهم. أمك كانت تحبه حقًا، طلبت مني أن أقنعه بأخذها معه إلى أسوان عندما قرر أن يرحل إلى هناك ليعمل مدربا للخيول؛ لكيلا يظل هنا معهم، لكنه رفض! مسكينة أروكا عقلها كان نقمة، وذهابه كان نقمة أخرى. كانت ممزقة بين أبيها وزوجها، طالما حاولت أن ترضي كليهما فلم يرضَ عنها أيٌّ منهما. وعندما اختارت أن تتبع زوجها لفظها، كان يلح عليها أن ترفض المشيخة بعد أن قرر الجميع أن تذهب إليها، بدلا من أودا التي لم تزرع ذرة واحدة من الحب في قلب واحد منا، لكنها رحلت بكما ليلا إلى زوجها في أسوان، كنت قد أبلغتها بعلاقة أبيك بامرأة فرنسية رائعة الجمال. أخبرتها بأن عليها أن تختار بينه وبين حياتها في دجا فلم تتردد. وصلنا إليه في نفس الليلة التي كان أبوك فيها قد أعد كل شيء للرحيل إلى فرنسا مع بيرجيت؛ حبيبته الشقراء التي جاءت للسياحة وعادت برجل أسمر ممشوق القوام قوي البنية

متمرد على حياته وأهله، أخذتك في يدها وناندو على كتفها! لم يسمح لها بكلمة واحدة ولم يقل لها سوى كلمة واحدة:

- أنت طالق!

قاطعه بشير:

- أنا أذكر ذلك اليوم، وقفنا معك نراقبهما وعادت أمي باكية. لكنه رجع إلى دجا في اليوم التالي.

- جاء ليترك ورقه طلاقها ويجمع ما تبقى من أشيائه، ثم رحل إلى الأبد..

أسلمت أمك قيادها لجدك الذي ظل محتفظا بشره حتى وهو يفقد عقله رويدا رويدا، إلى أن صدمته سيارة مسرعة على الطريق وهو يمشي هائما على وجهه فلم يعرف أحد هل كان ذلك حادثا أم انتقاما من الأرض أم من السماء. الرجل الوحيد الذي رآه في تلك الليلة أقسم إنه كان يمشي متباطئا ثم جرى فجأة بسرعة لا تتناسب مع حالته ليقف في منتصف الطريق أمام تلك السيارة التي صدمته فلم تتوقف، بل مر من كان يقودها من فوق جسده في طريقه للهرب فانفجر بطنه وتناثرت أشلاؤه، أضاف وهو يقسم إنه رأى دخانا أحمر اللون يخرج من جسده ليتشكل على هيئة شيطان أقرن وقف ينظر إلى جسد جدك ضاحكا قبل أن يطير في اتجاه البلدة مرة أخرى. أنا ذهبت إلى هناك بنفسي، بدا لي كما لو كان قد ابتلع لغما فانفجر في بطنه، فليرحمه الله رغم أنه لم يرحم أحدا.

ساد الصمت لدقائق طويلة قبل أن تقطعه نور:

- والآن هي تراني بيرجيت؟

أشاح هلال بيده في لامبالاة وهو يجيب:

- صدقيني يا بتي هي لا تميز شيئا، أنا رأيت ما يحدث لعجائز هذه العائلة عشرات المرات، ستراك مرة بيرجيت ثم ستراك أمها ثم تراك واحدة لا تعرفها، كل يوم بحال. لا تشغلي بالك!

علق بشير في حسرة:

ـ لم نجد من يرضيها أو يرضى عنها يوما! لا أباها ولا أختها ولا واحدا من أبنائها.

تمنى بشير في تلك اللحظة أن يعود إليها رشدها ولو ليوم واحد فيخبرها أنه عرف كل ما عاشت تخفيه عنه وعن أخيه، أخبرتهم بأن أباهم رحل لرفضه أن تصبح زوجته الشيخة، لم تحكِ شيئا عن أنه ذهب مع عشيقة فرنسية لتحفظ لهم شيئا من احترامه، يذكر ذلك اليوم الذي ذهب فيه معها إلى أسوان كطيف بعيد، أوروكا كانت تستحق أن تصبح زوجة عظيمة وأمّا أعظم لولا أنها ولدت هنا في دجا، نزعوا منها أنوثتها بكل ما يتبعها من صفات لتصبح شيخا. لابد أنها عاشت كسيرة النفس والخاطر وهي مضطرة لاتباع قواعد اللعبة التي لم تستطع الفكاك منها، لم تكن لديها خيارات بالتأكيد، بشير نفسه وهو رجل شاب خرج من دجا لسنوات وأنهى تعليمه لا يجد طريقة ليتخلص من المصيدة التي سقطت هي فيها.

التفت هلال إلى بشير وهو يهمس:

- ألم تفكر بعد في أن تبقى لتصلح ما أفسدناه جميعا؟

هز بشير رأسه في يأس:

- لا فائدة يا خال.

أجابه ساخرا:

- هذا ما قلناه جميعا ليفعل كل منا ما يريد.

- ولماذا لم تبقَ أنت وتصلح ما أفسدوه؟

هز كتفيه في يأس:

- حاولت. لكنني اكتشفت أن الحل هنا لن يأتي من هؤلاء البشر؛ هؤلاء الذين يعيشون نصف عمرهم الأول خائفين لأنهم يريدون الحياة، ويعيشون نصفه الآخر مستكينين لأنهم ينتظرون الموت. الحل هنا في الشيخ. هو الذي يتبعه الجميع صاغرين، لو أتاهم شيخ واحد بالحق لتبعوه؛ فهم لا يتبعون الحق ولا الباطل، يتبعون شيخهم على حاله وحالته!

أشاح بوجهه بعيدا رافضا استكمال تلك المناقشة التي ستأخذه إلى حيث يكره. التفت إلى نور، كانت تبكي في صمت، نظرت إليها في جزع، مسحت دموعها وهي تقول:

- أمك تعذبت كثيرا يا بشير. وأنتم تعذبونها الآن أكثر، لم يمسها جان ولا تلبسها عفريت. كل ما في الأمر أنها تعاني من خرف الشيخوخة، أنا رأيته في سيدة كانت تسكن في الشقة التي تعلو شقتنا. يجب أن نذهب بها إلى طبيب، بعد قليل ستصبح خطرا

على نفسها وعليكم،أما المشيخة التي تتحدثون عنها فافعلوا بها ما شئتم لكن ارحموا هذه العجوز

أومأ برأسه موافقا، همس:

- سآخذها إلى الطبيب عندما أرحل من هنا.

- مرضها لن ينتظرك، تعالَ معي الآن إلى أسوان. سنجد لها طبيبا هناك بالتأكيد.

قاطعهم شهلي بحدة وهو يقول:

- الشيخ يذهب إلى طبيب في أسوان ليعالج عقله؟ ما الذي سيقوله سكان البلدة حينما يعرفون؟ لايمكن..

نظر بشير إلى نور مترددا للحظة، إلا أنها هبت من مكانها غاضبة وهي تزوم كالقطط:

- قم معي يا بشير، أنا عائدة إلى أسوان الآن، تعالَ أوصلني واذهب بها إلى طبيب، صدقني لن تندم!

صاحَ شهلي في تحذير:

ـ لا يمكن، لا يحق له الخروج قبل أن يأخذ العهد ولا حتى في المائة اليوم، سيكون في حكم الرافض.

أدار بشير عينيْه في عيون كل من حوله، لم يكن يعرف لغة العيون قبل تلك اللحظة، نور كانت تتساءل عن معنى الرافض، شهلي كان محذرا، أودا كانت ترقب، نظر بشير إلي نور فابتسمت في حب، تلك النظرة التي لم تنجح أبدا في تعديل مسار بشير، حسم الأمر في كلمات سريعة:

ـ ليس الآن يا نور!

ثم استدار في اتجاه شهلي قائلا:

ـ لكني سأفعل ذلك يا شهلي، سأرحل كما قلت بعد المشيخة وسآخذ أمي معي، بعد مائة يوم أو ألف يوم لن أغير موقفي.

أجاب شهلي باقتضاب:

ـ نتكلم بعد المائة اليوم.

لم يعقب بشير، انتظرت نور رد فعله الذي لم يأتِ كالمعتاد، قامت من مكانها والدموع تلمع في عينيها مخاطبة هلال:

ـ هل يمكن أن توصلني إلى الفندق يا عمي؟

قام هلال معها متثاقلا، جلس بشير منكس الرأس، مشت عدة خطوات قبل أن تلتفت إليه قائلة:

ـ أنا راحلة يا بشير، ولن أبحث عنك مرة أخرى.

(٢٢)

رحلت نور وفي قلبها غصة من بشير كالعادة، كان هو أيضا يحمل غصة مماثلة، زيارتها ضاعفت حبها في قلبه عشرات المرات، لكنه كان يعرف أن وقت الخروج من دجا لم يأتِ بعد، امتثل تماما لخطط شهلي وباركلي التي تحولت إلى برامج مرتبة، اصبح يتجول في البلدة بصورة شبه يومية ولا يجد أمامه سوى انحناءات امتنان متتالية.

اكتشف بشير أن خطة باركلي نجحت بشكل غير مسبوق، سمع الحكاية التي تطورت شيئا فشيئا، فعملية ذهبت بعد أن تمثل لها أحد الجان في صورة شهلي وتلك هي القصة الأصلية، أما الإضافات فحكت عن أن عملية استيقظت لتجد نفسها داخل المبنى، وأخرى حكت عن أن الأرواح جذبتها من البيت وحتى المبنى دون أن تستطيع الصغيرة المسكينة أن تقاوم، وأن بعض أهل البلدة أقسموا إنهم رأوها بأعينهم وهي تسحل على الأرض في طريقها إلى هناك دون أن يملك أي منهم مساعدتها، فكل من حاول كان يسقط على الأرض قبل أن يصل إليها. أما الإبداع الحقيقي فقد كان في حكاية خروج بشير من المبنى، وتراوحت الحكايات في

ذلك الأمر ما بين طيرانه واختراقه الجدران، وإن كانت الحكاية الأولى أرجح لأن جسد علية ليس كجسد الشيخ الجديد؛ لذلك لم يستطع أن يخترق بها الحائط.

هكذا كان بشير يسمع الحكايات فيندهش ويسخر ويحزن، عبَّر لباركلي عن استيائه، أشار إليه العجوز في لامبالاة وهو يقول:

- هذا أمر لا يدعو إلى الحزن، كلما زاد الجهل وكثرت الخرافات كان من السهل عليك أن تفعل ما تريده فيهم.

ثم أردف مؤكدا:

- لن يستطيع أي منهم أن يقول: لا للشيخ الطائر.

صمت لحظة وهو يرددها في إعجاب:

- الشيخ الطائر! ياله من لقب جميل.

هكذا أصبح لقب بشير هو الشيخ الطائر، ماتت تماما القصة الأخرى التي تحدثت عن اختراقه الجدران وبقيت قصة واحدة انتشرت في كل أرجاء البلدة سريعا. وأصبحت كل الرءوس تنحني في إجلال إذا مر من أمامهم، في كل طريق كان يجد عشرات الأفواه تنحني لتقبل يده، رأى بشير في عيون بعضهم ما جعله يتوتر، الأمل. ليس كل من ينحنون له مجرد أتباع حمقى، بعضهم ينتظرون منه شيئا ما رآه في عيونهم، وفي كلمة ارتجف عندما سمعها من ذلك الجوشي العجوز:

- وفقك الله.

أراد بشير أن يخبره أنه لا يحمل في رأسه أي نية على أن يفعل أي شيء، أنه يقود السفينة ليسيطر على قارب النجاة فيتمكن من القفز في سهولة ويسر، توتر بشير لدرجة أن لسانه خانه كالعادة قبل أن يبتعد الرجل:

ـ لا فائدة.

فاستدار له العجوز مرة أخرى وقد اكتسى وجهه بظلام الكآبة، انحنى مرة أخرى بحركة آلية خالية من كل الحماس السابق وهو يقول في استسلام:

لا فائدة.

أفسد ذلك الرجل عليه المتعة التي تسللت إلى قلبه وهو يرى الولاء الأحمق الذي أظهره له الجميع، رغم أنه كان يدرك أن هناك المئات تكاد كراهيتهم تسقط من صدورهم أمامه وهم ينحنون له. لم يعد يمتعض عندما يرى هؤلاء الذين يستحقون خدعته، من لا يعرفون العدل ولا الحق في الحكم عندما يختص الأمر بالمشيخة.الأمر محسوم لديهم، فهؤلاء يحبون الشيخ حتى وإن كان شيطانا، وهؤلاء يكرهونه حتى لو كان يطير في السماء بجناحيه لينقذ الأطفال الصغار من براثن اللعنات، الفريقان يريحان ضميره، أصبح يغمض عينيه كلما رفع أحدهم رأسه بعد انحناءته؛ خشية أن يكون من الفريق الثالث الذي يحمل في صدره ما حمله ذلك العجوز، والذي يحمله أمانة لا يوجد لها مكان في عقله.

لم يفهم شهلي سبب إغماض بشير لعينيه لكنه أصبح يمنحه

وصفا تفصيليًا ليراهم من عينيه، وجد بشير ذلك أكثر ملاءمة لوضعه المؤقت. كان شهلي يبتسم بسعادة وهو يشرح له:

ـ هذا واحد ممن سحروك.

ـ هذا من السهالك لكن لايحب سلالتكم.

ـ هذا يتمنى قتلك لو يستطيع، بينه وبين جدك ثأر.

تعريفات شهلي تجعل الأمر أكثر سهولة، كلهم أعداء لا يريدونك لسبب أو لآخر، كل شر ستفعله لهم يستحقونه وكل خير سيأتي منك فضل عظيم عليهم. هذه المعادلة التي كان يحاول أن يزرعها في صدره، تساءل بشير عما إذا كان من سبقوه في المشيخة صدقوه أم لا، تصديقه أدعى لكي يرحل الشيخ مبتعدا عن رعية يكرهه فيها الجميع عدا خادمه، وإذا أيقنوا مثلما أيقن هو أن شهلي من يصنع تلك القصص ليحدد للشيخ علاقاته بالناس، لماذا لم يطردوه ويبحثوا عن آخر أكثر صدقا أو أقل كلاما؟ منح شهلي اسما جديدا هو رأس الثعلب، ناداه به أول مرة فوجده يبتسم في فخر، قال له في ازدراء:

- عندما يكون راعي الغنم يحمل رأس حمار، وكلب الغنم برأس ثعلب، يجب ألّا تندهش إذا رأيت الراعي يقتل غنمه ويطعم الذئب.

أجابه شهلي باستحسان:

- الله عليك يا شيخ بشير.

لعنه بشير في سره، لكنه كان يحمد له أنه أكثر من يزيد من

كراهيته للبقاء، لا سيما أنه لم يترك له مساحة من الألفة مع أي شخص خارج العائلة تماما كما كان يفعل في طفولته، وارتاح بشير لذلك فهو لم يشفَ تماما من نظرة واحدة جاءته من رجل عجوز تمنى له التوفيق في مهمته الوهمية.

لم يكن موعد ليلة العهد قد تحدد عندما التقى بشير باركلي الذي أبدى دهشته من أنه لم يغير موقفه من المشيخة:

ـ غريب، كنت أظن أنك ستحبها، أنت مذهل.

أجابه بشير بإصراره على معرفة خطة الرحيل والتعجيل بليلة العهد التي ستنقل إليه فيها المشيخة رسميًا ليبدأ هو في حساب الأيام المائة لكي يرحل إلى الأبد، لم يستجب لمحاولات رأس الثعلب لتأخير الموعد، سانده باركلي في ذلك فحسم الأمر سريعا:

ـ بعد ثلاثة أيام، وستكون بداية الرحيل.

ثم أومأ بثقة:

ـ كل ما تريد أن تفعله وأنت الشيخ يجب أن يتم تدريجيًا، يجب ألَّا يشعر أحد أن هذا ما تريده، سيرغبون دائما في عكس ما ترغب أنت فيه. ستظهر سعادتك بالمشيخة ورغبتك فيها للجميع، في نهاية الليلة سيطلب منك شهلي أن تتحدث مع أهل البلدة، هم سيقسمون على الطاعة وأنت لن تقسم على أي شيء، ستتحدث معهم عن أي شيء غير مفهوم وسيستحسنون قولك، ثم لتقسم بجدك وأمك إنك سترحل من هنا وتترك هذه البلدة إلى الأبد إذا كان فيها من هو أجدر منك بالمشيخة. وليت عينيْك تدمعان في النهاية.

استنكر بشير الفكرة فأجابه موضحا:

ـ الدموع هنا إذا جاءت من الشيخ تعطيه ثقة وصدقا..

ـ وإذا جاءت من غير الشيخ؟

انفجر باركلي في الضحك:

ـ تصبح دليلا على الضعف والخيبة، ابتسم.. أنت في دجا.

صمت للحظة ثم بدا أكثر جدية وهو يقول:

ـ والعالم كله كذلك يا ولدي، كذابون يستعبدون الحمقى، ويتوارى خلفهم كل من تبقى.

هز بشير رأسه في استياء، خبطه باركلي على كتفه وهو يقول بصوت جاف:

ـ غدا ستفعل ما لم يفعله أحد في تاريخ دجا.

نظر إليه بشير مستفسرا، أردف باركلي وهو يضحك:

ـ ستفتتح المصنع.

(٢٣)

تذكر بشير دفتره الذي أهمله منذ أيام طويلة، بدأ يفتش عنه في كل مكان إلى أن وجده ملقى في واحد من أركان غرفته، استرجع كل ما كتبه فيه قبل أن يضيف إليه غاضبا وصفه الجديد.. الشيخ الطائر، شطبها ثم كتب تحتها (لا أنا الشيخ ولا أنا الطائر)، أراد أن يضيف كل ما سمعه من أكاذيب، شعر أنه لن يحصيها، كتب سطرا واحدا وهو يبتسم في مرارة:

(إحصاء الحقائق أيسر كثيرا من إحصاء الأكاذيب)، ردده مرتين ثم مط شفتيه وهو يصارح نفسه بأنه لم يعد أهلا لتسجيل الأكاذيب بينما هو شخصيًا أصبح واحدا ممن يروجونها حتى ولو كان ذلك في دجا، أشعل النار في دفتره وطوح به من النافذة المفتوحة وهو ينظر إليه في لامبالاة، لم يحاول أن يلقي عليه نظرة أخرى.

بعد ساعة تقريبا كان قد وصل إلى مكان الاحتفال مصحوبا بموكب صغير يتصدره هو، لم تكن حاله تختلف كثيرا عن حال أهل البلدة عندما وقف في ذهول أمام المبنى الضخم الذي تزين باسمه في المنتصف تماما:

تأكد في تلك اللحظة أن حرق دفتره لم يغير كثيرا مما يسكن عقله، شعر برغبة عارمة في أن يلعن أهل القرية جميعا وهو يسمع بأذنيه ما كانوا يتداولونه عن أن سرعة الانتهاء من إعادة تجهيز المبنى الذي احترق من الداخل (أمام أعين الجميع) هو كرامة أخرى للشيخ الجديد، وأن بشير سخر الجان الذين كانوا يسكنون المبنى لتحويله إلى مصنع ضخم يفيد أهل القرية. وأنه حوله إلى مصنع لأنه يريد أن يغير من حال البلدة. كاد بشير يضحك ساخرا ويسألهم عما سينتجه ذلك المصنع، كاد الفضول يقتله وهو يرى الناس يدخلون ويخرجون محملين بصناديق صغيرة عليها شعار المصنع الجديد، نادى على شهلي في لهفة ليسأله عما يحدث، أشار إليه شهلي ليدخل معه والجميع يحنون رءوسهم.

كان المبنى كما هو. كل ما تغير فيه هو الحائط الضخم الذي يخفي وراءه الغرفة التي احترقت بكل ما فيها من أثاث، وطلاء جديد كسى كل حوائطه بلون أصفر فاتح، هز بشير رأسه في إعجاب. كل ما فعلوه أنهم طلوه من الخارج والداخل.

الدور السفلي هو مصنع الأغذية، طبقا لكلام شهلي هو مطبخ كبير سيقدم لأهل البلدة يوميًا أطعمة مختلفة بأسعار زهيدة لكي يتفرغوا لأعمالهم.

الدور الأول، أطلقوا عليه مصنع السهالك، مصنع البخور والعطور وتباتات صرف الجان وماء الورد.

الدور الثاني مصنع الأجواش: يقدم أكياسا معدة من طعام الشياطين، الروث والدماء والميتة، لم تعد هناك حاجة لأن يستيقظوا كل يوم فجرا لإعداد ذلك.

نظر إليه بشير في دهشة مستفسرا:

ـ أستقدم للأجواش ما يسحرون به الناس يا شهلي؟

مط شهلي شفتيه وهو يبتسم قائلا:

ـ بارك يقول إننا يجب أن نكسب الجميع، الشر يمكن أن يقدم قربانا من أجل الخير يا ولدي.

هز بشير رأسه في استنكار، الشر طريق والخير طريق آخر حتى وإن تقاطعا لأن نوايا السالكين تختلف، بارك شيطان وشهلي مساعده، لكنه لم يجد لنفسه وصفا في تلك اللحظة، توالى دخول الناس وخروجهم، سأله في حيرة عن مكان باركلي فأخبره أنه سيجده في الغرفة العلوية، ذهب إليه بشير دخل عليه ليسأله في فضول:

ـ ما كل هذا؟

ابتسم باركلي في وداعة:

ـ المصنع. مصنع الشيخ يا شيخ بشير.. هل رأت دجا شيئا مثل هذا؟ هل سمعت ما أصبحوا يقولونه عنك؟

أجاب بشير في خزي:

ـ نفس ما كانوا يقولونه عن جدي..

ـ هز باركلي رأسه مؤمّنا:

ـ رغم أنك لست نصف جدك. هل رأيت نجاحا مثل هذا؟

لم يستطع بشير أن يجيب. ما فعله باركلي في أقل من شهر واحد ساوي ما فعله الشيخ عثمان في عشرات السنين؛ لهذا سكت، رفع رأسه فجأة وهو يسأل:

ـ أنا أفهم الروث والدماء والبخور، لكن كيف نقدم كل هذا الطعام؟

أشار باركلي إليه لينظر، في الجزء الخلفي من المصنع كانت هناك أربع عربات نقل متوسطة الحجم مغلقة الصندوق عليها شعار المصنع الجديد، أخبره باركلي ببساطة أنهم تعاقدوا مع الفنادق في أسوان ليجمعوا منهم بقايا الطعام بمقابل جيد بالنسبة إلى الطرفين. أردف باركلي بفخر:

ـ WIN.. WIN DEAL

قال بشير باستياء:

ـ قمامة؟

أجابه شهلي على الفور:

ـ نعمة ربنا يا ولدي. أليس هذا أفضل وأبرك من أن تلقى لكلاب؟

أراد بشير أن يقول شيئا لكن باركلي سبقه:

ـ هل تريد أن تعرف من الذي أبرم لنا التعاقد وبنسبة محترمة مع فنادق أسوان؟

لم يحتج بشير إلى تفكير طويل وهو يجيب بصوت مجروح:

ـ الخال هلال!

أجاب باركلي ضاحكا:

ـ وزوجته، برافو شيخ بشير، أنت تتقدم سريعا.

اقترب منه وهو يتابع:

ـ أنت الآن قدمت لدجا ما لم يقدمه أحد من قبلك، خدمت السهالك والأجواش والجميع، أنت الآن شيخ حقيقي. الناس في الخارج يدعون لك، سيقبّلون يدك بمجرد أن تمر عليهم، اتركها لهم، وسنعلنك شيخا في الأسبوع القادم، مبروك!

مال عليه شهلي يقبله بينما نظر بشير إليهما وهو يتنهد قائلا بصوت عالٍ:

ـ حتى هلال؟

ابتسم باركلي وهو يقول:

ـ وزوجته.

اتسعت ابتسامته وهي تتحول إلى ضحكة كاملة وهو يقول:

ـ وأنت أيضا يا بشير، لا تنس ذلك!

## (٢٤)

رغم أن بشير حضر قبل ذلك ليلة العهد عندما تولت أمه المشيخة، لكن الطقوس كانت قد عدلت خصيصا من أجل أمه، لم يسمح للرجال بالاقتراب منها كما حدث معه، يشمر كل منهم ساعديه ثم يصافح الشيخ الجديد تعبيرا عن احترامه وعن استعداده للعمل معه، أما الطقوس الإضافية فظهرت جلية من اللحظة الأولى. ابتسم بشير ساخرا وهو يردد لنفسه:

ـ العهد!

كان كل واحد من كبار السهالك يصافح بشير ثم يؤدي طقوسا تخصه على رأسه وتحت قدميه، يرش عليه سائلا ما، يلقي في وجهه مسحوقا، يمسك برأسه وينهمك في تمتمات لانهائية.

لم يسمح شهلي لصغار السهالك ولا للأجواش حتى بالاقترا من الشيخ الطائر. كانوا فقط يشيرون إليه عن بعد، المدهش أنه بمجرد الانتهاء من دخول الكبار وبدء توافد أهل البلدة، بدأت مظاهر المبالغة تتزايد. فبعد أن كان الأمر يتوقف عند تشمير جزء صغير من أكمام الجلباب بدأ البعض يشمرون الكم بأكمله، ثم أطلق أحدهم صرخة ابتهاج وهو يمزق أكمام جلبابه بمنتهى

الإخلاص، وتطور الأمر إلى أن امتلأت الساحة بما لم يصدقه بشير ولم يستسغه على الإطلاق، توالت المنافسة بين أهل البلدة إلى أن بدأ بعضهم في تمزيق ملابسه بالكامل وهو يصرخ في بلاهة ثم ينحني في خشوع، تبعهم العشرات في مشهد رآه بشير مثيرا للاشمئزاز.. هؤلاء لم يتحركوا من أماكنهم كما لو كانوا تحولوا إلى أصنام تسجد للصنم الأكبر الجديد، عبَّر بشير عن استيائه فأجابه شهلي في سعادة:

ـ هذا إعلان عن الإخلاص..

أجاب في حنق:

ـ لا أريده.

لم يجب شهلي بل أشار لرجاله، رآهم يدخلون حاملين قفصا يحوي القرد الفار، تعالت صيحات الفرحة من كل الجالسين، وضعوه في منتصف الساحة ووقف ناندو إلى جواره في فخر.

همس بشير:

ـ كيف اصطاده؟

أجاب شهلي بفخر:

ـ اصطادته الأرائك في الموعد المحدد مقابل حصة إضافية من الطعام.

تجمد وجه بشير وهو يتخيل صاحب القرد يناديه وهو يحمل في يده ثمرة من الفاكهة، والقرد يتردد ثم يستجيب لغنائه وصوته

القرود، ثم يصرخ لاعنا خيانتهم وهم يضعونه في قفص ويسلمونه لشهلي.

أخرج ناندو القرد من قفصه وأمسك به بإحكام، نظر إلى بشير منتظرا لكنه لم يفهم ما ينبغي عليه، مال عليه شهلي:

ـ اسمح له بقتله.

أجاب بشير في فزع:

ـ بالطبع لا، فليعده إلى الأرائك من حيث أتوا به.

أصر شهلي:

ـ ستعيد لأخيك هيبته، سيقتل روحا شريرة.

همس بشير في استنكار:

ـ أوجدْ لهيبته حلّا آخر، لا تقتلوه.

أومأ شهلي بالإيجاب مبتسما ثم رفع رأسه صائحا بصوت جهوري:

ـ الشيخ أمر بقتله.

تردد بشير في الاعتراض بما يكفي من الوقت ليضعه ناندو تحت قدمه بمعاونة رجال شهلي، ثم انهال على رأسه بعصاه وهو يصرخ في جنون، نكس بشير رأسه وأغمض عينيه وهو يسمع خليط صرخات ناندو والقرد وأهل البلدة المنتشين وأصوات العصا وهي تحطم جمجمته، رفع رأسه بعد انتهى الأمر ليرى وجه أخيه وملابسه تغطيهما الدماء وهو يضحك بانتصار.

نظر إلى شهلي في كراهية فأكد له معتذرا أنه لم يكن هناك حل آخر، ثم دعاه ليلقي خطابه الأول بعد أن أصبح شيخا، هز رأسه قائلا باستياء بصوت خافت:

- لا يوجد عندي ما أقوله. إنه هذا الأمر.

وقف شهلي ينظر إليه وهو يحثه على أن يقول أي شيء، فأدار بشير رأسه وهو يجيل عينيه بحثا عن ملامح الخيانة على وجوه الأرائك، وجدهم جميعا يلتفون حول نانلو وهو يرقص حاملا بقايا عدوه اللدود.

## (٢٥)

لم تدم احتفالات البلدة بشيخها لأكثر من يوم واحد، انتشر خبر مفزع في القرية كالدخان في غرفة مغلقة، حتى شهلي وبشير شعرا بالفزع رغم أنهما يعرفان ما لا يعرفه الآخرون، في النهاية هما ينتميان إلى نفس المجتمع. مهما تطور عقلك تظل عالقة به شوائب تنقلك في أي لحظة إلى العالم الذي جئت منه، أخبره شهلي بما يحدث في كلمات مبتورة، اللعنة حلت على البلدة، كانت حالات الحرارة العنيفة والارتعاش قد تتالت على مدار أيام فكتموها جميعا وكل منهم يحسبها حالة عارضة، انفجر الخبر وسط جموع مشيعي جنازة رجل من عجائز الأجواش، كان هو أولى الحالات، بدأ الجميع يذهبون لتفقد حالات الرعشة والحرارة العنيفة التي تركوها خلفهم وهم يحسبونها مرضا عارضا.

تفرق الجميع في دقائق، بشير غادر خائفا عندما رأى نظرات غضب هائل في عيون العشرات، ذهب معزيا ورحل متهما، عاد إلى المشيخة، أدهشته نظرات مماثلة من شهلي الذي كان جزءا رئيسيا من الاتفاق والذي عرف أنه لم يكن هناك لعنة ولا مبنى لعزل

مرضى الطاعون، يبتعد عن بشير وينطلق لسانه بالأدعية والترانيم بمجرد رؤيته، هو نفسه اضطرب كثيرا عندما كان يتحدث معه خاله هلال، وتأكد من أن التشخيص المبدئي لكل الحالات التي توفيت على التوالي هو الطاعون السمي.

عدد الموتى ومساحة البلدة الصغيرة جعلا إخفاء الأمر مستحيلا تماما، جلس بشير ينظر إلى باركلي الذي بدا هادئا في ترقب، بينما شهلي يولول ويصب عليه غضبه:

ـ نحن لعبنا بالنار. اللعنة أصابتنا لأننا اقتربنا منها، ألم أقل لك إن العبث مع ذلك المبنى لن يمر على خير.

نظر إليه باركلي في احتقار:

ـ شهلي أنت أحمق، ألم ترَ المبنى من الداخل؟ لم يكن فيه طاعون ولا لعنة..

نظر إليه بشير باهتمام:

ـ إذن ما الذي حدث؟

شرد باركلي للحظة ثم أجاب:

ـ أخطأنا التقدير يا بشير..

نظر إليه بشير مستفهما، تابع في هدوء:

ـ كنا نظن أننا نلعب وحدنا، هذا خطئي وأعترف به، هناك طرف آخر في اللعبة، استغل حكاية اللعنة وقرر أن يثبت أنك لعنت البلدة.

أجابه شهلي بحدة:

ـ الأجواش طبعا..

١١ الاستياء على وجه باركلي وهو يقول:

ـ لا أشعر أنك أحمق يا شهلي إلا في اللحظات التي تتوقف فيها عن التفكير، وتقرر أن الأجواش هم من فعلوا كل شيء!

سأل بشير بعصبية:

ـ إذن من فعلها يا باركلي؟

تنهد باركلي بعمق ثم استدار ليسأل شهلي مرة أخرى:

ـ إلى من ينتسب الموتى؟ هل هم سهالك، أم أجواش؟

أجاب شهلي على الفور:

ـ خليط، سهالك وأجواش، أغلبهم من النساء والأطفال، الرجال مازالوا يقاومون، والعدد يقترب الآن من العشرين. وعشرات الأسر بدأت تحزم حقائبها لكي ترحل خوفا من الوباء.

صمت باركلي وأغمض عينيه للحظة ثم تمتم:

ـ اللعنة!

علق شهلي هلعا:

ـ ألم أقل ذلك؟

تجاهله باركلي تماما وهو يخاطب بشير قائلا:

ـ هذه البلدة ليست منية يابشير. من يلعب معنا محايد مثلي، ليس عاطفيًا مثلك أو مثل هذا الأحمق. لا مانع عنده من أن يضحي بالجميع من أجل الإطاحة بك!

تردد شهلي وهو يقول:

ـ ألا يمكن أن تكون لعنة حقيقية؟

هز باركلي رأسه نافيا في سخرية:

ـ لا توجد لعنات يا شهلي، صدقني.

لم يبدُ على شهلي الاقتناع، وضع رأسه بين كفيه وهو يواصل تمتماته، أما بشير فقد كان حائرا وهو يتساءل في أعماقه حائرا: ن فعلها؟

* * *

تزايد عدد الوفيات بشكل مرعب في الأيام القليلة التالية. كاد بشير ينهار وهو يسمع أسماء من توالى موتهم في البلدة. نفذ كبار السهالك نصيحة باركلي الذي أكد عليهم ألا يستخدم أحد الماء الذي يأتي من البئر الكبيرة في القرية؛ لأنه يظن أن العدوى تأتي من هناك. أمر شهلي بأن يأتي بعربات محملة بزجاجات الماء المعدني من أسوان، نفذ شهلي الأمر على الفور.. وأمر بشير بأن يعلن للناس أن اللعنة أتت لكنه سيقاومها، وأن ذلك الماء ليس عاديًا بل هو ماء مبارك من أجل درء اللعنة عن دجا..

عرف بشير أن إمكانات هذه القرية عندما يخص الأمر المشيخة

ابر مما يظن، اندهش عندما رأى زجاجات الماء المعدني التي أت مكتوبا عليها بدلا من نوعها الأصلي وصف جديد:

## الماء الشافي

قبل أن يتجمع الناس لكي يستمعوا لرأي الشيخ الطائر في المصيبة التي تحدث، جلس بشير مع باركلي وشهلي معلنا هزيمته ورغبته في الانسحاب:

ـ لن أواصل هذه اللعبة، سأرحل. الناس يموتون ونحن نريد أن نواصل خداعهم.

نهره شهلي قائلا:

ـ لا علاقة لنا بالأمر، سواء كان الأمر لعنة أو خطة نحن لم نفعل ذلك، لا تتهمنا بما لم نفعل.

هز بشير رأسه نافيا:

ـ لن أبقى، سأرحل. أنا الآن الشيخ وسأفعل ما أريد..

أجابه باركلي برباطة جأش:

ـ من حقك، لكن عليك أن تفعل ذلك بالتدريج، أقترح أن تبدأ بإخبارهم بأنك ستحاول رفع اللعنة عن البلدة وإن فشلت فسترحل، إذا رحلت الآن فسيبحثون عنك في كل مكان بعد أن فتحت عليهم أبواب اللعنة. إلا إذا..

ترقب الجميع استدراكه، مط شفتيه وهو يقول:

ـ إلا إذا أعلنا أن اللعنة أصابتك أنت أيضا، ثم نعلن موتك ونقيم جنازتك وتختفي من هنا إلى الأبد.

خيَّم الصمت على الجميع، لم يستهجن بشير الفكرة على الإطلاق إلا أنه أدرك أنها تعني أن يترك خلفه آمه إلى الأبد، شهلي أشاح بيده معترضا وهو ينظر إلى باركلي في غضب، كان يعرف أن ذلك الأمر سيصم أسرة الشيخ إلى الأبد بل ربما جميع السهالك، حفيد داعو تصيبه اللعنة ويموت بهذه البساطة؟ حتى إذا قبل ذلك، فستعود الأمور إلى نقطة الصفر وسيصبح الأجواش أو أودا هما الأقرب إلى المشيخة، ألقى نظرة على وجه بشير فلم يرَ على ملامحه اعتراضا واضحا، صاح في غضب:

ـ اللعنة عليك. أي شيطان أنت؟ النقود التي أخذتها مني ما كانت لتقنع بشير بالبقاء؛ بل لكي تساعده على الرحيل.

ضحك باركلي ساخرا:

ـ لا توجد شياطين في الدنيا يا شهلي، هذه حماقة أخرى من الحماقات التي تتحدثون عنها.

ـ استغفر الله العظيم. أنت بالفعل شيطان يا باركلي؛ شيطان كافر.

قاطعه بشير في توتر:

ـ أنت تعرف أنني سأرحل في النهاية يا شهلي.

أجابه على الفور:

ـ بعد المائة اليوم، هذا هو الاتفاق.

هز باركلي رأسه رافضا:

ـ لا فائدة يا شهلي، لن تنجح خطتك، بشير لا يصلح. لن يستسيغ الأمر مهما حدث.

بدا واضحا أن باركلي قرر أن ينفض يديه من الأمر وهو يشرح لبشير خطة شهلي رغم اعتراض الأخير، الوثيقة التي تركها الشيخ عثمان وراءه اختارت الأيام المائة لأنه كان يرى أن من يجلس على كرسي المشيخة لن يستطيع الاستغناء عنها بعد أن يستقر عليه، بحر العسل اللزج الذي يستحيل أن يخرج منه أحد، شهلي بعد كل مارآه يؤمن بذلك، تغير الاتفاق بينهما من المشيخة الكاملة إلى المائة اليوم التي ستجذب بشير إلى المشيخة حتى النهاية.

نقل بشير عينيه بينهما في غضب شديد، لم يلتفت باركلي إليه بل خاطب شهلي في صرامة:

ـ النقود كانت مقابل مجيئي إلى هنا ومساعدتكم، وأنا فعلت كل ما طلبتم مني، لست مسئولا عن أنك اخترت هذا الضعيف ليصبح شيخا، أعطني غيره وأنا سأجعله شيخا عظيما..

نظر إليه بشير بازدراء، بينما زاد الغضب على ملامح شهلي وهو يفكر فيما قاله باركلي.. أخذ بشير نفسا عميقا، طلب من شهلي أن يعلن عن اجتماع للعائلة، ثم قام من مكانه دون أن ينظر إلى باركلي الذي ظل جالسا في مكانه في هدوء تام.

أدهشه صوت شهلي الذي بدا له مخيفا وهو يقول لباركلي:

ـ أمامك حتى الغد لكي ترحل.. أنت غير مرحب بك هنا!

ابتسم باركلي باستهزاء، لم ينطق سوى بكلمة مقتضبة:

- OK

قام من مكانه بنشاط ليغادر، أمسكه بشير من يده في غضب وهو يقول:

- انتظر، أنت وعدتني بأنك ستخرجني من دجا.

نظر باركلي إليه وهو يمط شفتيه ممتعضا:

- المشكلة منذ البداية لم تكن في خروجك من دجا يا بشير، المشكلة في خروج دجا منك، صدقني لآخر مرة. الأسهل لك أن تبقى هنا وتعيش مثلهم.

أفلت يده برفق وابتعد دون أن يلتفت إليه مرة أخرى.

## (٣٦)

اختفى باركلي فجأة كما ظهر فجأة، شعر بشير بأنه أصبح وحيدا في سفينة مثقوبة قفز منها قبطانها وتركه في مواجهة عاصفة لا ترحم؛ عاصفة صنعوها بأيديهم، فقد ملاكه وشيطانه في بضعة أيام. كان بشير جالسا في صمت كئيب وهو يرى أمه تتلوى من الألم. أصابها ما أصاب المئات من أهل القرية، والذي لم يحمل هو له تعريفا واضحا ؛ تسمما أو مرضا أو لعنة، لم يكن ذلك هو ما يشغله وهو يراها أمامه تصرخ وتتألم وتهذي بقصص طويلة من الماضي وتناديه باسم أبيه طالبة منه ألا يتركها ويرحل، كان هلال وناندو وشهلي يجلسون معه حولها في صمت.. قام بشير فجأة صائحا في تصميم:

ـ هيا يا خال. هيا بنا، سنذهب بها إلى المستشفى في أسوان.

نظر إليه هلال في تردد.. تدخل شهلي بصوت خافت:

ـ لا أحد يفر من القضاء يا شيخ بشير.

صاح بشير في عصبية:

ـ لن أتركها تموت أمامي. سآخذها للعلاج وإذا ماتت هناك فهذا قضاؤها، أما ما نفعله الآن فهو قتل.

صاح شهلي في غضب:

ـ لن يتركوك ترحل الآن، ستمنحهم الحجة لقتلك أنت أيضا.

نظر إليه بشير في إحباط، تابع شهلي:

ـ إن كانت لعنة فلا مفر لك منها، وإن كانت خطة كما قال باركلي، فهل تظن أن من قتل كل هؤلاء لكي يبعدك عن المشيخة لن يتردد في قتلك إذا منحته سببا؟ أنصت إليَّ يا شيخ بشير..

أدار بشير رأسه في اتجاه هلال الذي علق بصوت خافت:

ـ يبدو أنه على حق يا بشير، ربما أخطأنا في تقدير الأمر، ظننا حصولك على المشيخة هو نهاية المعركة.

أجاب بشير وهو يكاد يبكي:

ـ لكنها أمي..

قاطعه هلال مشفقا:

ـ لو أن أمك في حالتها لكانت ستمنعك من الخروج.

نظر إليه بشير بازدراء وهو يقول:

ـ أنت منهم يا خال. يا صاحب مصنع الأغذية.

أومأ هلال صامتا. كان الجميع يترقبون ما سيحدث، كانت سبحة أروكا قد تمزقت بين يديها وسقطت حباتها على الأرض واحدة تلو الأخرى، وكان هو يراقبها وقلبه يكاد يتمزق. استجمع قواه ثم قال بصوت صارم:

ـ أنا الآن شيخ دجا. وأستطيع أن أتخذ ما أراه الأفضل والأخير لهذه البلدة ولأسرتي هذه.

اندهش الجميع من الثقة الآمرة التي كان يتكلم بها، أشار ناندو بيده إلى بشير في احترام ليقول ما عنده.

أخذ بشير نفسا عميقا ثم قال:

ـ أضف إلى الوثيقة الحاكمة يا شهلي أن الشيخ يحق له التنازل عن المشيخة بمجرد أن يتسلمها، لا حاجة لنا في المائة اليوم.

أجاب شهلي مستنكرا:

ـ لا يجوز لك أن تغير من الوثيقة. داعو هو من كتبها ولا يغيرها أحد.

ضحك بشير في عصبية وهو يقول:

ـ أنا سأغيرها، داعو هو الذي طلب مني ذلك في الرؤيا وأنا قبلت، هل ستكفر بالشيخ، أم بداعو يا شهلي؟

لم يجب شهلي، تابع بشير:

ـ أنا لن أبقى هنا. سأرحل ولن أوصي بالمشيخة لأحد، فلا أريد أي علاقة لي بالأمر لا من قريب ولا من بعيد، سآخذ أمي بحالتها هذه وأخي ونرحل معا، هذا هو قراري النهائي.

خيم صمت تام لدقائق، لم تستطع أودا أن تخفي ابتسامتها، حتى أمه رفعت رأسها ناظرة إليه وعلامات الألم مرتسمة على وجهها.

ـ كان ناندو هو أول من قطع خواء الصمت، هز رأسه ومط شفتيه وهو ينظر إلى بشير مترددا ثم قال:

ـ أنا لن آتي معك. أنا باقٍ هنا..

نظر بشير إليه في إحباط ثم أشاح بيده بلامبالاة، تدخل شهلي في الحديث قائلا:

ـ أنت تفسد كل شيء. إذا تركت هذه البلدة بدون شيخ ليوم واحد فستكون مذبحة.

ضحك بشير في عصبية:

ـ إنها مذبحة على أي حال. هل تعرف كم ماتوا حتى الآن؟

ـ أفراد. رحيلك سيقتل جماعات.

صاحت أودا في غضب:

ـ لا تتدخل فيما لايعنيك يا شهلي، ارحل يا بشير وأنا سأحميك منهم ومن أنفسهم.

نظرت أروكا إلى شهلي وهي تصرخ غاضبة:

ـ لماذا تقرر كل شيء دون أن تسألني؟ هذه حياتي، دعني أرحل مع عرفات، خذوا ماتريدونه ودعوني أرحل معه..

التفتت إلى أودا غاضبة وهي تقول:

ـ وأنتِ أيتها الحرباء. لم تريديني قط أن أكون الشيخة إلا الآن.

عندما عرفت أن زوجي على وشك الرحيل مع امرأة أخرى إذا لم أذهب معه، هل تعاستي أهم عندكِ من كل أحلامك ومطامعك؟

امتقع وجه أودا تماما. حاولت أن تبدو طبيعية لكنها لم تستطع، بدا لبشير أن أروكا لم يصبها مرض ولا جان بل أصابتها نقلة عقلية، آلة زمن أخذت عقلها ونقلته إلى محطة أخرى غادرها القطار منذ سنوات طويلة، مع كل كلمة منها كان يرى ماضيها واضحا وإن كان أبيض وأسود رغم أن كل ما كان فيه رمادي.

تمالكت أودا نفسها رويدا رويدا.. ضغطت على كلماتها وهي تسأل:

ـ متى سترحل يا بشير؟

أجاب شهلي بتحدٍّ:

ـ لن يرحل يا أودا، لا بد أن يوصي قبل أن يرحل.

تعالت الأصوات لتصم آذان بشير، الكل يتكلم في آن واحد. ناندو يصيح في توتر فلا يفهم شيئا مما يقول، صوت أودا الحاد وهي تنهر شهلي الذي كان يؤنب بشير غاضبا على تفريطه في حق أسرته وعلى إفساد ذلك المكان الفاسد. آهات أمه المتتالية وهي تلوم أودا على ماضٍ يكاد بشير يجزم أنه حدث بالفعل وبكل تفاصيله، وصوته هو شخصيًا خارج من عقله يأمره بالرحيل ثم بالبقاء وبالبقاء ثم بالرحيل. يتهمه بأنه شريك في الدماء من قاتلهم اللعنة ـ حقيقة كانت أو مصطنعة ـ باتفاقه مع باركلي. يشعر أنه يتمايل في زار مع الذين كان يتمايل معهم أثناء طفولته بحكم التقليد. يريد أن يصرخ

لكنه يتراجع، يضع كفه على أذنيه محاولا ألا يسمع، إلا أن صوت أودا اخترق أذنيه:

ـناندو!

صمت الجميع تماما. كان الكل يحدق في أودا مستفسرا، شهلي ينظر إليها، قام ناندو ومشى متثاقلا ليقف خلف أودا التي أكدت:

ـ بشير رحل عنا طويلا وناندو لم يرحل، بشير لا يريدها وناندو يريدها، فليرحل وليعد بعد تسعة وتسعين يوما ويوصي لناندو.

قاطعها شهلي غاضبا:

ـ ناندو معطوب.

أجابت أودا من فورها:

ـ ناندو ليس معطوبا.

أجاب شهلي في غضب:

ـ كل أهل القرية يعرفون أنه معتل منذ ذلك اليوم.

أجابته في خبث:

ـ ناندو قتل الروح الشريرة التي أصابته عندما حطم رأس ذلك القرد.

لم ينتظر بشير المزيد ليصيح في حزم:

ـ أنا شيخ دجا أعلن انتقال المشيخة لأخي ناندو، وأعلن أنه شفي من علته، لا حاجة لأحد في قتلي لأن المكان شُغِلَ بآخر. أبلغوا أهل القرية على الفور..

ابتسمت أودا في انتصار، كانت تعرف أن انتقال المشيخة من بشير هو الخطوة الأصعب في صراعها مع شهلي، ناندو يكره شهلي أكثر مما يكرهها، قامت من مكانها على الفور لتتأكد من نشر الخبر متجاهلة اعتراضات شهلي، لمعت الدموع في عيني ناندو الذي اقترب من بشير ليحتضنه.. أوقفه بشير بإشارة صارمة من يده وهو يقول في حزن:

ـ لا تقترب يا ناندو.. ابقَ معهم.

## (٢٧)

انتهى الأمر ولم ينصت أحد للمعترضين، ساعدهم كثيرا تفشي الوباء الذي دخل كل بيت فلم يترك عقلا لدى أحد. أوراق عثمان كانت تقول ذلك؛ اشغلهم بمصائبهم حتى لا ترتفع الرءوس بحثا عنك، تذكرها بشير وهو يتحرك ليلا مع هلال وأمه محاطا ببضعة رجال أحضرتهم أودا وأمرتهم ألا يفارقوه إلى أن يخرج من دجا، لم يكن هناك واحد من أهل البلدة خارج بيته، وعدته أودا بأنها من سيرد على أهل البلدة في تجمع المساء وأنها ستضمن سلامته عند السهالك والأجواش، لكنه لم يكترث كثيرا.

كانت السيارة تبتعد عن دجا في سرعة، خلفها سيارة أخرى تقل رجال أودا الذين انسحبوا بعد بضعة كيلومترات، بدا له أن مهمتهم لم تكن حمايته بقدرما كانت للتأكد من رحيله، هلال يقود في صمت، وبشير يحتضن أمه التي تتأوه في ضعف، انسابت دموعها في ألم وهي تقول:

ـ بشير. أنا لم أترك ناندو للثعبان.

أجابها في شفقة:

ـ استريحي يا أمي.

تابعت كما لو لم تسمعه:

ـ دهنت جسده ولسانه بخلاصة الحزا التي لا تخيب أبدا، كنت أعرف أن الثعبان لن يقترب منه بمجرد أن يشم رائحتها.

اتسعت عينا بشير وهز رأسه في فهم، تنهد في ارتياح وهو يتأكد في كل يوم أن هذه المرأة وإن كانت لعنتها المشيخة إلا أنها كانت دائما أمًا حتى النهاية. لم تضحِ بأي منهم، حتى المشيخة قبلت أن يتركها لولا مرضها الذي جعلها مسلوبة الإرادة مثل كل هؤلاء الذين كوَّنوا دجا في البداية كما حكى له باركلي، نظر إليها ممتنا، ابتسم في شفقة وهو يسمعها تسأله:

ـ إلى أين ستأخذني يا عرفات؟ إلى أسوان؟

قبَّل جبهتها دون أن يجيب، كان لأول مرة منذ عودته يشعر بالحرية، لكن ذهنه كان مشغولا بما سيحدث في دجا بعد رحيله، وكان متأكدا من أنه رغم وعود أودا سيقضي ما تبقى من حياته مهددا. برغم من ذلك كان شعوره بالراحة والتعب كافييْن ليغيب في النوم.

لم يستغرق الأمر طويلا ليجد بشير نفسه في واحدة من غرف المستشفى جالسا إلى جوار أمه، استراح بشير كثيرا عندما شخَّص الأطباء حالتها على أنها بالفعل حالة تسمم كما توقع باركلي تماما، بدد ذلك آخر ما تبقى في قلبه من احتمالية أن تكون اللعنة حقيقة، شخَّص الطبيب هذيانها أيضا في كلمة واحدة:

ـ ألزهايمر.

تنهد وهو ينظر إلى أمه التي تدلى من ذراعها خرطوم طويل يحمل سائلا شفافا وخرطوم آخر يخرج من أنفها ثُبِّتَ فيه بلاصق أبيض يخفي عنه شيئا من ملامحها التي كان يتفحصها بدقة كما لو كان يحاول أن يحفرها في ذهنه، كان يخشى أن تكون هذه هي آخر نظراته إليها. سالت من عينيه دموع ساخنة لم يجد داعيا لإخفائها في وحدته، كان يرى أن حياة تلك المرأة كانت قاسية، وهو يتساءل: لماذا كان عثمان الدجاوي يرى أن المشيخة تستحق التضحية لأجلها؟ ولماذا كان يرى أن تركها في ذريته خير لهم، اقترب منها فوجدها نائمة في هدوء، لم يرها قبل ذلك نائمة بكل هذا العمق والوداعة..

التفت إلى الباب الذي فتح ليجد نور واقفة أمامه، من خلفها كان هلال واقفا يبتسم في سعادة وهو يقول:

ـ لحقها بها قبل أن تغادر بلحظات، حقيبة ملابسها في السيارة!

لم يقل بشير شيئا ولم تنظر هي حتى إليه. مالت على رأس أروكا وقبلتها وعيناها تلمعان بالدموع، استدارت إلى بشير وقالت بصوت جاف:

ـ سأبيت أنا معها، اذهب مع خالك.

حاول بشير أن يثنيها عن ذلك لكنها أصرت، أقنعته بجملة مقتضبة:

ـ فوج الكلية غادر. ولا يمكنني العودة إلى الفندق.

ابتسم بشير في امتنان، وقف ينظر إليها في حب فأدارت رأسها

بعيدا. لم تستجب لمحاولاته في الحديث معها وإن بدا عليها ضعف المحبين، دخلت ممرضة شابة لتطالبهم ببقاء فرد واحد في الغرفة، فجذبه هلال من يده برفق، ثم غادرا المستشفى.

أصر هلال على أن يأخذه إلى فندق بدلا من دعوته ليبيت معه، لم يكن يحتاج إلى الكثير من الذكاء ليعرف أنه خائف من شهلي والأجواش وخيانة أودا، هو أيضا كان قلقا لذلك لم يقاوم كثيرا، عبَّر له عن مخاوفه فيما يخص أمه ونور فأجابه بثقة:

ـ ربما يفكرون في الانتقام منك، لكن أنا وأمك ونور لا نعني لهم شيئا.

بعد وقت قصير كانا يجلسان معا في غرفة الفندق، كانا منهكين تماما، سأله هلال في اهتمام:

ـ ماذا ستفعل الآن يا بشير؟

أجابه في إرهاق:

ـ لا أدري لكنني سآخذ أمي وأعود إلى القاهرة.

أومأ برأسه وهو يقول:

ـ أعرف، لكنني أسألك عن نور.

نظر إليه بشير مندهشا من توقيت السؤال.

عاجله في غضب:

ـ ألا زلت تفكر؟ لن تجد مثلها مرة أخرى يا ولدي، أعرف ما يدور في رأسك الغبي فأنا متزوج من روسية، فكرت مثلك قبلها في الأمر كما تفكر أنت؛ لهذا أقول لك يا بشير: لا تتأخر أكثر من ذلك.

أغمض بشير عينيه ولم يفتحهما إلا عندما هزه هلال في غضب قائلا:

ـ اسمع يا بشير، هذه هي الفرصة الأخيرة لك مع نور. لا يمكن أن تغفر لك فتاة رفعت الراية البيضاء أمام حبها لك فأجبتها أنت بكل صلف: دعيني أفكر، لن تفهم ظروفك لأنك لم تفهم ظروفها هي شخصيًا بوصفها فتاة مصرية يعيها أن تجري وراء حبها، نور قطعت آلاف الكيلومترات لكي تصل إليك، بقيت خطوة واحدة تركتها لك لكي تأخذها لكنك لم تفعل. اللعنة عليك وعلى ضعفك، أنت تحبها فلماذا تتعلل بكل شيء من حولك؟ أنا شخصيًا أشك في أنك تحبها فعلا. هي تحبك ولا شك فقد كان بإمكانها أن تجد آلاف الأسباب لتهرب مبتعدة عنك وعن عقدك وعن المشاكل التي تحملها، لكنها لم تفعل. هذه الفتاة تضيع من يديك. صدقني يا ولدي عندما أقول لك إنك ستلتقي في حياتك بواحدة يمكنها أن تغير حياتك، قد تمر من أمامك دون أن تهتم أنت بها أو دون أن تهتم هي بك، أما أن تجدها بين يديك وتتركها لأنك متردد أو حائر، فستعيش طوال عمرك نادما عليها، تبحث عن بقاياها في كل من ستعرفه من النساء. اسمع مني يا بشير: نور فرصة عمرك.

لم يجبه بشير بل أغمض عينيه مرة أخرى وهو جالس في مكانه، نظر إليه هلال في ازدراء وهو يقول:

ـ أنت أيضا منهم يا بشير. مثلي تماما.

ثم ترك الغرفة وخرج صافقا الباب.

## (٢٨)

لم تكن ليلة بشير هادئة، ارتعش جسده عدة مرات من برودة الجو ومن خوفه مما قد يحدث، طلب غطاء إضافيًا وتدثر به وهو يتساءل عما يحمله له الغد، كان في حالة ما بين النوم واليقظة عندما انتبه على دقات باب غرفته في فزع، الساعة لم تتجاوز الفجر إلا بدقائق، وجد أمامه خاله الذي كان يقف مرتعدا وهو يقول:

ـ لقد جاءوا بحثا عنك يا بشير، لم يبدُ على وجوههم الخير، بحثوا عنك في منزلي ثم غادروا.

سأله بشير في هلع:

ـ من هم؟

أجابه بصوت مضطرب:

ـ لا أدري. قد يكونون رجال شهلي أو الأجواش أو حتى أودا، كلهم يستخدمون رجالا من خارج البلدة في أمور مثل هذه.

قام بشير من مكانه فزعا وهو يقول:

ـ لا بد أنهم ذهبوا إلى المستشفى أيضا.

هز هلال رأسه نافيا:

ـ لا يمكن، هم جاءوا إليّ لأنهم يعرفون بيتي، لكنهم لن يعرفوا أي مستشفى.

أجابه بشير في قلق:

ـ لا توجد سوى ثلاثة مستشفيات كبرى هنا، لا بد أنهم فتشوا عني فيهم. وعثروا على أمي ونور..

انتقل قلقه إلى هلال، قام بشير ليرتدي ملابسه فأمسك به هلال قائلا:

ـ انتظرني أنت هنا. فهم يريدونك أنت.

أصر بشير على الذهاب لكن هلال لم يسمح له، أقنعه أن ينتظر إلى أن يتأكد من أنهم ذهبوا، وافق بشير على مضض، ظل جالسا في مكانه لا يهدأ لما يزيد على الساعتين، سيطر عليه القلق تماما. وجد هلال واقفا أمامه إلى جواره نور التي كانت عيناها محمرتيْن من البكاء بمجرد أن رأت بشير صاحت منتحبة:

ـ كانوا يبحثون عنك، وعندما لم يجدوك أخذوها يا بشير.

قام بشير غاضبا وهو يقول:

ـ كيف؟ المستشفى لا يمكن أن تسمح بذلك.

أجابته في حسرة:

ـ استنجدت بالطبيب المناوب وطلبت منه أن يبلغ الشرطة، لكنه قال لي إنه لا يستطيع..

سألها بشير في دهشة:

- لماذا؟

أجابت بحسرة:

- خروج بناء على طلب ابنها يا بشير، ناندو كان معهم.

أسند بشير ظهره إلى الحائط لكيلا يسقط. هز رأسه في حسرة وهو يقول:

- ابنها!

أكدت كلامها وهي تواصل بكاءها:

- جريت خلفه ورجوته أن يتركها، لكنه لم يجبني، هو أيضا بدا لي خائفا أو مغلوبا على أمره.

همس في أذني قائلا:

- قولي لبشير ألا يعود، واطلبي منه أن يسامحني!

ساد صمت قطعته نهنهات متقطعة من نور، أنهاه هلال وهو يقول برباطة جأش:

- على الأقل عرفنا مَنْ وراءهم.

أدار بشير رأسه في لهفة متسائلا:

هز هلال رأسه نافيا وهو يقول:

- بل شهلي، لا أحد يلزمه وجود أروكا هناك سواه، سيجعلها

توصي مرة أخرى بعد أن تنازلت أنت عن المشيخة، سيقول إن انتقال المشيخة إلى ناندو منك باطل؛ لأنه يخالف الوثيقة الحاكمة.

ـ لكن ناندو كان معه.

أجابه في حيرة:

ـ ربما أجبروه.

قال بشير نافيا:

ـ أودا تعرف كيف تحميه منهم، هناك شيء مريب، لابد أن أعود.

هز هلال رأسه في استنكار وهو يقول:

ـ سيقتلونك قبل أن تدخل، لابد أنهم أعدوا الأمور لذلك.

نظر إليه بشير في حيرة وهو يقول:

ـ وهل ستسكت أودا؟

ابتسم هلال في حسرة وهو يقول:

ـ ستسكت إذا قدم لها عرضا جيدا. كما قلت أنت، أودا لم تحاول أن تحمي ناندو منهم.

بقي بشير ساكنا في مكانه للحظات، نظر إلى نور في اضطراب. لم تنتظر نور كثيرا، أمسكت بيده وهي تهمس في رجاء:

– تعالَ معي إلى القاهرة يا بشير.

هَزَّ رأسه مقاوما:

- لن أترك أمي هناك يا نور، سيحبسونها ويعلنون جنونها.

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تهمس في ضعف:

- لا تتركني يا بشير، أنا أحبك وأريدك، أما هناك فلا أحد يريدك، تعالَ معي لنرتب أمورنا ثم نعود لتأخذ أمك ونغادر إلى الأبد.

كان متعبا لأقصى حد، وكان ضعفها يثيره، هو نفسه كان خائفا من العودة. تدخل هلال في الحوار قائلا بصرامة:

- اذهب معها يا بشير. اذهب معها الآن وقرر كيفما تشاء ما ستفعله بعد ذلك، لابد أنهم جميعا يعدون مؤامرة كبيرة ضدك الآن، شهلي لم يمنعك من الرحيل لأنه لم يكن مستعدًا، لا بد أنه استعدَّ الآن.

وقف ينظر إليهما صامتا. ظلت نور تنظر إليه في رجاء للحظات، ثم تحولت نظراتها إلى خيبة الأمل عندما كرر بخشونة:

- لن أترك لهم أمي.

أجابه على الفور:

- عودتك تعني نهايتك ونهايتها، حياتها لا قيمة لها إلا إذا ظلت أم الشيخ الغائب، يجب أن تبقى بعيدا وصاحب حق في المشيخة فهي لن تخرج عن نااندو وأودا أو حتى الأجواش، سأذهب أنا إليهم وأخبرهم بأنك تريد أمك وأموالك وإلا ستعود لهم مطالبا بالمشيخة مهما طال الوقت أيًا كان من سيأخذها. وجود أروكا يعيد كل شيء إلى نقطة البداية.

أجابه بشير في حيرة:

ـ أموالي؟

كانت تلك هي المرة الأولى التي يفكر فيها بشير بأن له أموالا من حقه أن يحصل عليها بعد مرض أمه، لكنه لم يدرِ كيف يمكن أن يحصل عليها، أكد له هلال أنه سيحضر له نصيبه من أموال أسرته.. حتى إذا لم يفرج شهلي عن أموال أروكا فأودا تملك الكثير، ستعطيه ما يحتاجه وزيادة لتتخلص منه إلى الأبد، وهي ستعرف جيدا كيف تأخذ من شهلي حقها.

سأله بشير في قلق:

ـ وأمي؟

أجاب بحدة:

ـ نقودك تأخذها أولا. أما أروكا فلن يستطيع أن يمنعك من أن تأخذها بعد أن يتولى الشيخ الجديد مقاليد الأمور. وبالتأكيد لن يريدها أحد وهي على حالتها، أروكا انتهى دورها بالنسبة إلى الجميع، يريدونها الآن لنقل المشيخة، بعد ذلك.. لن يريدها أحد.

## (٢٩)

لم يقوَ أي منهم على الكلام في طريقهم إلى القطار، كانت الأفكار والمخاوف تزدحم في رءوسهم جميعا، تطور الأمور يجعل استعراض الماضي أيسر كثيرا من التخطيط للقادم، بشير فقط كان يقلب في رأسه فكرة ألحت عليه فجأة، أو ربما اشتد عودها بما يكفي لتصبح في صدارة ما يسيطر عليه من أفكار، بعد دقائق معدودة كان الثلاثة يدخلون محطة القطار في قلق، أنهى هلال كل إجراءاته، أعطاهم التذاكر وهو يقول بصوت كئيب:

ـ عودا إلى القاهرة، وأنا سألحق بكما!

قفزا في القطار المتجه إلى القاهرة بعد ساعة واحدة تقريبا، كان بشير يشعر بشيء من الاطمئنان كلما نظر إلى نور، وكانت هي تحادثه كل بضع دقائق لتؤكد له أن الأمور كلها ستكون بخير، فيتساءل في حيرة عن مصدر القوة التي تمتلكها نور والتردد الذي يحمله في داخله. كان هذا هو ما يدور في رأسه في الساعة الأولى من الرحلة والتي لم ينطق خلالها بحرف واحد. الإجابة الوحيدة التي وجدها هو أنه تربى على الخوف، زرعوه فيه، نور تواجه كل شيء وتفعل ما تريد. أما الدجاوية فخلف كل حساباتهم قوى علوية

وسفلية وبشرية لا تعرف أبعادها. داعو والجن والسحر، غضب الله وملائكته عليهم إذا لم يطيعوا الشيخ، رغم أن كل ما يفعلونه في نظره يغضب الله. هو نفسه نُصِّبَ مندوبا لله وجعلوه بشرا أفضل منهم رغم أنه لا يملك دليلا على ذلك، غير أن رجلا إنجليزيًا مقيتا أطلق عليه الشيخ الطائر.

راح في النوم للحظة فوجد حلمه يطارده مرة أخرى، كل من عرفهم في دجا يحتشدون أمام عينيه وينخرطون في قتال دام، أمه وخالته وناندو وجنة وشهلي، حتى باركلي رغم أنه الوحيد الذي كان يقاتل وهو يضحك ساخرا. من بعيد كان هناك شبح ضخم لرجل يشير بأصابعه فيقفون ثم يشير إليهم مرة أخرى فيتوقفون، ارتجف بشير وهو يجده أسمر البشرة متفخ الشفتين أحمر العينين، وكان وجهه متجهما تماما، صورته كانت تطابق صورة داعو في عقل بشير، ارتجف بشير مستيقظا في فزع.. اختفوا جميعا. واختفى معهم داعو. هل هذا كل شيء؟ كل ما يحتاجه ليتخلص من الجني الأكبر في حياته، أن يفتح عينيه؟ أن يستيقظ من نومه ليرى الحقائق. نور حقيقة والقطار حقيقة وهؤلاء البشر الذين يتحركون من حوله حقيقة. أما داعو فهو كذبة كبيرة زرعوها في عقله ولم يسمح لنفسه بالتحرر منها.كانت نور أيضا نائمة، أراحت رأسها على كتفه وغابت في النوم، يستطيع أن يشم رائحتها التي تداعب أنفه فتثير في داخله مشاعر متضاربة. هذه الفتاة الجميلة التي أسلمته روحها وقلبها. أليس هذا سببا كافيا له لكي يجعلها شريكته فيما تبقى من عمره؟ مسكينة نور. ما الذي يمكن أن تفعله مع شاب قادم من الجنوب، إذا تمنعت عنه فسيرحل؛ لأن كرامته لن تسمح له بالسعي وراءها. وإذا أقبلت عليه فسيتعد عنها

خوفا منها، لكن شعوره الآن تجاهها في تلك اللحظة يختلف تماما. رغم جرأتها في كل ما فعلت إلا أنه الآن يشعر لها بالامتنان؛ لأنها السبب في رحيله من تلك البلدة الملعونة التي ينتمي إليها. غالبا إذا لم تأتِ كان سيبقى هناك إلى الأبد. نور تحميه، تمنحه قوة لا يجدها في نفسه بدونها، انتبه على رنة هاتفها المحمول وهي تقول:

ـ خالك هلال..

شعر بشير بارتياح شديد عندما أخبره هلال بأن أمه بخير، وأنه اتفق معهم على كل شيء..

سأله في فضول:

ـ وما هو كل شيء؟

جاءه صوت هلال مرحا بما يكفي ليطمئن وهو يقول:

ـ بشير. أمك بخير وناندو بخير، أودا أعطتني نقودا سآتي لك بها، كل شيء على ما يرام!

لم يفهم بشير كل شيء لكنه فهم أن أمه بخير وأن أودا دفعت لكيلا يعود، وهو لن يعود على أي حال. بعد كل ما مر به كان عليه أن يبدأ حياته الجديدة، عندما نزل في القاهرة كانت الساعة تقترب من السادسة مساء، سألته نور عما إذا كان سيذهب إلى مسعد أم إلى مكان آخر، شرد للحظات ثم رسم على وجهه ابتسامة ناقصة وهو يخبرها أنه سيذهب للقاء أمها اليوم، نظرت إليه في ذهول تام. شعر بلذة المبادرة لأول مرة في حياته عندما رأى المفاجأة على وجهها، لدهشته هزت رأسها رافضة وهي تقول:

ـ اليوم؟ مستحيل.

نظر إليها متسائلا في حيرة، فضحكت وهي تقول:

ـ لا تغضب. لكن هناك تجهيزات خاصة لهذه الزيارة أحلم بها منذ سنوات..

تكلمت في انطلاق، دستة (الجاتوه) من المحل الشهير، وتجهيز الصالون للاستقبال، وجارتها التي ستضع لها مساحيق التجميل واستحمام أخيها الصغير. ضحك ساخرا، عاجلته هي قائلة بجدية:

ـ أنا لا أمزح. لا بد من الاستعدادات.

مع إصراره على الذهاب أخرجت هاتفها المحمول محدثة أمها، أخذته إلى متجر ملابس كبير في منطقة شعبية واشترت له قميصا أنيقا وبنطلونا فاتح اللون، ثم ذهبا إلى مطعم شهير للوجبات السريعة. بعد العشاء طلبت منه أن يدخل لتغير ملابسه في حمام المطعم. لم ترقه الفكرة في البداية إلا أنه فعلها تحت إلحاحها، أطلقت صافرة طويلة من فمها جعلت كل من في المكان ينظرون إليهما، مالت عليه وهي تهمس ضاحكة:

ـ بدل ملابسك مرة أخرى. بهذه الأناقة ستأخذك أمي لنفسها.

وصلا إلى الشارع الضيق المزدحم الذي تسكن فيه، كانت الساعة تقترب من التاسعة مساء ومع ذلك تشعر أنك في منتصف النهار من الزحام، العيون مصوبة إليه وإليها أو هكذا بدا لبشير لكنه لم يهتم. نفس النظرات التي رآها في دجا عندما سارا معا، نفس الهمسات ومصمصات الشفائف. دجا أكبر كثيرا من بقعة صغيرة

على الخريطة، دجا تركية في عقول ونفوس الكثيرين، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. ربما العالم بأكمله يعاني من وجود دجا، ربما يكون لكل واحد من هؤلاء داعو الذي يتحكم في حياته ورأسه وهو مجرد هلاوس مصطنعة.

عندما كان بشير يصعد السلم الضيق ملاصقا لنور كانت أفكاره تتوالى، خجل من نفسه عندما فكر في احتمالية أن تكون نور متمسكة به رغم كل ما رأته منه ورغم أنه ليس ذلك الشاب الجميل الهيئة لأنها فقيرة بما يكفي لتتمسك بأي فرصة، لكنها تحبه وهو تأكد تماما من ذلك. لا يهم كثيرا ما الذي جعلها تريده في البداية، المهم أنها تفعل.

أفلتت منه جملة اعتراضية:

ـ أنا شخصيتان!

التفتت نور إليه مجيبة على الفور:

ـ وأنا أعرف.

دخل إلى الصالون الذي تنبعث منه رائحة المنظفات، عود من البخور الذي يجري وراءه من دجا هناك إلى هنا يبعث خيطا رفيعا متراقصا من الدخان يتراقص أمامه. وصبي في الثانية عشرة من عمره تبدو آثار الاستحمام بادية عليه يبتسم في تفحص. نفذت أم نور الخطة كاملة في ظرف ساعتين! كانت أمه دائما تقول إنه يمكنك أن تعرف المرأة من أمها، أما الرجل فتعرفه من صداقاته.

تشاغل بشير بالحديث مع الصغير في حوارات تقليدية معتادة، سنة الدراسة واسم المدرسة وما يريد أن يصبح عندما يكبر، قال في فخر:

ـ ضابط.

أجاب بشير في بساطة:

ـ وأنا أريد أن أصبح مدرسا.

رفع الصغير حاجبيه في دهشة:

ـ ألست عمدة؟

لكزته نور في بطنه فتأوه،أجاب ضاحكا:

ـ لا. أمي هي العمدة.

دخلت أم نور بعرج تذكر بشير سببه فابتسم رغما عنه، نظر إليها مندهشا، إذا كان هذا ما تبدو عليه الآن فكيف كانت تبدو من عشرات السنين؟ بشرة بيضاء جميلة وعيون عسلية تميل إلى الخضار وأنف دقيق حاد، كانت أجمل من نور كثيرا ولا شك. عبَّر عن إعجابه بها فبدا على نور الضيق وهي تقول:

ـ أعرف أنها أجمل مني. كلهم يقولون ذلك!

أجاب بابتسامة كبيرة:

ـ هي الأصل يا نور.

لم يبدُ على السيدة الكبيرة أي انفعال خاص، رسمت على شفتيها

ابتسامة مجاملة تعبر عن أنها سمعت مثل ذلك الكلام كثيرا، كانت مجرد جلسة تعارف خاصة تأخرت بعض الشيء. بدا له أن هناك ما يزعجها في لقائهما معا. احتار قليلا فيما يدور في رأسها إلى أن أفلت منها في وسط الحوار وهي تسأله عن أسرته إذا كان أحد منهم تزوج من خارج دجا، أم لا؟ حدثها عن خاله هلال وزوجته الروسية. فأتبعت رده بسؤال مباشر عن (لون) مولودهما. وهل جاء أبيضَ لأمه، أم أسودَ لأبيه؟ هزت نور كتفيها بما يعني (ماذا أفعل فيها؟)، بينما أجاب هو في برود متعمد:

ـ لم ينجبا.. لكني أعتقد أنه سيكون أسودَ فاحما لأبيه.

فامتقع وجهها الأبيض لمجرد تفكيرها في لون حفيدها المنتظر. ماذا سيحدث عندما تراه؟ ستنهار بالتأكيد.

انتقلت إلى عدة أسئلة لا يملك لها أي إجابات. السكن والسيارة، وهل سيعود إلى دجا، أم سيبقى هنا؟ كانت الأسئلة تتوالى وهو لا يجيب. لم يكن يفهم السبب الذي جعل هلال يتحدث عن النقود وهو ذاهب ليرى حال أمه، ببساطة المال هو ما يضمن أن يكون بشير أيضا بخير بعد أن يقطع كل صلاته بدجا. بشير يعرف أنهم أغنياء، لكنه لم يكن يعرف تحديدا أين يوجد مفتاح الكنز. لم يواجه أبدا إشكالية توفير المال في أي وقت. ولم يكن ذلك من المواضيع التي يتحدث عنها أحد في دجا. لكنه يذكر مثلا أن أمه ذهبت قبل ذلك في زيارة من أجل علاج أميرة عربية وظلت هناك لمدة أسبوع كامل. كانت الأميرة عقيما، يوما ما وجد الأبواب تطرق ورأى بعينيه جواهرَ وأموالا يفهم قيمتها جيدا الآن. ما كان يعني أمه في

الأمر كان هو أن الأميرة حملت على يديها، جارية الأميرة التي جاءت بالهدايا أخبرتها أن الأميرة تنتظر أي أمنية لتحققها، طلبت منها أروكا أن تسمي المولود أروكا إذا كان أنثى وعثمان إذا كان ذكرا، ابتسمت الجارية في حنق وهي تقول:

ـ أفضل ألا تطلب منها ذلك.. اطلبي المزيد من المال أفضل؛ فالملك لو عرف أنك تختارين اسم ولي العهد فقد يقطع رأسك من هناك!

من الذي أخذ الحقيبة والصناديق الصغيرة وقتها؟ شهلي. إلى أين ذهب بها؟ لا يعرف بشير.

انتهت الزيارة بعد أن تحولت بمرور الوقت إلى حمل ثقيل بدا واضحا على ملامح الأم. امرأة وحيدة مثقلة بهموم أسرة تركها لها زوجها ورحل.. تنتظر دخول رجل إلى تلك الأسرة سريعا ليحمل عنها. نور أيضا عاشت طيلة حياتها تبحث عن رجل في حياتها؛ لهذا لم تقاوم كثيرا الوقوع في حب بشير.

قضى بشير ليلته في فندق صغير لا يبعد كثيرا عن بيت نور، طرأت له الفكرة مما فعله معه هلال في أسوان. لم يكن يريد أن يذهب إلى بيت زميله الذي يعرفونه جيدا ولا أن يقضي ليلته هناك. تلقى اتصالا هاتفيًا من هلال بعد أن اشترى هاتفا محمولا وبعث له بالرقم عن طريق نور:

ـ أين أنت؟

أجابه بشير في دهشة:

ـ أنا في فندق صغير.

ـ أعطني العنوان.

بعد ساعات قليلة كان هلال واقفا أمامه، اختار أن يأتي بالطائرة خوفا على الحقيبة التي حوت مبلغا لا بأس به من المال، ناوله لبشير وهو يقول:

ـ ليس مبلغا كبيرا، لكنه يكفي لتغطيتك لبعض الوقت.

لم يفتح بشير الحقيبة بل سأله في توتر:

ـ وأمي؟

أجابه شهلي:

ـ أمك بخير، رأيتها بنفسي حالتها تحسنت كثيرا. ولكن..

نظر إليه بشير في تفحص، بدا صادقا وإن كان يخفي شيئا.

ـ أكمل يا خال.

تنهد هلال وهو يقول:

ـ أعادوا أروكا إلى المشيخة يا بشير.

رفع بشير حاجبيه في استفسار:

ـ ألم أتنازل لناندو، وأودا أعلنت للناس ذلك؟

هز هلال رأسه:

ـ أودا قالت إنها ستعلن لكنها لم تفعل ذلك، أعلنت أنك أوصيت

لها ثم رحلت من دجا خلف البنت القاهرية، واستشهدت برجالها وببعض الأجواش فأكدوا كلامها.. ثم أعلنت أن أروكا عندما عرفت رحلت وراءك بحثا عنك، شهلي أيضا لم يعلن أنك تنازلت لناندو بل تمسك بالوثيقة الحاكمة واتهمها بالكذب. لهذا أرسل ناندو ورجاله ليأتي بك أو حتى بأروكا لكي يثبت أنه على حق، وعندما عاد بأروكا بدأ الناس يشكون فيما قاله أودا، ثم معركة كبرى جعلت الأجواش يسلمون بأنك أنت الشيخ، وأن انتقال المشيخة منك الآن سيؤدي إلى عذاب شديد لأهل دجا..

سأله في توتر:

- معركة بين السهالك والأجواش؟

قلب هلال كفيه وهو يضحك ساخرا بأسى:

- بل الأجواش والأجواش، فما بين الأجواش الذين اتفقوا مع أودا وبين الاجواش الذين يرون أن الوقت مناسب لتنتقل إليهم المشيخة تقاتلوا إلى أن تدخل الكبار وقرروا جميعا أن تعود المشيخة لأمك، وهم ينتظرون الآن أن توصي هي بها من جديد.

أشاح بشير برأسه وهو يقول:

- اجعلوها توصي بها لناندو.

أطلق هلال زفرة طويلة وهو يقول:

- أمك لن تستطيع أن توصي لك ولا لناندو يا بشير، يبدو أن حالة السمم التي أصابتها قضت على ما تبقى من عقلها. لم تعد تعرف أحدا ولم تعد تنطق بأي كلام مفهوم، مجرد كلمات منفردة. شهلي

سمح لهم فقط برؤيتها عن بعد ليتأكدوا من أنها موجودة في دجا، ويريدك أن تعود وتستكمل المائة اليوم قبل أن ينقل المشيخة لناندو غصبا عن أودا.

أجابه بشير في حيرة:

ـ شهلي الآن يريد ناندو، وأودا لا تريده.

نفى هلال في ثقة:

ـ شهلي لا يريد أودا، وأودا لا تريد شهلي، هذا كل شيء.

أدرك بشير كل ما حدث، هو وناندو لا يمثلان الكثير لهما، شهلي استبعد ناندو عندما شعر أن أودا تسيطر عليه، وأودا استخدمته ثم استبعدته عندما ظنت أنها تخلصت منه ومن أروكا. والآن شهلي استعاده بعدما أثبت له نوايا أودا، فأقنعه بالذهاب لاستعادة أمه من المستشفى انتقاما من أودا على الأقل.

جلس بشير يحدق في هلال لدقائق دون أن يتكلم.. ثم همس كما لو كان يخاطب نفسه:

ـ هل تريدني أن أصدق أن شهلي وأودا يملكان القدرة على كل ذلك التخطيط، هما اللذان جاءا من سلالة من المختلين عقليًا؟

ـ ماذا تعني؟

أجابه بثقة:

ـ أعني أن الأمر أكبر منهما، كما قال باركلي: هناك من يدير اللعبة. داعو ومن صنع داعو ومن صنع من صنعوا داعو..

أردف بعد لحظة:

ـ أنا لن أكون جزءا منها، انتهى الأمر. وإذا كان ناندو اختار أن يبقى هناك فليبقَ. لكن أخبر شهلي أنني لن أعود ولن أترك أمي، فليرسلها لي وليفعل ما يريد في كل من هناك، فتلك البلدة مسكونة بالفعل.

* * *

ـ أمك وأموالكما!

نظر بشير إلى نور في صمت، واصلت هي بحماس:

ـ يجب أن تأخذ منهم أمك وحقها وحقك. لا تفرط في أي شيء.

أجابها بشير محبطا:

ـ أعتقد حتى إنهم سيتركون لي أمي، شهلي الآن هو الذي يحكم من وراء تمثالها الحي، تماما كما كانت أودا تريد أن تحكم من وراء تمثال ناندو، لولا أنها طمعت في أن تصبح هي الشيخ بدلا منه ومني فأفسدت كل شيء بطمعها، سيواصلون صراعهم إلى أن ينتصر أحدهما، أو ربما يأخذ الأجواش المشيخة.

علقت في شرود:

لا بد أن تأخذ أمك الآن يا بشير قبل أن تتغير الأمور في اتجاه غير متوقع.

غطى وجهه بكفيه، كان يحاول أن يجد مخرجا ليأخذ أمه ويرحل بعيدا، لم يكن موضوع المال في اهتماماته عندما كان

يظن أن المشيخة محصورة بين ناندو وأودا، كلاهما لن يحرمه من أمواله فهي ليست غايتهما، حتى شهلي إن حرمه من ماله فسيكون ذلك عقابا له على الرحيل وليس طمعا فيه. لا أحد هناك ينشغل بالمال، أنت ملك متوج في مملكة بائسة لاتعرف الرفاهية. المتعة في المشيخة، السيادة والحكم والسمع والطاعة.

ـ محامٍ!

هكذا صاحت نور فجأة، فتح بشير عينيه ثم أجابها في حدة:

ـ أقول لك: لا يوجد عندنا قسم شرطة، تقولين لي: محامٍ؟

نظرت إليه في جدية:

ـ ألستم بشرا! لكم أسماء وشهادات ميلاد وتاريخ؟

هز رأسه في صبر:

ـ صحيح.

صفقت بيديها وهي تصيح:

ـ إذن يمكنك توكيل محامٍ بالطبع، اختصم الجميع وأثبت الحالة الصحية لأمك. نحن في القرن الواحد والعشرين. لماذا أنت ودجا تأخذانا إلى تفكير القرن العاشر؟

كانت الفكرة وجيهة وإن لم يدرك بشير إمكانية تحقيقها، منذ ولد ولا أحد يحكم وينهي في دجا سوى العرف والشيخ والأفكار البالية. عقَّب في إحباط:

ـ لا وجود للقانون هناك.

هزت رأسها نافية في إصرار:

- القانون موجود في كل مكان، كونك لم تفكر في الاستعانة به لا يجعله غير موجود. أليست بلادكم جزءا من مصر؟

- حتى هذه ليست أكيدة.

ضغطت على يده وهي تؤكد:

- اسمع كلامي،نذهب غدا إلى المحامي، سنأخذ أمك ونأخذ نقودك.

صمتت للحظة ثم سألت ضاحكة:

- هل تحب أن آتي لك بالخالة أودا أيضا؟

ابتسم بشير على قدر ما استطاع، حماسها يدهشه كالمعتاد لكنه كان يشعر باليأس تماما من ذلك الأمر.

صاحت هي غاضبة:

- ما بك؟ من الذي يعنيك هناك الآن؟ لم يعد لك في دجا أي شيء يخصك، ليس لديك ما تخسره.

- لا شيء..

- إذن موافق؟

رفع كتفيه في استسلام:

- موافق.

## (٣٠)

كان يظن أن نور ستأخذه إلى واحد من المحامين المعتادين في مصر. قريب أو صديق أو جار، لكنها ذهبت به إلى مكتب حمدي شعبان، أحد أشهر المحامين. عضو مجلس شعب محترف متعدد المواهب. هو شخصيًا تم اعتقاله قبل ذلك في قضايا تخص الأمن العام. قرأ عنه بشير كثيرا في الجرائد ورآه في التلفاز، دخلا إلى مكتبه المكون من عقار كامل فذهل. لم يفهم مقدار النقود التي يمكن أن يأخذها منهما رجل مثل حمدي شعبان إلا أنه كان يثق في أن نور تفعل أي شيء.

دخلا إلى أحد المحامين العاملين في مكتبه. طلبت نور مقابلة الأستاذ بنفسه فانفجر الجميع في الضحك. كان ذلك ردًا أكثر إقناعا بكثير من الإجابات التي من قبيل: الأستاذ لا يقابل أحدا، ولا بد من موعد سابق وأشياء من هذا القبيل. شعر بشير بالحرج وجذبها في اتجاه الخروج، تحررت من يده وصاحت بصوت عالٍ:

ـ أخبره أن الشيخ بشير شيخ دجا يريد أن يقابله.

زاد بشير حرجا، نظر المحامي الصغير إليها بشك وتساؤل عما إذا كانت جادة، أم أن الأمر لا يعدو كونه مزحة من شباب مختل.

سأل في تردد:

ـ هل هذه قرية؟

أومأ بشير برأسه

تابع الشاب تساؤلاته:

ـ تتبع أي مركز؟

ـ دجا لاتتبع مراكز.

نظر إليه مستنكرا:

ـ أنتما تمزحان؟

كانت تلك اللحظة مناسبة تماما ليرى الوجه الآخر لنور اكتشف أنها عندما تغضب تتحول لامرأة أخرى يمكنها أن تنفث دخانا من أنفها وفمها تماما مثل أمه التي ضرب مرض ألزهايمر عقلها. انطلقت بعدة أسئلة استفهامية تبحث معه عن السبب الذي سيجعلهما يمزحان معه، ثم بدأت في تعليقات من نوعية: كنت أظن أن هذا مكتب محام محترم، لكن اتضح لي أنك شخصيًا تظن أن المكان يصلح للمزاح. ثم أشهرت الكارت الأخير بمطالبة صريحة وواضحة لمقابلة صاحب المكتب؛ لأن من الواضح أن أحدا غيره لن يستجيب لمطالبها.

هدَّأ المحامي الصغير من روعها، بدا لبشير أنه خائف مما سيحدث في الحالتين. إذا أخذ الأمر بجدية واتضح أنه هزل، وإذا اعتبره هزلا واتضح أنه جاد. أجرى الشاب مكالمة سريعة مع أحد أصدقائه النوبيين. نظر إلينا بعدها بهدوء وهو يسأل:

ـ ما المطلوب بالتحديد؟

ابتسمت نور بانتصار وهي تشير إلى بشير ليتكلم وعلى وجهها ابتسامة انتصار:

ـ تفضل.

أعلن بشير مطالبه في بساطة:

ـ أمي وما يخصني من نقودها.

هز رأسه متفهما، طلب الكثير من البيانات ثم أخبره بأن ينتظر منه اتصالاً في خلال يومين على الأكثر.

في اليوم التالي مباشرة، جاءه اتصال من مكتب الأستاذ حمدي. لدهشته وجدت أنه هو شخصيًا من يحادثه. أبلغ نور واتجها إلى هناك، عندما دخل عليه اهتزت مباشرة صورة المحامي الشهير الذي يرتدي البدل الأنيقة ورابطات العنق الفرنسية. كان يرتدي قميصا أخضر اللون مفتوح الصدر وسلسلة ذهبية ضخمة، عاجله هو مباشرة:

ـ أنت ابن الشيخة أروكا؟

أجابه بإيماءة من رأسه:

ـ الشيخ أروكا.

تابع دون أن يفهم ما يقصده:

ـ بعد اليوم لا تذكر بلدك، اذكر أمك أولا، أمك أشهر من بلدكم..

لم يعرف أمديح هذا أم ذم. تدخلت نور في الحوار وهي تقول:

ـ حضرتك تعرفها؟

ألقى الملف الذي كان يحمله بين يديه وهو يجيب في سخرية:

ـ لا أعرفها ولم أسمع حتى عنها. لكن هناك من يعرفونها، أمك دولية يا أستاذ. أنت تقول إنها جنت، أليس كذلك؟

أجاب غاضبا:

ـ ألزهايمر. ليست مجنونة.

نظر إليه كما لو كان يستفهم عن الفارق، ثم هز رأسه وهو يقول:

ـ مفهوم مفهوم. ألزهايمر وليس جنونا، هل لديك تقارير طبية بحالتها؟

احابت نور:

ـ نحن لا نملك حتى فرصة إخراجها من دجا لنذهب بها إلى طبيب؛ ولهذا نريد مساعدة حضرتك.. لكن يمكننا أن نأخذ تقريرا من المستشفى في أسوان.

سأل بشير وهو ينظر إلي عينيه مباشرة:

ـ هل تعرف كم تبلغ ثروتكم؟

هز بشير رأسه نافيا وهو يجيب:

- مشكلتي ليست النقود، أنا أريد أمي أولا وبالطبع أريد أن أجد لديّ ما يمكنني من رعايتها والإنفاق عليها.

اجاب بحدة:

ـ أنا يا بني يهمني النقود.. خطيبتك قالت للأستاذ إنها ستدفع ـــة! وأنا موافق، سآخذ ٢٥٪ من أصل المبلغ ومن الأملاك التي ـاجعلك وصيًا عليها.

صاحت نور:

ـ ٢٥٪؟ لا طبعا.. نسبة كبيرة جدًا.. لا نستطيع أن ندفع أكثر من عشرة في المائة يا أستاذ.

مط شفتيه وهو يقول:

ـ لا ليست كبيرة، أنا لا أعرف ما يمكننا أن نحصل عليه من هده القضية، قد تكون الخمسة والعشرون في المائة لا تساوي ما أحصل عليه من قضية طلاق واحدة.

ابتسمت نور له في ود وهي تقول:

ـ أستاذ حمدي.. حضرتك كأنك والدنا.. نحن الآن لانملك شيئا كما أخبرت المحامي الذي يعمل معك.. خلاصة الأمر، ١٠ في المائة.. إذا كان المبلغ كبيرا فأنت الفائز؛ لأن النسبة ستكون ضخمة.. وإذا كان المبلغ صغيرا فلن يُحْدِثَ ذلك فارقا كبيرا مع رجل بحجمك. ولكنه سيكون كثيرا علينا لأننا لا نملك سواه!

كانت لهجتها تتباين ما بين الترغيب والاستعطاف، وحماسها يثير دهشة المحامي وبشير على حد سواء. انتظر حمدي إلى أن أنهت كلامها ثم أشار إليها بسبابته وهو يقول:

ـ أنت تصلحين محامية رائعة. وجهة نظر مقنعة، لكن عموما أنا أبيع مثل هذا الكلام ولا أشتريه. ٢٥٪ آخر كلام.

قامت نور لتغادر وهي تقول:

ـ هيا يا بشير، شكرا يا أستاذ.

تشاغل عنهما بالنظر في أوراقه، تردد بشير في المغادرة إلى أن جذبته نور من يده. كان يظنها تناور لكن اتضح له أنها جادة تماما في الأمر، عند باب الغرفة أوقفهما بلهجة آمرة:

ـ انتظر.

استدارا في ترقب، أشار إليهما ليجلسا فابتسمت نور في انتصار، أمسك بهاتفه وطلب رقما:

ـ أهلا بمعاليك، كنت أريد أن أستسمح حضرتك في معرفة تخص العميل الذي تحدثنا عنه بالأمس، أريد أن أتحرى عنه حتى أستطيع تقدير الأتعاب؛ لأنه مفلس.

ـ نعم.. أمه هي أروكا..

ضحك بانتعاش وهو ينهي مكالمته:

ـ شكرا جزيلا لسيادتك، طبعا حقك محفوظ يا فندم.

هز رأسه في استحسان وهو يضع سماعة الهاتف، التفت إلي بشير متجاهلا نور تماما:

ـ أنا موافق على عشرة في المائة، هل يمكنك أن تحكي لي كل شيء من البداية وحتى اليوم؟

حكى بشير لحمدي شعبان كل شيء. استغرق الأمر مايزيد على الساعة. كان المحامي يستمع إليه وهو يتشاغل بأوراق أمامه، ويقاطعه من أجل مكالمة هاتفية. سكت بشير عدة مرات فوجده يسرد عليه الجزء الأخير مما قاله في كل مرة؛ ليثبت له أنه يسمع جيدا. أما نور فقد كانت تبدي انفعالات متباينة بين ضحكات ساخرة ودموع تلمع ونظرات شفقة أو تشجيع.

انتهى بشير من الحكاية وانتظر ردًا من الأستاذ. جاءه بعد دقائق طويلة بتنهيدة:

ـ الأمر أصعب مما كنت أتوقع. بلدكم خارج نطاق القانون.

نظرت إليه نور مستفسرة. أجاب موضحا:

ـ اسمع يا بني. القانون هنا يغطي شريحة ضخمة جدًا من البشر. لكن أطراف اللعبة تسقط أحيانا. بمعنى أن هناك مناطق وأفرادا فوق القانون، ومناطق وأفرادا تحت القانون. أنتم عالم منفصل لا يهم أحدا؛ لذلك لن تجد تحركا سريعا. أنا أستطيع أن أحصل على حكم بوصايتك على والدتك وأموالها.. لكن أين هي أموالها، ومن سيكون مسئولا عن إجراء تحقيقات لمعرفة ما تملكونه من أصول وأموال؟ وهل هي باسمها، أم باسم جدك، أم باسم طرف ثالث؟ سيستدعي هذا لجانا وخبراء. ربما تضيع القضية لدى الخبراء؛ لذلك فالأمر صعب.

قاطعته نور:

ـ والحل؟

ابتسم في دهاء:

ـ يجب أن تصبح دجا بلدا ذا أهمية خاصة قبل أن تبدأ.

نظرا إليه في صمت، أمسك بهاتفه وأجرى مكالمة أخرى:

ـ أستاذ أحمد فهمي. عندي لسيادتك تحقيق صحفي مهم ومثير، بلد منسيّ في جنوب مصر نريد أن نتحدث عنه، والمدخل لطيف جدّا، بلد بأكمله يحترف أهله الدجل والشعوذة، الناس يحبون مثل هذه الأشياء.

صمت قليلا ثم أجاب في ثقة:

ـ طبعا. سلسلة تحقيقات مدفوعة الأجر، وستجري حواراتك مع شيخ البلدة شخصيّا.

وضع هاتفه ثم التفت إليهما قائلا:

ـ هكذا انتهينا. المطلوب من سيادتك إلى أن ننتهي من هذه الحملة أن تجد وظيفة مناسبة وسكنا مناسبا وتتزوج أنت والآنسة، هكذا يصبح لدينا كل العوامل المقنعة لنطلب نقل أمك من دجا إلى هنا تحت رعايتك.. مفهوم؟

أجابه في استسلام:

ـ مفهوم.

كانت نور في منتهى السعادة وهي تؤكد له أن الأستاذ سيتصرف، بينما لم يفهم بشير ما سيفعله الرجل بالتحديد. في المساء التقيا مع مسعد الذي أعلن بدون تردد عن استعداده لترك الشقة لهما لتصبح سكن الزوجية المؤقت، وأنه سينتقل خلال فترة الامتحانات ليعيش مع زملاء يبحثون عن رفيق سكن جديد، وقررت نور أن تذهب في الغد لمقابلة مديرة المدرسة التي كان بشير قد حصل فيها على عمل قبل أن يعود إلى دجا. أما دورها الأكبر فقد حصرته في إقناع أمها بإنجاز زواجهما خلال أسابيع قليلة:

ـ اتركوها لي. أنا أعرف جيدا ما أفعله معها.

في اليوم التالي التقيا بالصحفي في مكتب الأستاذ حمدي. أخرج جهاز تسجيل صغيرا، وأخبرهما أن هذا دليله في حالة أن يكون ما قيل غير صحيح. طلب من بشير أن يمده بأوراق أو بصور. اتصل بشير بالخال هلال وحكى له كل ما حدث، لم يُبْدِ فرحة أو سعادة بل على العكس بدا قلقا وهو يقول بصوت خافت:

ـ أنتم تلعبون بالنار يا بشير.

بعد يومين بالتمام والكمال كان الخال هلال يقف أمامه هو وزوجته الروسية التي أخذت بشير بين ذراعيها في حب جارف لم يعرفه منها من قبل. رأته بطلا خرافيًا على طريق تغيير أحوال دجا التي لم تتغير منذ عرفتها.

فاجأه الخال هلال بكل ما يحتاجه؛ صور للبلدة، صورة لجده عثمان، ومبلغ إضافي من المال، نظر إليه مترددا في قبوله فابتسم وهو يقول:

ـ هذه هديتي، ستحتاجها لإتمام الزواج..

ثم جذبه إلى صدره في حب صادق.

ألقى هلال بجسده على المقعد المتهالك الموجود في ركن الغرفة وهو يشرح لبشير ما حدث في توتر لم يستطع أن يخفيه:

شهلي بدأ في مشروع لصناعة الشيخ ناندو، جعله يدير المصنع واستفاد بفكرة أودا وأعلن أن الروح الشريرة قد غادرته إلى الأبد بعد أن قتل القرد بيديه، وأن الرؤيا جاءت لهما في نفس الليلة تحمل تكليفا له بأن يصبح الشيخ.

لم يبْدُ بشير مكترثا وهو يسأل في هدوء:

ـ وأودا؟

أجابه من فوره:

ـ أودا تحاول الاستعانة بالأجواش لكنهم الطرف الأضعف، عندما لم تجد فيهم أملا عادت إلى خطتها الأولى، قالت إن ناندو لا يصلح لأنه معطوب. لكن مجلس كبار السهالك اجتمع وأعلن خلو ناندو من العطب، لكنها لم تيأس.. جعلت واحدا من رجالها يعلن في وسط الناس أن عليه قتلك؛ لأنك من الرافضين وإلا لن تجوز له المشيخة.

غاص قلب بشير في صدره، بلل شفتيه بلسانه وهو يسأل في اضطراب:

ـ وماذا سيفعل ناندو؟

رد هلال وهو يمط شفتيه:

ـ لن يفعل شيئا،ناندو فعل من فوره، هشم رأسه بعصاه أمام المشيخة وهو يعلن أن الشيطان تلبسه وأنه يريد أن يشعل الفتنة، قال في صرامة مخيفة إن صفحتك انطوت إلى الأبد، وإنه لن يسمح لأحد بالحديث عنك، وإنك لست رافضا بل معفيٌّ بأمر سماوي.

أطلق زفرة مضطربة وهو يتابع:

ـ ناندو يبدو مختلّا تماما.

أجاب بشير شاردا:

ـ لكنه حماني منهم

هز هلال رأسه مؤمنا:

ـ بالفعل.. لكن لا تأمنهم؛ فشهلي وأودا لازالا هناك.

عندما عرفت نور بوصول هلال طلبت حضوره مع بشير إلى أمها لإنهاء إجراءات الزواج، في وجوده كان التفاوض مختلفا لاسيما أن المطالب لم تكن معقدة. خرجا بعد (زغرودة) مكتومة من أم نور التي أعلنت أن كتب الكتاب سيكون في الأسبوع القادم، اشتريا الشبكة والأثاث في يوم واحد؛ ربما ذلك ما جعل الموافقة أسهل على الأم كثيرا.

كانت نور أيضا في منتهى السعادة، في اليوم التالي استيقظ بشير وهلال وزوجته ومسعد على دقات متتالية، دخلت نور عليهما وهي

تحمل جريدة شهيرة تتصدر صفحتها الثالثة الصور التي أحضرها هلال.. عنوان التحقيق:

## دجا.. مسمار في كعب الوطن

في الداخل كان هناك تحقيق كامل عن دجا. عشرة في المائة فقط كان من الكلام الذي ذكره بشير.. والباقي لا يعرف من أين جاء، قصص عن حوادث نصب في مختلف أرجاء مصر، حكايات عن رجال أعمال وسياسيين يتعاملون مع أهل دجا، وحديث قصير عن جماعات إرهابية تعيش في تلك البقعة وتنتظر الفرصة لتنقض على الناس ليلا أو نهارا.

انتابت بشير حالة من الضيق وهو يقرأ التحقيق المكتوب، دجا تتحول من بلد الأكاذيب إلى وحش خرافي ضخم مخيف. تواصل نشر التحقيقات لثلاثة أيام كاملة، تبعتها عشرات المقالات في مختلف الجرائد تتحدث كلها عن الخطر المحدق بمصر من جراء وجود مثل هؤلاء الدجالين في بلد مسالم. أصبح يسمع عن دجا في كل مكان، في الشوارع والمواصلات، حتى مسعد أصبح يردد قصصا خرافية من خياله وهو يتحدث مع الناس عن دجا التي يعرفها جيدا بحكم أنه صديق شخصي لولي العهد.

دجا ليست مجرد مكان أو مساحة أو بلدة نائية ضربها الجهل والسذاجة؛ فأصبح الكذب هو ناموسها الذي لا يحيد عنه أحد. دجا نظام حياة كامل؛ دجا فكر منتشر في الوطن من أقصاه إلى أقصاه. ربما يكون منتشرا وموجودا في كل مكان، أم نور مثلا أصبحت

تسمي الله كلما رأت بشير وتحرك شفتيها بآيات تحفظها من شره
بعد أن عرفت من التلفاز أنه حفيد داعو، حاولت أن تتراجع عن
زواجه من ابنتها إلا أن نور كانت أقوى منها كثيرا. ومسعد أصبح
يظهر له احتراما مضاعفا لم يره منه قبل ذلك، أما الأستاذ حمدي
فقد سأله عما إذا كان هناك من أهل دجا من يمكن أن يساعده في
الانتخابات القادمة بتعويذة ما تزيد من محبة الناس له وتلقي على
منافسيه اللعنة.

## (٣١)

تزوج بشير نور في ليلة متواضعة لم تحمل من الضيوف سوى خاله وزوجته والأستاذ حمدي شخصيًا الذي بدا له أنه أصبح يتقرب من بشير على قدر استطاعته. كانت أمها تبكي وتردد المزيد من الآيات، أمسكت بابنتها وأقامت طقوس رقية بدت له ساذجة وغير محترفة مقارنة بما كان يراه في بلدته الصغيرة. ثم أتت له بكوب من الماء طلبت منه في خجل أن يشربه دفعة واحدة.. أفرغه في جوفه ثم مد يده في جيبه وأخرج منه منديلا ورقيًا مسح به عرقه وهو يقول:

ـ خذي هذا فستحتاجينه.

نظرت إلى المنديل المبلل في امتعاض فهمس لها مبتسما:

ـ خذيه. هذا أثر برائحتي.

ضحكت نور، أما السيدة الطيبة فأخذته ودسته في صدرها وهي تتمتم كالعادة.

في ليلة الدخلة قدمت له نور تعريفا جديدا ووافيا للمرأة. لم تجلس صامتة منتظرة أن تكون الهدية هي بداية فك طلسم الزوجة رغم أنه حكى لها ذلك الطقس، جلست على طرف السرير تقاوم

ضحكها فظن بشير أنها اقتنعت بالفكرة وتريد أن يبدأ به. أخرج لها هديته الأولى وهي خاتم صغير وضعه في حجرها وهو متقطع الأنفاس من فرط الانفعال، ضحكت في دلال وأدارت وجهها إلى الجهة الأخرى فأخرج من حقيبته هديته الثانية؛ خلخالا فضيًا فرعوني الطابع. مد يده به فجذبته من يده وسقط الخلخال أرضا. ألقت به على السرير وخلعت عنه ملابسه ثم خلعت ملابسها في زمن قياسي وهي تغني:

ـ أكلك منين يا بطة؟

أخذت هي المبادرة بجلسة تدليك كاملة أخذته إلى عالم خيالي، ثم تسلم منها الراية عائدا بها إلى الواقع الذي يعرفه جيدا، أن هذه الجميلة هي زوجته التي تملكه ويملكها، ولتذهب كل طقوس دجا إلى الجحيم!

في الصباح جلسا معا يتضاحكان ويمزحان إلى أن جاءت الأم ومسعد في زيارة صباحية كانت تحمل فيها طعاما يكفي أهل دجا بالكامل.

جاءته بعد يوم واحد مكالمة من الأستاذ حمدي. لم يصدق ما قاله له من أنه مدعو للظهور في برنامج تلفزيوني ليتحدث عن دجا وما يحدث فيها وعلى أرضها، أخبره أن هذا البرنامج هو الخطوة الرئيسية في برنامجه الدعائي. ظهرا معا في البرنامج. حكى بشير كل شيء. وطالب الأستاذ حمدي في نهاية الحلقة الحكومة بأن تساعده على أن يصل إلى أمه التي تحتاج إلى علاج مكثف لن تصل إليه هناك.

انتهى تسجيل البرنامج في الساعة الثامنة مساء ذلك اليوم، لم يكن بشيرسعيدا ولا حزينا، لكن نور كانت سعيدة جدًا بزوجها الذي أصبح وجها إعلاميًا شهيرا. أمها أيضا لم تستطع أن تخفي سعادتها وفخرها بزوج ابنتها وهي تجري عشرات الاتصالات الهاتفية بكل من يمكن أن تخبره بظهوره على الشاشة.

الثامنة مساء اليوم التالي. أربع وعشرون ساعة بالتحديد كانت كافية ليجد أمامه شهلي في مدخل شقته، كان يرتجف غضبا، لم يخفِ بشير خوفه منه وهو يتراجع، نظر إليه شهلي باحتقار وهو يقول:

ـ لا تخفْ، لن أؤذيك.

فتح حقيبته الضخمة المليئة بالنقود وعقد لعدد من قطع الأراضي في القاهرة وأخرى في الإسكندرية ومساحة ضخمة في المشروع القومي الجديد لاستصلاح الأراضي في صحراء الجنوب. وضعها جميعا أمام بشير ثم أردف غاضبا:

ـ المحامي اتصل بي. هددني بأنه لن يسكت وسيجعل مصر بأكملها تبحث عن دجا على الخريطة وفي الواقع. هو لا يخيفني، لكن طالما وصل بك الأمر إلى الخيانة فلا حاجة لنا إليك، نحن لا نريدك. أما عن أموالك وحقك فيما تركه جدك فلن نحرمك منه شيئا. هذا ميراثك من جدك. أما عن أموال أمك فلا حق لك فيها طالما أنها حية. لكن كما جاءك هذا المال سيأتيك المزيد عندما تستحق إرثها.

تدخلت نور في الحوار بحدة:

ـ وما الذي يجعلك أنت وصيًا على أمه؟ أليس هو بها أولى؟

أشار شهلي إليها باستياء لتصمت، نظر إليَّ في غضب.

ـ لا أدري ما الذي قلب حالك. على الأقل اجعلها منها أن تصمت عندما تتحدث.

أجابه بغضب:

ـ ولماذا تصمت؟ إنها زوجتي.

نظر إليه باستياء:

ـ تصمت لأنها لا تعرف شيئا. لا هي من أهلنا ولا من دمائنا ولا تعرف أصولنا وتقاليدنا.

قاطعته نور في عصبية:

ـ وما تقاليدكم يا شيخ شهلي؟ أن تمنعه من أن يأخذ أمه ليبقى كل شيء تحت سيطرتك؟

نظر إليها نظرة مخيفة وهو يجيب:

ـ تقاليدنا تقول إن زوجك خائن، وحكمه القتل!

تراجعت نور في خوف من نظرات ولهجة شهلي، التفت إلى بشير وهو يقول:

ـ هل نسيت ذلك يا ابن الشيخ، أم أنك تعرف أنني لن أفعلها؟ عموما أنت أفسدت كل شيء. وأنا أفسدت كل شيء بانتظاري لك وأملي فيك. من يخرجْ من وطنه ويعشْ في مثل هذه البقع الفاسدة

من الأرض بلا أخلاق ولا تقاليد ولا أصول، فلا يمكن أن يعود إلى أهله شريفا كما غادرهم، يغلب عليه فساد الآخرين. مثلك مثل أبيك الذي ترك كل شيء وخرج جريا وراء امرأة أجنبية. أنا كنت مخطئا، سأنقل المشيخة إلى ناندو. أنت لم تعد صالحا بعد أن تزوجت هذه القاهرية، هو أيضا تزوج هناك في دجا، تزوج إحدى بنات دجا، كانت من حقك لكنك تركتها فانتقل الحق فيها لأخيك. ناندو ابن دجا بالفعل، وأنت مجرد خائن. يحق لأي دجاوي أن يقتلك ويعود إلينا وستكون حمايته حقًا علينا!

نظر إليه بشير صامتا، هكذا تقول وثيقة دجا. من يترك المشيخة يقتل ومن يتكلم عنها بسوء خارج حدودها فآثم، خيانته لا تغتفر إلا بالدماء! كل ما يحدث هناك يجب أن يظل مختبئا بين جنبات جدرانها العفنة. تابع شهلي وغضبه يتزايد:

ما الذي تريد أن تفعله بفضح ما يحدث فيها؟ كان الكل يعيش في سلام. ارتضى السهالك بحكم آل داعو، وارتضى الأجواش بحكم السهالك. أنت أفسدت كل شيء فاصمت حتى نصلحه.

أجابت في حدة:

ـ هل ارتضوا أيضا بمنازلهم السوداء المكونة من دور واحد، وبالدماء والروث الذي يعدونه ويضعونه في أكياس يعالجون بها المسحور؟ ألم يخبركم أحد أنكم جميعا مسحورون؟ بشير وحده هو الذي نجا من سحر دجا.

حدجها شهلي بنظرة احتقار غاضبة، أشار بشير إلى نور مهدئا من روعها، نظر إلى شهلي في هدوء مصطنع:

ـ لماذا أنت هنا يا شهلي؛ لتقتلني، أم لتسلمني هذه الحقيبة؟

أجابه في غضب:

ـ اليوم سأعطيك هذه الحقيبة. هذا ما تريد أنت. يبقى أن تطلب من ذلك المحامي أن يصلح ما أفسده، وأن تنسى أنك من دجا ولا تتكلم عنها مرة أخرى، وإلا سأقتلك يا بشير!

ـ تقتلني؟

ا أنه يغالب نفسه وهو يجيب:

ـ نعم أقتلك، لم لا وأنت تقتلنا جميعا؟ لا أدري ما وراءك. كيف استطعت أن تصل إلى كل هؤلاء الناس؟ صحفيون ومصورون بالعشرات، الكل يتكلم. دجا في الأصل سر إلهي يجب ألّا يصبح مباحا هكذا. هل تعرف أن الحكومة تفكر في تحويل دجا إلى مركز؟ سينشئون قسما للشرطة ومجلسا محليًا، ستصبح دجا ملكا لهم وليست لأهلها..

نظر بشير إليه متسائلا في دهشة:

ـ كيف عرفت ما تفكر فيه الحكومة يا شهلي؟

تلعثم شهلي وهو يجيب:

ـ المهم أنني أعرف.

ساد الصمت للحظات ثم تابع.

ـ وأعرف أنهم أمهلوني لمدة أسبوعين بالتحديد؛ لكي أنهي كل

ما يخصك في دجا لكي يتجاوزوا عما حدث؛ ولكي تظل دجا كما هي، أما إذا استمر ذلك الهرج فسينتهي كل شيء.

اقترب من بشير وهو يقول في صرامة:

ـ بشير. افعل ما تريده في حياتك، لكن اطلب من ذلك المحامي أن يتوقف عن الحديث عنا، فهم يقولون عنه إنه ملعون ولا ييأس.

نظر بشير إليه مليًا، أجاب بعد برهة:

ـ أريد أمي يا شهلي ولن تسمعوا عني مرة أخرى. لم تعد لك حاجة فيها، أحضرها لي وأخبرهم أنها ماتت أو رحلت معي، أريدها هنا معي خلال يومين على الأكثر، من فضلك يا شيخ علي.. أنت تعرف أنني أحبها وأنني أولى بها.. لا تحرمني منها!

نظر إليه طويلا.. مط شفتيه باستياء وهو يقول:

ـ أنت لا تستحقها. أنا أولى بها منك، كتمت مرضها عن أهلها أنفسهم على مدى عام كامل. أما أنت ففضحتها في جميع أنحاء مصر..

أجابه غاضبا:

ـ لكنها أمي أنا وليست أمك.

أومأ برأسه عدة مرات وهو يردد:

ـ أنت عاق. ربما كانت جنة على حق عندما قالت عنك إنك لعنة أصابت دجا!

ثم أطلق زفرة طويلة وقال بعدها ببطء:

ـ خلاصة القول: أنا سآتي لك بأمك، لم يعد وجودها هناك مفيدا لها. حدث ما كنت أخاف منه وانتشر خبر مرضها، سأتركها لك من أجلها هي لكيلا توضع هناك في العزلة.

صمت للحظة ثم أردف حانقا:

ـ سأتي بباندو إلى هنا لتتنازل له عن المشيخة وننتهي منك، وبعض كبار الأجواش سيكونون الشهود.

لم يصدق ما يسمع.. سأله في حيرة:

ـ أودا وافقت على ذلك؟

أومأ برأسه مؤكدا.

ـ أودا والأجواش.. وستكون ولاية العهد بعد ذلك لأودا وأولادها، وسيسمح للأجواش بطلاء منازلهم وبالزواج بالسهالك، بعد ما فعلته أنت أصبح لابد أن تهدأ الأمور وإلا لن يرحمونا.

قام بعدها غاضبا متثاقلا. ناداه قبل أن يصل إلى الباب:

ـ شهلي.

استدار شهلي وقد بدا أنه أصبح أكبر كثيرا من عمره.

سأله بشير بفضول:

ـ من هم الذين لن يرحموكم؟

ابتسم في استهزاء ساخر وهو يقول:

ـ هم؟.. هم الأسياد يا بشير!

(٣٢)

اتضح لبشير أن أودا هي التي أبرمت كل الاتفاقات وقربت ما بين شهلي والأجواش. عادت إلى خطتها الأولى واكتفت بأن تصبح خلف ناندو الذي أسلم لها قياده تماما، شهلي أصبح شريكا لهما في العمل وتنازل الأجواش عن حلم المشيخة عندما وجدوا أنهم سيفنون أثناء قتالهم لتحديد متى وكيف يحصلون عليها، كان الاتفاق مبرما من قبل أن يأتي شهلي لزيارته بشير.. كما قال هلال: تغير الراعي لكن كلبه وغنمه لم يتغيرا. زيارة شهلي لبشير هي أولى المهمات التي كلف بها في العهد الجديد. فبعد ساعات قليلة كانت أودا وناندو وأروكا وبضعة رجال من كبار السهالك والأجواش في بيت بشير الذي ظن أن شهلي أجرى مكالمة هاتفية بأودا غالبا؛ لتحضر أروكا بدلا من أن يذهب هو ويعود بها. لم يكن يعرف أنهم جاءوا معا من البداية؛ لأن العودة بدون إنهاء الأمر كانت غير واردة.

كانت أودا تريد أن تبرم اتفاقا نهائيًا يخص سقوط بشير من حساباتها إلى الأبد. أتت معها بمحامٍ وشهود لتسجيل العقود وإنهاء

الأوراق وفعل كل شيء. أودا امرأة مدهشة تستحق أن تحكم قارة
بأكملها لا مجرد بلدة صغيرة على الأطراف. المحامي الذي جاءت
به في يدها هو نفس الرجل الذي احتاج بشير ونور إلى ساعات
طويلة للوصول إليه في مكتبه. جاءت بحمدي منصور حتى بيت
بشير. نظر إليه في ذهول تام.. ابتسم هو بمنتهى البساطة:

ـ يا بني أنا هنا من أجلك. كل ما طلبت أنت ستأخذه. وسآخذ أنا عمولتي وأتوكل على الله!

تدخلت نور في الحوار غاضبة:

ـ كيف تكون موكلا لكليهما؟

هز كتفيه بلامبالاة:

ـ ولِمَ لا؟ عائلة واحدة وكلّ منهما يريد ما لا يريده الآخر. فقط يريدون صياغة قانونية جيدة للاتفاق.

لا يحتاج الأمر تفكيرا عميقا ليدرك بشير أنها ستدفع له رقما يفوق أو يساوي ما سيدفعه هو بنسبته من النقود. حسبتها جيدا وسألت جيدا فعرفت أنه الجواد الرابح الذي يراهن بشير عليه. هكذا أغلقت عليه الباب لعمل المزيد من الألعاب، أو لجعله مصدرا لضغوط دائمة متكررة على دجا. سبقت بخطوة. أرسلت شهلي ليعطيه النقود وليطلب منه أن يسكت المحامي. ثم فكرت في أن تسكته هي بنفسها. تتبع دائما سياسة خاصة لضمان الأمور. تحييد كل الخصوم. بشير يأخذ حقه كاملا، وشهلي سيعمل معها، والأستاذ حمدي أصبح موكلها، ونانذو تابعا لها.

السؤال الذي ألح على بشير أثناء استكمال الإجراءات والأوراق الخاصة: هل سترضى أودا بدور الحاكم الخفي؟ معرفته بها تؤكد أنها لن تكتفي بذلك. أودا يجب أن تصبح الشيخ. الحلم الذي عاش في داخلها لسنوات طويلة لا يمكن أن يرضيها سواه. كل ما يحدث الآن هو مجرد خطوة مهمة على الطريق، لكنه ليس الخطوة الأخيرة. انتقلت عيناه إلى أمه. منهكة تماما، تجلس بلا حول ولا قوة تحرك شفتيْها بما لا يفهمه أحد.

أخرج الأستاذ حمدي الملف الذي أعده (لهم). ورقا يحمل حصرا كاملا لكل أملاك عثمان الدجاوي في أنحاء مصر، حسابات بنكية خاصة وأخرى باسمه واسم أروكا. مجوهرات ونقودا سائلة. مال عليه وهو يهمس:

- أنا أقنعت الشيخة أودا أن تعطيك نصيب الوالدة كاملا؛ حيث إنك ستكون المسئول عنها.

الصفقة رابحة. والمبلغ الذي تم الحديث عنه أضخم مما كانت كل الأطراف تتصور. منذ طفولته وهو يعرف أنهم أغنياء لكن ليس لهذه الدرجة. حمدي شخصيًا تبدو عليه السعادة والصدمة؛ لأنه لم يتخيل قيمة الرقم.

أخرج الأستاذ ملفًا آخر يحمل شهادات طبية معتمدة تؤكد أن أروكا فاقدة الأهلية العقلية. ثم اتفاق وقع عليه الجميع يوضح أن بشير سيكون الوصي عليها وأنه غير ملزم بتقديم أي حسابات عن تصرفه في تلك الأموال. وأخيرا ورقة رسمية يعلن فيها تنازله رسميًا إلى الأبد عن حقه في أن يكون شيخا وينقل فيها

المشيخة إلى ناندو. لم يكن لهذه الورقة قيمة قانونية على حد قول الأستاذ. قيمتها لدى أودا مع وجود هؤلاء الرجال الذين كانوا ينظرون إليه باحتقار شديد أنه سند خيانته إلى الأبد. بشير رسميًا اعترف أنه بائع أهله وبلده ومشيخته من أجل أنثى قاهرية ثم من أجل أموال أمه.

هكذا انتهى الأمر. فيما يخص علاقته بدجا.. أو هكذا ظن بشير!

## (٣٣)

كان بشير قد بدأ لأول مرة منذ سنوات يشعر بالاستقرار والهدوء في حياته، تناسى تماما كل ما يخص دجا ولم يعد يبحث عن أي شيء يأتي من هناك، حتى عندما يأتي هلال وزوجته لزيارته كان يمنعه تماما من الحديث عن بلدته القديمة وهو يقول بابتسامة اعتذار

- سامحني يا خال.. لا أريد أن أعرف.

ثم ينخرطان في الحديث عن أشياء أخرى، غالبا ما يكون العمل هو أساسها. كان بشير قد استثمر مبلغا لا بأس به من المال في التجارة مع هلال، افتتح به متجرا صغيرا لتجارة التحف والآثار المقلدة في أسوان، وجدها بشير فرصة سانحة لكي يرد له جميله وليصبح له مصدر دخل ثابت يساعده على التفرغ لدراساته العليا التي جعل موضوعها دراسة العادات الموروثة في القرى والبلدان النائية في مصر، لم يجعل دجا من بينها، اختار شلاتين وحلايب وقرى سيناء وأماكن أخرى لم يجدها على الخرائط تماما كبلدته، اكتشف أن الخرافات تتشابه والعقول تتكرر، وأن بعد تلك البقاع عن العاصمة جعل منها (دجاوات أخرى).

أحب بشير لأول مرة في حياته أنه حفيد الشيخ عثمان. لم يكن

في دجا ما يجعله يشعر بالثراء. لكن الأمور اختلفت تماما عندما وجد نفسه يسكن في منزل يتسم بالاتساع والأناقة، اختارت نور حيًا جديدا هادئا أحبه بشير، ظلت تعمل في التدليك رغم اعتراضه الذي كان يزيد وهو يشعر باستمتاع كبير عندما تجبره على أن يسلم لها جسده هو أيضا، تنتهي الجلسات بنهايات مختلفة يجمعها المتعة والاسترخاء ثم نقاش هادئ قصير تنهيه هي ضاحكة:

ـ هل تظن أن هذا ما أقدمه لغيرك؟ هذه خدمة خاصة لك يا عم اللب..

ما كان يريحه قليلا رؤيتها وهي تدلك جسد أمه المتصلب فيراها تلين بين يديها رويدا رويدا إلى أن تهدأ تماما ثم تروح في سبات هادئ عميق بعد كل مرة، عرف أن هناك من يحتجن لذلك الأمر في إطار يختلف تماما عن كل هواجسه، ثم انتهى خلافهما بمجرد أن عرفت نور بحملها فقررت أن تتوقف عن العمل، اكتفت بدورها في المنزل وبمساعدته في بحثه الجديد، تنتظر النقود الآتية في بداية كل شهر من هلال لتعد خطتها الاقتصادية بحرص شديد.

كان الوقت ظهرا عندما كانت تجلس إلى جواره وقد استدار بطنها في شهرها السابع، سيارته التي تجيد هي قيادتها تنتظرهما في الخارج، وفي الداخل ممرضة مسئولة عن رعاية أمه التي لا تخرج من غرفتها كثيرا، وقط صغير يتمسح في قدميه ليمحو عنه دليله الوحيد على أنه من سلالة الجان.

تلقى مكالمة مبهمة من الأستاذ حمدي الذي لم يره منذ شهور طويلة. أخبره أنه يريده لسبب ضروري. توجه إليه في ترقب. تصور

أنه يريد منه نقودا أخرى وكان مستعدًا تماما للرفض. أو أن أودا تريد شيئا آخر سيرفضه أيضا، لم يكن الأمر كذلك. في مكتبه كان يجلس رجل أنيق للغاية. كان ودودا بما يكفي ليسمع منه ومهمًا بما يكفي ليجلس إلى مكتب الأستاذ حمدي. لم يضيع وقتا طويلا وهو يسأله مباشرة:

ـ أستاذ بشير. هل تحب أن تصبح عمدة دجا؟

خبط بشير جبهته بيده وهو ينظر إلى الأستاذ حمدي:

ـ مرة ثانية؟ ألم ننتهِ من هذا الأمر؟

هز الرجل رأسه بثقة وهو يقول:

ـ لا لم ننتهِ، نحن نبدأ. دجا ستتغير تماما خلال الأيام القادمة، ستصبح قرية منفصلة وسيكون لها عمدة. وسيتم إضافة قسم شرطة ومأمور ومجلس محلي، قرية كاملة حقيقية بدلا من المهزلة الموجودة هناك الآن.

نظر إليه في استنكار. أكلما حاول أن يتخلص من هذه المدينة وجدها تطارده مرة أخرى؟

أجابه:

ـ أنا لا أريد. ولم أرد قبل ذلك. وحاليًا أخي هو الشيخ. الأستاذ حمدي يعرف ذلك جيدا

هز الأستاذ حمدي رأسه وهو:

ـ أنا قلت ذلك يا بشير. لكن هناك أمورا يجب أن تعرفها جيدا.

بدأ الرجل الأنيق في الشرح:

ـ دجا يا أستاذ بشير أصبحت على غير العادة صداعا أمنيًا، دجا كانت دائما نقطة مهمة لنا جدًا، من دجا يتحرك أشخاص يمكن أن يدخلوا كل بيت في مصر، بل خارجها. لا يخفي أحد مصائبه على هؤلاء الناس المباركين، على مدار سنوات كنا نستعين بأهل دجا كلما احتجنا لنشر فكرة أو لدخول بيت، هل تصدق أن أعتى رجال الأعمال كانوا يقولون أمام شيخ من دجا ما لا يقولونه أمام وزير الداخلية؟ أنت تتكلم عن أهل خطوة، عن أناس بركة يملكون قدرة خارقة على الدخول إلى أي مكان. كل ما كان علينا أن نختار واحدا يلقي الطعم لمن نريده، يخبره أنه يعاني من سحر أو من عمل سفلي أو حتى يحتاج إلى البركة، كان كل شيء يسير على ما يرام إلى أن توفي جدك عثمان.

وجم بشير، دجا بلد لا قرار له، كل يوم يعرف عنها جديدا. صدق الرجل لأنه لم يلقَ يوما أحدا يستنكر ما يخرج من دجا حتى وإن كان يعيش في القاهرة. مشروع دجا الأمني لم يتغير ولم يتوقف بخروج باركلي ورفاقه من مصر بل تلقفه آخرون، دجا لم تتم شيطانيًا، سألهما مباشرة عمن يكون الجالس أمامه فلم يأته رد، بل واصل الرجل كلامه بعد أن أخذ نفسا عميقا من سيجاره:

ـ بعد أن مات جدك بدت الأمور أكثر صعوبة. الشيخة أروكا رغم أنها كانت تؤدي ما يطلب منها، فإنها لم تكن مثل جدك. جدك كان نجما. لديه قبول وحب من غالبية أهل القرية. كان يصدر أوامره فقط فينفذ الجميع. كان يجيد انتقاء فريقه ويجيد توزيعهم.

لهذا بالتحديد كان دائما يرشح خالتك للمشيخة. لكن عندما بدا أن الأمر سيكون مصحوبا بغضب شديد من أهل القرية، فضلنا أن تكون أمك هي الشيخة. نحن أيضا لم نحب أودا.

سأله في فضول:

ـ لماذا؟

أجاب بثقة:

ـ أودا كثيرة الطلبات، كثيرة الأسئلة، قليلة الرضا. ستزعجنا وستطلب دائما المزيد، ربما تطلب يوما أن تصبح المحافظ. كما أنها لم تكن محبوبة بما يكفي لنضمن استقرارها. بينما أمك كانت تتميز بأن الجميع كان يحبها وينصت لها وكان هذا مهمّا بالنسبة إلينا.

كاد الرجل يستعرض معلوماته عن البلدة؛ ربما ليقنع بشير بأنه يعرف كل شيء، لم يفت بشير أن يشرح له أيضا المهمة التي ستكون مطلوبة منه، وإن رابه أنه يكشف له كل شيء.

ـ الآن الوضع أصبح خطيرا، لم تعد هناك قيادة للقرية؛ ناندو ضعيف لا يحترمه أحد من أهل القرية. أودا تتعمد أن تظهر ضعفه وخيبته للجميع، تنتمي إلى السهالك لكنها تقود الأجواش وتعطيهم ما يكفي ليطالبوا بها شيخة بدلا منه. ولا يرضي ذلك السهالك ولا يكفي الأجواش، وبالتالي فالكل غاضب والأمر على وشك الانفجار، ونحن لن ننتظر حتى يحدث ذلك. حاولنا أن نحولها بالاتفاق معهم جميعا إلى بلدة نظامية. أتعرف ما فعلوه؟ رفضوا

جميعا. هل تصدق أنهم رفضوا السماح للرجال ببناء مبنى صغير ليصبح قسم شرطة هناك؟ وقفوا أمام العمال في غضب، لأول مرة نرى السهالك والأجواش يقفون معا. هم سعداء بالحياة هكذا بلا نظام ولا قانون، لم يعد ذلك الأمر يحتمل صبرا أطول من ذلك، سنحتاج إلى تحويل المسار سريعا، دجا يجب أن تتحول إلى قرية متطورة؛ نظام ودائرة وتبعية قانونية. أردت أن أسألك: هل أنت مهتم بالأمر، أم لا؟

بدت عليه خيبة الأمل واضحة عندما ابتسم بشير في ثقة:

ـ إطلاقا!

نظر إليه طويلا..

ـ فكر مرة أخرى.

انفجر ضاحكا بعصبية:

ـ أنا فكرت في هذا الأمر، تحديدًا مئات المرات.

ـ يا ولدي افهم، أنت مطالب بأن تنقل هذا البلد إلى تصنيف جديد.

هز رأسه في استياء، عليه الآن أن يدعي أنه سيرضى بمشيخة دجا من أجل مهمة كبرى، لا من أجل طمعه في حكمها، كلهم قالوا ما يشبه ذلك، جده عثمان كان يقول دائما إنه أخذ المشيخة تكليفا لأنه حفيد داعو الوحيد الصالح لها. وأمه قالت إنها قبلت المشيخة من أجل جده. وهو الآن من المفترض أن يقبل بها؛ من أجل أنه

الحاكم الوحيد المثقف جيدا والذي سيغير من حالتها. مسكينة المشيخة.. الكل يسعى ويتقاتل عليها وهو ينكر أنه يريدها ويصفها بأنها لاتستحق. أي عقوق هذا؟!

ـ أنا بالفعل لا أريدها؛ ولهذا لن آخذها.

ـ بلدتك تحتاج إليك أنت بالتحديد.

ابتسم في هدوء:

ـ من الصعب أن تجد عالما أو عبقريا.. لكن وظيفة حاكم.. ضع إعلانا في أي جريدة وستجد الملايين.

ـ ليس كل الناس تصلح للحكم.

هز بشير كتفيه ساخرا:

ـ إذا جاءك من يصلح فهذا خير لدجا. وإذا جاء من لا يستحق فهذا هو الطبيعي في الحكام، ربما في كل مكان.

قام من مكانه وهو يردد:

ـ اتركوني هنا، لن أعود مرة أخرى.

ثم غادر وهو يسمعه يقول في هدوء:

ـ حقك. لا أحد يستطيع أن يلومك..

ابتسم بشير في ارتياح للحظة، ثم غابت ابتسامته تماما عندما اخترق أذنه ما قاله الرجل الأنيق بصوت خافت:

ـ ولا أن يلومنا!

## (٢٤)

عاد بشير إلى بيته شاعرا بالاختناق. كلمة الرجل الأخيرة تركت فيه أثرا لا يستطيع التخلص منه. همس لنفسه عشرات المرات بأنه لا دخل له بدجا وما سيحدث فيها. بلدة محلها الجحيم. إذن ما الذي يعكر عليه صفو حياته منذ التقى بذلك الرجل؟ هل يـ كن أن يطاله ما سيحدث هناك؟

كان يجلس إلى جوار أمه يطعمها، تطورت حالتها كثيرا، أصبحت لا تستطيع حتى إطعام نفسها. تتحرك فقط في أنحاء المنزل بطريقة عشوائية، تمد يدها إلى النار وتجرح نفسها بالسكين. يراقبها وهو يتساءل: أهكذا يكون الإنسان بلا عقل؟ مجرد كائن يتحرك في عشوائية يؤذي نفسه ومن حوله بكل ما يفعله.. تتحول قدرته على الحركة إلى نقمة عليه وعلى الجميع. كان يلوم نفسه كثيرا على تمنياته لها بأن تفقد قدرتها على الحركة لا سيما بعد أن أشعلت النار في غرفة المعيشة وهي تلعب بعيدان الكبريت بلا وعي. وقفت تنظر إلى النار في سكون كما لو كان الأمر لا يعنيها. حال أمه لا يختلف على الإطلاق عن حال بلدته. بلد بلا عقل كل ما يمتلكه هو فقط قدرة هائلة على التكاثر. لتأتي بالمزيد من الأطفال الذين سيكبرون

ليحملوا نفس الأفكار المختلة المغروسة في داخلهم، داعو والسحر والجان، والحقد المتأجج مابين السهالك والأجواش. لتظل دجا وطنا خطرا على أهله إلى أن يثبت العكس.

بشير لم يفعل مثلهم ، تأكد من ذلك عندما أنجبت نور له بنتا فانتعش كما لم ينتعش من قبل، وهو يأخذها بين ذراعيه، ارتسمت على وجهه ابتسامة اتسعت تدريجيًا إلى أن تحولت إلى ضحكات صافية مليئة ببهجة افتقدها طويلا، رآها أجمل مما كان يتخيلها ولم يفسد عليه الأمور أم نور التي لوت شفتيها عندما رأتها لأول مرة ثم أصبحت متيمة بها، أروكا كانت تراقب عن بعد وعلى شفتيها ابتسامة مكدودة، أما نور فقد ظلت تضحك وهي تنظر إليها قائلة:

- إنها من فصيلة اللب أيضا.

زرعت الصغيرة في صدر بشير شجاعة أكبر فيما يخص أزمته القديمة، عرف قيمة كل ما فعله وأصر عليه، عندما هرب من المشيخة كان يفكر في نفسه، لكن عندما رآها أدرك حقيقة الأمر؛ لقد كان هو الحلقة التي أفلتت السلسلة الصدئة القبيحة التي ينتمون إليها جميعا. حبة اللقاح التي ركبت تيارا عاصفا أملا في أن تجد لها مكانا في حقل آخر غير ملوث، هذه الصغيرة بعد سنوات كانت ستصبح مرشحة للمشيخة، يطلقون عليها اسم رجل ويعلمونها كيف تصبح محتالة محترفة على كل أفراد رعيتها، ويسقونها الكراهية والكذب. لم يتردد بشير ولم يراجع أحدا وهو يختار لها اسما يناديها به؛ فيتذكر بفخر ما فعله من أجلها:

- ناجية..

فابتسمت نور مؤيدة.

لم يطل ارتياحه فقد عادت دجا لتظهر بقوة في الصحف والبرامج التلفازية. الرسالة بدأت هادئة فيما بدا له تمهيدا لشيء ما، الحديث ينصب على احتمالية أن تكون هذه البلدة النائية مأوى للمجرمين والفارين من العدالة لأنها بلا قانون. لم يفهم هل هذا اتهام لدجا، أم اتهام للقائمين على الأمور، علله لنور بأنه خطوة لينقض النظام عليهم من أجل إقرار القانون، ظل منتظرا أن تبدأ حملة قومية لإعادة النظام إلى دجا. زار الأستاذ حمدي في مكتبه مستفسرا عما وراء الأمر. لم يُبْدِ الرجل ترحابا كبيرا بل سأله بوقاحة:

ـ ماذا تريد مني؟

سأله بشير في تردد:

ـ هل أنت غاضب مني؟

نظر إليه متفحصا من تحت نظارته وهو يجيب:

ـ أنت أضعت فرصة عمرك يا بشير..

أجابه من فوره:

ـ فرصة عمري؟ دجا مستنقع يا أستاذ حمدي، وأنا خرجت منه بأعجوبة، فهل كنت تريدني أن أعود إليه مرة أخرى؟

هز رأسه نافيا وهو يقول:

ـ دجا مستنقع لأنها بعيدة عن رضا الحكومة. أنت كنت مرشحا لتصبح شيخا هناك برضاهم ودعمهم، كانوا سيجعلون منك ملكا حقيقيًا. كل من رأيتهم أنت بعينيك هناك مجرد صعاليك يتسيدون

صعاليك، درويش كبير يقود جماعة من الدراويش. أما أنت فقد كان الأمر سيختلف معك.

ـ هل تتابع ما يقولونه عنهم؟

أومأ برأسه موافقا..

ـ وهل تستطيع أن تخبرني بما سيحدث؟

أخذ نفسا عميقا من سيجاره وهو يقول:

ـ لا أعرف. لكني لا أصدق أنهم لا يستطيعون إنشاء قسم شرطة صغير ووحدة محلية. الأمر أكبر من ذلك.

نظر بشير إليه في ترقب، بادله نظرات صامتة قبل أن يقول في ثقة:

ـ أعتقد أن دجا ستمحى من الخريطة تماما قريبا.. وأن ما يحدث إعداد لذلك.. وإذا صح ما أتوقعه فيجب عليك أن تختفي أنت أيضا. فما أنت إلا واحد منهم، لا حظ أن الباشا أخبرك بكل شيء، من يحمل الأسرار عندهم إما أن يكون معهم، وإما يكتمه إلى الأبد..

قال بشير بصوت مبحوح:

ـ سأكتمه إلى الأبد..

حك حمدي ذقنه بيده وهو يقول:

ـ لو أنني مكانهم لعرفت أنك طالما قلت لهم لا مرة يمكنك أن تقولها مرة أخرى.

(٣٥)

عاش بشير مع نور فترة من القلق على أسرته بعدما حكى لها ما حدث، أصرت هي على أن يبيعا شقتهما الجديدة ويشتريا بديلا بها في نفس الحي الذي تربت فيه، أخبرته أن الزحام سيكون أكثر أمانا لهما، كانت تتأكد كل يوم من أن أحدا لا يسأل أو يبحث عنهما، تقبلت على مضض أن يعطي رقم هاتفه المحمول مشترطة ألا يخبره بعنوانه الجديد، كان بشير يراقب ما تفعله ويشعر أنها تولي الأمر اهتماما يفوق اهتمامه بكثير، وأنها تخفي شيئا ما لا يعرفه.

ظن بشير أن الأمور هدأت بمرور الأيام، إلى أن جاءته تلك المكالمة القصيرة، تهالك بشير ساقطا على المقعد المجاور له. غابت عن عينيه كل المشاهد وتفجرت عيناه بدموع غزيرة.. استدار باحثا عن أمه التي كانت تجلس في سريرها في سكينة.. احتضنها باكيا متجاهلا نور التي كانت تسأله في هلع عما حدث، خرج صوته ضعيفا مرتعشا:

ـ ناندو مات يا أمي!

دفعته أمي بعيدا عن صدرها وهي تنظر إليه في حيرة، بينما سألت نور في ارتياع:

ـ مات؟ كيف؟

أجابها وهو ينهنه:

ـ قتلوه يا نور.

ـ من الذين قتلوه؟

رفع رأسه ناظرا إليها في حزن:

ـ شهلي يقول إنهم الأجواش، ذبحوه كالشاة وتركوه معلقا طوال الليل على أحد أعمدة المعبد.. إلى أن وجد بعض الأطفال جثته..

انفجرت نور باكية فزاد بكاؤه، تفجرت عينا أمه بالدموع هي أيضا دون أن يعرف هل تبكي على بكائه، أم أنها أدركت أن ابنها الصغير قد لقي حتفه في تلك البلدة اللعينة التي لم تترك في داخلهم ذكرى واحدة طيبة، قام بشير على الفور ليرتدي ملابسه. أمسكت نور بيده وهي ترجوه ألا يذهب.

أفلت يدها برفق وهو يجيب:

ـ سيدفنونه في الصباح، ويجب أن أكون هناك.

بدا عليها التردد قبل أن تقول:

ـ لا تذهب يا بشير، ربما يقتلونك أنت أيضا.

هز كتفيه في يأس.

ـ لا يوجد لديَّ حل آخر يا نور، أنا تخليت عنه حيًا فلن أتخلى عنه ميتا.

جاء صوتها خافتا:

ـ أنت لم تتخلَّ عنه، هو الذي اختار. بالعكس أنت تركت له ما

غادر بشير الغرفة قائلا في أسى:

ـ بل تخليت عنه، لم أحمه منهم ومن نفسه. لم أخرجه من العالم السفلي الذي عاش فيه طوال عمره، تركته يظن أنه سيكون شبحا حقيقيًا هناك رغم أنني كنت أعرف الحقيقة.

ـ لا تذهب يا بشير.. من أجل ابنك.

ردد في استسلام:

ـ لا بد أن أذهب.

ثم قبلهم جميعا ورحل، لا يستطيع أحد أن يصف الساعات التي مرت على بشير إلى أن وصل إلى أسوان. ما بين الخوف والحزن والغضب. حاول الاتصال بهلال عدة مرات، لكن هاتفه كان مغلقا. السؤال الوحيد الذي يسيطر عليه هو: من فعلها؟ الكل متهم، ذلك الرجل الذي قال له إن أحدا لا يستطيع أن يلومهم، أودا لتتخلص من ناندو وتتصدر المشهد، شهلي الذي رأى بعينيه السلطة وهي تنتقل رويدا رويدا إلى سيطرة أودا بدلا منه. الأجواش الذين لا يرضيهم وجود ناندو، والسهالك الغاضبون من حكمه الضعيف.

عندما كان عثمان الدجاوي حيًا، كانت عداوته محصورة في الأجواش.. ولم يكن هناك كل هؤلاء الطامعين.ما قالته أودا له

عندما كان في دجا ينطبق أيضا على ناندو، هو أضعف من أن يتصدى لحكم بلدة بكل ما فيها من أهواء، صاح بشير في حسرة:

ـ من قال إن العدل أساس الملك؟

لم يكترث على الإطلاق بمن نظروا إليه، بل أردف في صرامة:

ـ القوة هي أساس الملك..

ثم صمت تماما وهو ينظر إلى البيوت البالية التي توالت في المرور إلى جوار نافذته، ناندو في رأيه لم يكن قويّا ولا حتى عادلا، كان غبيّا لأنه طمع في تلك المشيخة اللعينة. هل كان العدل ليحميه من شرورهم؟ غالبا لا.. فجده عثمان كان ظالما قويّا وعندما ضربه المرض قرر أن يرحل؛ لأنه كان يدرك أنه لا مكان للضعفاء في تلك اللعبة.

وصل بشير إلى أسوان ومنها إلى نصر النوبة، ثم نزل يجري باحثا عن سيارة تقله إلى دجا فلم يجد، موقف السيارات كان خاليا تماما، لم يفهم ما يحدث. اتصل بهلال، حمد الله عندما وجده في أسوان، أصر على أن يأتي هو إليه، بعد برهة كان يقف أمامه وعيناه مغرورقتان بالدموع، احتضنه معزيا. ربت على كتفه في تصبر وهو يقول:

ـ ظننت أنك ستكون في دجا.

هز رأسه نافيا في أسى:

ـ لا أحد يستطيع أن يذهب إلى دجا الآن، الطريق مغلق..

نظر إليه مندهشا:

ـ من الذي أغلقه؟

أجاب متوترا:

ـ الأمن. ألم تسمع بما يحدث هناك؟

ـ كل ما أعرفه أن أخي قتل. بعدها قفزت في القطار..

أجاب من فوره:

ـ دجا في حالة حرب. بعد وفاة أخيك مباشرة تحرك جميع السهالك يقودهم شهلي لحرق وطرد الأجواش من البلدة، وبالطبع لم يقف الأجواش مكتوفي الذراعين، منذ الأمس وهم يتقاتلون، الأعداد متقاربة ولذلك فالمعركة سجال فلا يوجد هناك طرف أقوى من الآخر، ولا يوجد سلاح لدى كليهما. الأمر أشبه بمعركة بدائية لكنها طاحنة، الغريب أن خالتك أودا هي من تقود الأجواش، وغالبا شهلي اتصل بك لأنه يريدك بديلا لناندو.

نظر إليه بشير متفحصا:

ـ وأنت كيف عرفت؟

نظر إليه مترددا ثم أجاب:

ـ أنا كنت هناك حتى الصباح، لكني فررت من الجحيم.

ـ ولماذا لم تحادثني أنت؟

أجاب بصوت خافت:

ـ لم أردك أن تعرف الآن لأنني لم أردك أن تأتي، انتهى الأمر يا بشير؛ ذهابك لن يضيف جديدا ولن يعيدناندو.

رماه بشير بنظرة غاضبة وهو يقول:

ـ كيف خرجت من هناك والطريق مغلق؟

رد في انكسار:

ـ سلكت طريق الجبل. هل نسيت أننا نعرف ما لا يعرفه عنها الأمن؟

سأله في لهفة:

ـ وناندو؟

تنهد وهو يقول:

ـ جثته هناك على سريره في بيتكم.. بمجرد أن يهدأ الأمر سيدفنونه.

صاح غاضبا:

ـ وهل سأنتظر إلى أن يهدأ الأمر؟ خذني إلى هناك.

أجابه في رجاء:

ـ خطر يا بشير.

أمسك بذراعه في إلحاح:

ـ خذني إلى هناك يا خال، أو ابحث لي عن طريقة أذهب بها إلى هناك.

هز رأسه في تسليم. أشار إلى سيارته في حنق:

ـ اركب.

انطلقا عبر مدقات الطريق الجبلي الذي كان طريقا رئيسيًا يوما ما قبل أن ينجح عثمان في تأسيس طريق جديد ممهد بعلاقته التي لم تكن واضحة مع بشير قبل ذلك. كان الطريق طويلا والصمت يخيم على كليهما، هلال يبدو مضطرًا يقاوم خوفه، وبشير غاضب أكثر مما هو خائف.. قطع هلال الصمت فجأة وهو يقول:

ـ هل تعرف أن الصحف والإذاعات تتحدث كلها عما أسموه صراع القبائل في دجا؟

سأله بشير في قلق:

ـ هل تدخل الأمن هناك؟

هز رأسه نافيا:

ـ يقولون في الأخبار إن الوضع خطير وإن هناك محاولات للصلح، لكني أؤكد لك أن ذلك غير صحيح. لا يوجد هناك من يحاول أن يفعل أي شيء، فقط أغلقوا الطريق..

فكر بشير للحظة، ثم عاد ليسأله:

ـ وماذا يعني ذلك؟

مط شفتيه في لامبالاة:

ـ لا يعني شيئا. هذا أسلوبهم، يتركون المعركة إلى أن تنتهي بالقوة الذاتية. على الأقل لن يتدخلوا إلى أن ينهك الجميع.

أجابه في شك:

ـ لكن لماذا أعلنوا عنها، ومن لهم هناك ليتابعوا الأمور؟

رفع هلال سبابته في وجه بشير:

ـ الغريب أن كل شيء هناك ينقل لحظة بلحظة.

استغرق بشير في تفكير عميق، كان صوت الأستاذ حمدي يرن في أذنه:

ـ أعتقد أن دجا ستمحى من الخريطة تماما قريبا.

## (٣٦)

بعد دقائق معدودة كانا ينزلان من السيارة عند مدخل المدينة الخلفي، أعلن هلال أن دخول البلدة بالسيارة من ضروب المستحيل، دارا من خلف الجبل المتاخم لحدود المدينة. كان الظلام قد بدأ يخيم، والطريق غير ممهد ولا مرحب أصوات العواء تأتي عن بعد من كلاب ضالة تعيش في مكان يليق بها بدلا من أن تفسد على البشر حياتهم. هلال كان خائفا على عكس بشير الذي غطى خوفه على كل مشاعره الأخرى. بدأت أضواء البلدة وأصواتها تقترب مفزعة، طلقات نارية وصراخ. تراقصت أمامهم النيران المشتعلة في عشرات الأماكن في آن واحد. بمجرد دخولهم إلى البلدة ظهرت آثار المعركة في كل مكان، لم يخلُ طريق سلكاه من جثة أو أكثر، رائحة الدماء تنبعث قوية من كل مكان. ارتعد بشير وهو يقول في ارتياع:

- إنها مذبحة.

جاء صوت هلال مرتعشا:

- ألم أقل لك؟

لم يجدا صعوبة كبيرة في الوصول إلى المشيخة. كان مركز المعركة هناك عند بيوت الأجواش بعيدا عنها. الأفراد القلائل الذين مروا إلى جوارهم كانوا يجرون في خوف، لم يكن هناك من ينظر إلى من يسير، رغم أن المعركة بعيدة لكن الكل كان يفر مبتعدا بحثا عن مكان آمن في وقت لا يوجد فيه مكان آمن.

دخلا إلى المنزل من أحد نوافذه المفتوحة بعد أن طرقا الباب عدة مرات بلا إجابة. كان جسد تاندو ملفوفا في ملاءة بيضاء اكتست بالدماء، كشف بشير وجهه لينظر إليه للمرة الأخيرة. لم يسمح له هلال بأن يكشف رقبته. ما رآه على وجهه من دماء وكدمات كان كافيا ليعرف ما رآه من عذاب إلى أن مات، تهاوى إلى جواره باكيا. غطى هلال وجهه وهو يبكي أيضا، كانت أصوات المعركة لازالت تأتي من بعيد، التفت بشير إلى هلال في حزن:

ـ أريد أن أدفنه..

نظر إليه في دهشة:

ـ الآن؟ مستحيل.

ـ الجثة بدأت في الانتفاخ والجو حار. لا يمكن أن أنتظر إلى أن تهدأ الأمور. يجب أن ندفنه على الفور.

أجابه في عصبية:

ـ لن نصل به إلى المقابر، وحتى إذا وصلنا إلى هناك فمن الذي سيعدها لنا؟

خيم عليهما الصمت للحظات، قام واقفا من فوق سريره وهو يقول:

ـ لن نذهب إلى المقابر. سندفنه هنا في ساحة المنزل الخلفية.

قال هلال في تردد:

ـ بدون جنازة ولا طقوس؟ إنه الشيخ الآن.

انفجربشير غاضبا:

ـ أنا وأنت سنصلي عليه. اللعنة على الطقوس والمشيخة، هذا ما أخذه منها، جثة ملقاة على سرير لا تجد من يلقي بها في باطن الأرض، والآلاف يتقاتلون في الخارج على نهاية مثل نهايته.

تردد قليلا فصاح فيه بشير آمرا:

ـ هيًا تحرك.

انحنيا لحمل الجثة التي كانت برودتها تتسلل من خلال الملاءة، ودماؤه جافة تحت يديه. رائحة كريهة بدأت تخرج من جسده المتفخ. كانت قدما بشير ترتجفان في كل خطوة، وكان هلال أكثر تماسكا، جاء صوته هو صارما هذه المرة:

ـ اثبت..

لكن بشير لم يثبت، سقط على الأرض وسقط منه جسد أخيه، انفجر باكيا كما لم ينفجر من قبل وهو يقول:

ـ أسقطته ميتا، كما أسقطته حيًا.

جلس يبكي إلى جوار جسده على الأرض. يبكي كل شيء، السنوات التي مرت عليه في دجا، خيانته لأخيه وتركه له هنا بعد أن أخذ نصيبه من المال، بكى حاله الذي لم يحاول أن يخرجه منه يوما بفعل حقيقي. تحامل واقفا وحاول أن يرفعه مرة أخرى لكنه لم يقوَ على ذلك، وسط دموعه رأى كفين سوداوين معروقتين تمسكان بجسده وترفعانه من على الأرض، رفع رأسه ليجد أمامه شهلي ينحني ليرفع جثة أخيه وهو يعزيه ويستغفر ثم يتلو آيات من القرآن، احتاج بشير لدقيقة ليستجمع قواه كاملة وينقض عليه ليدفعه غاضبا ويسقطه على الأرض ويكيل له ركلاته وهو يلعنه ويلعن جده ويلعن كل من عاشوا في هذا المنزل حتى إنه لعن نفسه، حاول هلال أن يمسك به لكنه دفعه وهو يواصل ما يفعله صارخا:

- قتلتموه أيها الخائن. وأهل البلد يذبحون بعضهم وأنت مختبئ هنا.

لم يجب شهلي، ولم يتوقف بشيرعن ركله إلى أن فقد وعيه أو مات، لم يهتم حتى أن يعرف. تمنى أن يجد أوداية الداعرة الأخرى التي لا بد أن تكون مختبئة في بيت آخر متظاهرة بقيادة المعركة؛ ليشفي غليله فيها هي أيضا.

منحه ما فعله في شهلي من القوة والثبات ما كفاه لأن يحمل أخاه وحده على كتفيه. قبّل كفنه عشرات المرات وهو يتجه إلى الساحة الخلفية، دخل إلى مخزن الأدوات وحفر له قبرا بيديه. لم يشعر بالوقت ولا بالتعب، كان يغلق عينيه على الدموع الساخنة والعرق الحارق ويواصل إلى أن انتهى. وضعه في القبر وأهال عليه التراب

وجلس ساكنا إلى جواره لوقت بدا له قصيرا رغم أن الشمس كادت تحمر، قام مع هلال ودخلا إلى المنزل. اختفى شهلي، صعد بشير إلى غرفة جده، جمع أوراقه في حقيبة كبيرة، دخل إلى غرفة أمه وجمعت منها بعض الأشياء التي يعرف أنها تحبها. أشعل النار في غرفة جده متأكدا من احتراق صوره المعلقة على الحائط، ثم أشعل النار في غرفة أودا وغرفة أروكا. ثم غادر مع هلال.

أسبوع كامل والأخبار تتوالى من دجا التي تصدرت منفردة كل الأخبار والصحف. معارك طاحنة بين أهل القرية التي اعترف الجميع بأن الحكومة هي التي وصلت بها إلى هذه الكارثة بإهمالها لها على مدار كل السنوات السابقة. بشير أصبح يرى الأمور بشكل مختلف، كان لا بد بالطبع من إلصاق بعض الكلمات المعتادة في مثل هذه الأمور.. الإرهاب، الجماعات المتطرفة، الصراع العرقي. ما حاجة الناس هناك لاستخدام كلمات كتلك عندما تكون الحقيقة أكثر خطورة من كل ذلك؟ لا كارثة أكبر من أن يصبح الجهل هو العقيدة المغروسة في عقول البشر، أن تصدق ما لا يصدق وتتبع كل الخرافات التي سقوها لك منذ طفولتك الأولى. لماذا لم يذكر أحد أن دجا هي النتيجة الطبيعية لنبتة فاسدة غرسها محتل أجنبي في الأرض وتركها لتنمو بشكل شيطاني؟ ولم يفكر من أتى بعده في أن يمد يده لينزعها من الأرض قبل أن تتحول إلى شجرة شريرة عملاقة يستظل تحتها الجميع، وهي حتما ستأكل كل من حولها يوما ما. الساقي والمستظل وحتى المار الذي لم يولها اهتماما.

لم يكن يتصور كم الدماء التي سالت، دائما ما كان يرى أهل بلدته رغم كل مساوئهم مسالمين. لكنهم لم يعودوا كذلك. كان

من الواضح للجميع أن الأمن لن يتدخل لحماية دجا، لكنه يعرف جيدا كيف يمنع كل من فيها من الخروج خشية أن ينتقل الصراع إلى خارجها، أو خشية أن يبقى فيها من يستكمل مسيرة هؤلاء الحمقى، جن الغنم وقتلوا الراعي ثم تفرغوا لقتل بعضهم بعضا، كل شيء يحترق، كانت الصور التي تأتي من هناك تريك أعمدة الدخان التي تخرج من كل مكان، إنهم يحرقون أنفسهم، هكذا الحمقى دائما. كان يردد وهو جالس وحده في المنزل بصوت غاضب:

ـ أنا منهم؛ لهذا أشعلت النار في بيتي قبل أن أغادره.

(٣٧)

مضت بضعه أيام سريعة، كان بشير جالسا أمام التلفاز يتابع ما ينقل من هناك بكاميرات بدائية، تساءل عمن يحملونها، عندما وجد نور تفتح باب الشقة وتدخل منادية عليه بصوت مبتهج، لم يتحرك من مكانه وهو يتابع ما يحدث، وجد نور تقف أمامه وإلى جوارها رجل أسمر عجوز لم يتعرف إليه للوهلة الأولى، لكنه أدرك بعد لحظات بحاسة ما أن من يقف أمامه هو أبوه.

قام بشير من مكانه متاقلا، وقف يحدق فيه بنظرات تملؤها المرارة، هربت من لسانه كل الكلمات، ترددت في أذنه كل الحكايات التي سمعها عنه، وتوالت أمام عينيه عشرات المشاهد القديمة، أغمض عينيه في ألم وهو يتذكر الليلة التي انقبض فيها وجه هذا الرجل وهو يقبل رأس أمه، تزامن ذلك مع صوتها الذي أتى من الداخل على هيئة صيحة أخرى من صيحاتها المتكررة وهي تنادي أشخاصا من صنع خيالها، فتح عينيه مرة أخرى ناظرا إليه في إحباط، ضاعفه تماسك عرفات الذي كان ينتظر منه رد فعل أقوى كثيرا مما يراه أمامه الآن، بدا له كما لو كان قد أتى في مهمة عمل لا للقاء ولده الذي خلفه وراءه منذ سنوات عديدة. اختلطت

في صدره مشاعر عديدة ، لم تكن السعادة من بينها، ربما لو أنه فعلها قبل ذلك لأسعدته عودته، تأخر كثيرا. ناندو مات بالفعل وهو يحمل في صدره نارا لن يطفئها أي شيء الآن، حتى مظهره ولّد فيه خيبة أمل إضافية. لسبب ما كان يتصور أنه سيرى ذلك الشاب القوي الذي يذكره منذ طفولته، ظن الحياة في أوروبا ستحفظ له شبابه، اندهش عندما وجد أمامه رجلا عجوزا محني الظهر ، على وجهه علامات من الكآبة تفوق كثيرا علامات النعيم البادية في ملابسه، شخّص بشير ما يراه في كلمة واحدة.. الغربة.

أفلتت منه كلماته في حدة:

- الغربة غالية الثمن حتى لو كانت في الجنة..

أجابه عرفات وهو يفتح ذراعيه في هدوء:

- لكنها بالتأكيد أفضل من تحيا في الجحيم إلى الأبد.

لم يستطع بشير أن يرمي نفسي بين ذراعيه رغم أنه تمنى ذلك، مد يده مصافحا وهو يهمس:

- حمدا لله على السلامة.

لم تتوقف نور عن مراسلة عرفات منذ الخطاب الأول، جعلته فجأة يعيش مرة أخرى معهما كل شيء. استشارته حتى قبل الذهاب إلى المحامي، قال لها إنه لم ينسَ ما كتبه في واحد من الخطابات:

> إذا كنت تظن أن علاقتك بولدك انقطعت منذ سفرك، يجب أن تعرف أن هذا غير حقيقي، بشير لم ينسك قط. عرفات الدجاوي الذي يعيش في داخله هو الذي جعله يتمرد على

المشيخة، كلهم يقولون هناك إنه ابن عرفات ولا أحد يقول إنه ابن أروكا أو حفيد عثمان.

ـ تتابعت رسائلها في جنون عندما عرفت بتحذير المحامي له، وعندما رحل بشير لدفن أخيه كانت مكالمتها الهاتفية الأولى له. قالت له وهي تبكي:

ـ تعالَ وخذنا في يدك. لا أظن أنهم سيتركون بشير، وهو لن يقبل بالسفر لكن وجودك في تلك اللحظة سيغير كل شيء.

كان هناك نوع من الألفة غير المتبادلة بين عرفات وابنه الأكبر، ولّدتها لدى الأب خطاباته المتبادلة مع نور، لم يكن الأمر مماثلا لدى بشير، إضافة إلى جرح عميق يحمله في داخله تجاهه لا سيما بعد أن فات أوان العودة في نظره، لم يحاول بعد رحيله أن يجمعهم ولو لمرة واحدة كأسرة طبيعية، جاء الآن بعد أن مات الصغير ولم تعد الأم تعي شيئا، أصبحت عودته أكثر مرارة من غيبته. تمنى بشير في تلك اللحظة لو أنه يجد دفتره القديم ليسجل فيه الجملة التي ترددت في رأسه، أن الأفعال كطلقة رصاص نصوبها نحو هدف متحرك، إذا جاءت قبل الأوان أو بعده لن تصيب الهدف، ستبدو أكثر حماقة كلما تباين زمنك عن الزمن المطلوب.

بدا له أنه يقرأ أفكاره وهو يسأله:

ـ تأخرت؟

ـ كثيرا.. ناندو مات.

ـ عرفت.. الله يرحمه..

واصل بعد برهة:

ـ وأمك؟

هز كتفيه في حزن:

ـ أمي في عالم آخر تماما، ربما يكون هذا أفضل لها.

ـ بالتأكيد.

كان الكلام يخرج من فمه متعثرا صعبا، لم يعد لسانه طليقا كما كان، هذا ما فعلته فيه الحياة في المهجر؛ لغة مشوهة، فرنسيته أيضا غالبا لن تكون كاملة، نظر إليه في حيرة:

ـ لماذا عدت؟ من أجلنا؟

هز رأسه نافيا:

ـ بل من أجلي. أنا الآن في الستين من عمري يا ولدي، تمردت على حياتي هنا ورحلت. تزوجت امرأة جميلة عاشت معي خمس سنوات، ثم تمردت هي عليَّ عندما بدأ أولادي يكبرون، رأت أني أصبحت أمثل عبئا عليها وعلى أولادي، قالتها لي بمنتهى الوضوح: لا أريد أن أشتت أولادي بيني وبينك. كانت تحبني يا بشير، بل عشنا بعدها عدة سنوات كما لو كنت عشيقها، أزورها ليلا ونقضي ليلتنا معا وأغادر في الصباح، المهم ألا أكون موجودا طوال اليوم وألا أتدخل في تربيتها لأبنائها. قالت لي يوما إنها عندما تزوجتني كانت تفكر في نفسها فقط وهنا كان من حقها أن تفعل ما تريد، أما عندما تركتني فقد كانت تفكر في أولادها.. فكان لا بد أن تفعل الأصح، أي أنها كانت تراني خطأ ما، انفصلنا تدريجيًا وبقينا

صديقيْن. الآن أنا أمتلك مقهى عربيّا صغيرا في باريس.. أجلس يوميّا مع العديد من الأصدقاء من تونس والمغرب والجزائر والسودان ومصر. كل من يأتون للمقهى يوميّا لا يختلفون عني، عملية تغير جلد كاملة لم تكتمل، فأصبح الثعبان يجر جلده القديم وهو مكسوٌّ بالجديد. زوجتك أعطتني آخر فرص حياتي لأترك خلفي حياة.

أجابه في امتعاض:

- أو لم تكتشف كل ذلك إلا الآن؟

ضحك في أسى:

- اكتشفته منذ زمن. لكن الفارق كبير الآن، ستعرفه عندما تصبح في عمري، تندهش عندما تستيقظ في الصباح لأنك تنتظر الموت في ليلة ما، تتأمل سقف غرفتك يوميّا متسائلا عما حققته في حياتك. الإجابة التي ترعبني يا بشير، أني لم أحقق شيئا، عمري ضاع.. أبنائي من الدجاوية وأبنائي من الفرنسية لا يعرفونني، لم أنجح في قطع صلتي بالماضي بدليل ظهورك مرة أخرى، ولا نجحت في أن أصبح جزءا أصيلا من الحاضر الذي أعيشه. لهذا قررت يوما أن أرد على خطاباتك، شعرت أنها علامة، مازال هناك واحد من صلبي يبحث عني ويحاول أن يتقرب إليَّ. لهذا عدت اليوم لأني أريدك أنت وزوجتك، كنت أريد ناندو أيضا لكني تأخرت، لن تحتاج إليَّ لتبدأ طريقا طويلا كالذي مشيته أنا هناك، سأضعك على النصف الثاني من الطريق مباشرة، وستضع ابنتك في طريق أفضل كثيرا من البداية.

كان الأمر في وقته تماما، فرصة مدهشة ليتخلص من كل مخاطر ما يحدث الآن في دجا. وأن يتخلص من احتمالات القبض عليه وأن يرحل تماما مبتعدا عن كل شيء، لكن نظرة واحدة إلى الرجل الجالس أمامه وتذكره للمرأة القابعة في المنزل جعلاه يتردد. من الواضح أن نور كانت تسعى لذلك دون أن تخبره، طريقة ادخارها وتحويلها للنقود إلى عملات أجنبية لم يلفتا نظره إلا الآن، لِمَ لا؟ يترك وطنه الأكبر كما ترك الأصغر بعد أن اتضح أنهما وحدة لا تنفصل، كل ما يحدث يؤكد ذلك.

لم يعلن بشير قبوله للفكرة مباشرة، أراد أن يرى أباه عن قرب أولا ليعرف ما فعله فيه سفره قبل أن يقدم على نفس الخطوة، دعاه للإقامة عنده لكنه رفض ببساطة:

ـ أريد أن أقضي الليلة في فندق صغير في الحسين، كنت أقيم فيه كلما جئت إلى القاهرة.

هز بشير كتفيه وهو يجيب:

ـ كما تريد.

ثم نظر إليه صامتا وهو يتذكر كلام باركلي العجوز:

ـ أجمل تسالي نهاية العمر ما ارتبط بماضٍ جميل.

عرفات أيضا رجل عجوز جاء يبحث عن ذكرياته، تأكد بشير من ذلك عندما طلب رؤية أروكا بإلحاح، تردد لأنه لم يعد يحب أن يراها أي شخص بحالها الجديد لا سيما إن كان زوجا هجرها وهي في قوتها، حتى هلال عندما كان يزوره كان بشير يرفض أن

تخرج أمه من غرفتها، لاحظ عرفات ما بدا عليه من رفض فهمس في ضعف :

ـ أرجوك.

لم يجد بشير بُدًا من القبول على مضض، أدخله إلى غرفتها بعد أن أصلح هندامها بيديه.

وقف عرفات أمامها مندهشا دون أن يتكلم، وعندما سمعها وهي تنادي نور بيرجيت سالت دموعه؛ ربما لأنه شعر أنه مسئول عما حدث. اقترب منها مناديا باسم أعاد بشير إلى طفولته المبكرة بينهما:

ـ رووكي !

ـ نظرت إليه في تفحص، ظلت تحدق في وجهه فابتسم، رفعت كفها وهوت به على وجهه في غضب، نظر بشير إليها في دهشة وهي تردد في صوت خافت:

ـ شرير.

لم تبدُ على عرفات أي انفعالات، بينما شعر بشير بانتعاشة مفاجئة؛ لأول مرة يرى أمه تنتصر لنفسها ولو في موقف تافه.

اصطحبه بشير إلى الفندق، كان فندقا نوبيًا صغيرا في مواجهة مسجد الحسين، اختار عرفات غرفة تطل عليه مباشرة ووقف يحدق في مآذنه في ارتياح حتى إنه لم يرد على تحية بشير وهو يغادره، بل اكتفى بهزة صغيرة من رأسه دون أن يديره عن مستقر عينيه.

في اليوم التالي التقيا على الإفطار في مطعم شعبي قريب من مكان إقامته، كرر عرفات دعوته لبشير ونور لكي يذهبا معه إلى فرنسا لا سيما وهو يخبره أن ما تعلمه هناك أن القانون الموجود هناك يختلف عن هنا، إذا كان ما حدث له شق أمني فلن يتركوا أحدا حتى بشير، أعلن بشير موافقته وفي قلبه مرارة غصبا عنه، لم يكن يريد أن يصبح الصدقة التي سيفعلها عرفات في نهاية حياته لكي يكفر عن كل الذنوب. خاله هلال أتى من فوره بمجرد أن عرف بعودة عرفات، كان لقاؤهما حارًا مليئا بالذكريات والضحك، لكن ضحكهما كان بائسا.. كلاهما كان يعرف أن الآخر باع الأحلام والأفكار التي كانا يحملانها في شبابهما.. دجا انتصرت عليهما بخرافاتها، هما اللذان تغيرا أما هي فظلت على حالها.. عندما قال بشير ذلك أجابه هلال كما لو كان يدافع عن نفسه:

ـ دجا أيضا انتهت تماما.

حكى أن الجثث الملقاة في الشوارع مع الحرارة الشديدة وانقطاع كل الموارد ومنع الدخول والخروج أدوا إلى تفشي أوبئة قضت على كل من فيها، نظر بشير إلى أمه التي كانت تجلس صامتة محدقة في الفراغ وهو يتذكر اليوم الذي فعلت فيه هي أيضا نفس ذلك الحظر من أجله وحده، دجا الآن تحت الحجر الصحي بعد أن كانت تحت الحجر الأمني، والأنباء الآتية من هناك تؤكد أن كل من فيها في عداد الأموات، بل صدر قرار بحرق المدينة بالكامل بعد التأكد من عدم وجود أحياء تحسبا لتفشي الأوبئة التي فيها؛ الكوليرا والطاعون والحمى الصفراء.

تنهد بشير في أسى وهو يقول:

- دجا ساقطة من الزمن، حتى أوبئتها هي تلك الأوبئة التي عفا عليها الزمن.

ثم يصارح أحدا بما دار في ذهنه في تلك اللحظة بعد أن تذكر ما قالته له جنة بأن عودته لعنة، تصبب عرقا باردا وهو يفكر في أنها كانت على حق.. فكل ما حدث تقريبا مرتبط بعودته.

بدا مشهد حرق المدينة بأكملها كما لو كان مشهدا أخيرا من فيلم عن نهاية العالم، رجال يرتدون ملابسَ تشبه ما يرتديه رواد الفضاء يقلِّبون في الجثث واحدة تلو الأخرى للتأكد من عدم وجود أحياء، حرق للمدينة بأكملها على الهواء. عدد الأحياء الذين خرجوا منها كان محدودا للغاية، لم يرَ أحدا ممن يعرف؛ لا أود! ولا شهلي، وهكذا انتهت دجا تماما..

(٣٨)

لم تطل زيارة عرفات، اكتفى برشفة سريعة من ماء الماضي ثم استعد للرحيل، استوفى لهم أوراق السفر وذهب معهما إلى السفارة من أجل تأشيرة الدخول، أكد لهم أن رعاية أروكا هناك ستكون أيسر وأكثر علما واحترافية فأراح قلب ولده تماما، ثم سافر إلى فرنسا ليعد لهم كل شيء هناك على حد قوله، ودعه بشير وهو يفكر في أنه قد يختفي هناك مرة أخرى، استعادة الذكريات القديمة، لكن عرفات ظل على اتصال مباشر بهما إلى أن أخبره بشير وهو يضحك في عصبية بما قلب حسابات الجميع:

ـ السفارة رفضت منحنا تأشيرات دخول.

في البداية أعلن عرفات عن غضبه لما حدث وأكد أنه سيجد حلًا لأنه (مواطن فرنسي)، بمرور الأيام بدا أكثر إحباطا وأقل غضبا؛ ربما لأنه اكتشف مرة أخرى أن وجوده هناك له حدود وقواعد تؤكد أنهم أيضا يعرفون أنه ليس فرنسيًا خالصا، بدا لبشير أن نور كانت تحمل أحلاما عريضة تكشفت له عندما رأى انهيارها لفشل مشروع السفر، أما هو فلم يكترث كثيرا، كل أحلامه كانت تنحصر في حياة طبيعية بسيطة، عرف منذ سنوات أنه لن يحظى بها.. لأنه أتى من دجا..

تماسكت نور سريعا وبدأت في إعداد خطتها البديلة، أولى الخطوات كانت انتقال الجميع بما في ذلك أهلها وأخوها إلى منزل آخر في حي مزدحم أيضا، وأن يستخدم بشير اسم شهرة جديد من باب الحذر، اختارت له اسم أبيه (عرفات)، ثم بدأت في البحث عن مشروع تجاري ليصبح مصدرا لدخل ثابت لهما بعيدا عن هلال أيضا. تعددت الأفكار المطروحة والتي غالبا ما كان يتبناها طرف ويرفضه الآخر، اتفقا في النهاية على تأسيس حضانة للأطفال في واحد من المناطق الراقية، بدأت نور في البحث لتنفيذ مخططها كاملا وبشير ينتظر، لكن عودة عرفات الدجاوي غيرت كل شيء.

وجداه يدق بابهما فجأة في منتصف الليل دون مقدمات، هذه المرة فرح بشير به، شعر برغبة حقيقية في أن يغفر له كل ما كان، فهو لم يأتِ مجبرا ولا من أجل زيارة سريعة، أخبرهم بقراره وهو يطلق ضحكة مشروخة:

ـ لم يعد هناك جدوى من بقائي هناك، عندما قلت لهم إنني مواطن فرنسي لم أرَ على وجوههم ما يؤيد ذلك، قررت أن أعتبر كل ما قضيته هناك مجرد عقد عمل.

أخذ جرعة من كوب العصير الذي كان أمامه ثم قال:

ـ لست مندهشا، هذا هو العدل.. فلا أنا اعتبرتها وطني ولا هي اعتبرتني مواطنا، من يولد غريبا في وطنه يظل غريبا إلى الأبد.. على الأقل سيمنحني جواز السفر الذي أحمله هنا قيمة لم أجدها هناك.

كان الرجل يعزي نفسه ولا شك، لا بد أنه قضى لياليَ طويلة وحيدا هناك تتصارع أفكاره عما سيفعله في الأمتار القليلة الباقية من حياته،

ثم وجدها فرصة سانحة ليحمي ولده ويرعى زوجته إلى أن تموت حتى يكفر عن ذنبه تجاهها.. عاد هو أيضا بخطة مكتملة؛ صفى كل أملاكه هناك واشترى شقتين في الإسكندرية على البحر، وتحتهما أسس مقهى كبيرا أسماه (الفرنساوي)؛ رأى بشير الكلمة تعبر عن صاحبها، لاهي عربية ولا فرنسية بل تتأرجح بينهما.

انفجر بشير في ضحك هيستيري وهو يحضر جلسة الوداع بين أبيه وهلال؛ عندما وجد الأخير يقول في هدوء مصطنع:

ـ أنا سأفعل العكس.

نظروا إليه جميعا مستفسرين فقال بصوت خافت:

ـ زوجتي أيضا قررت أن تعود إلى بلادها بعد كل تلك السنوات، خيرتني بين أن نفترق أو أن أقضي معها هناك ما تبقى من عمري بعد أن قضت هي معي عمرها بأكمله.

شرح لهم وجهة نظره باقتضاب:

ـ هي تريد وطنها وأنا أصبحت بلا وطن.. سأذهب معها.

كانت ضحكات بشير التي أدهشت الجميع هي ضحكات انفعال حزين خرجت بشكل عكسي، اكتشف فجأة أن هناك أوطانا تموت كما تمنى يوما، تلفظ أبناءها ويلفظونها هم أيضا، ولا تجد هي بعد ذلك عنهم بديلا، ولا هم يجدون لأنفسهم مستقرّا حقيقيًا مهما تظاهروا بغير ذلك، يعيشون في التيه، في صراع بين النبتة المزروعة في صدورهم وبين نباتات مختلفة تحتاج إلى بيئة وفكر ودرجة حرارة تختلف عن الموجودة في تلك الصدور، يظل الصراع خفيًا

في صدورهم وعلى أرض البلاد التي انتقلوا إليها، ليتحولوا جميعا إلى أنصاف. أنصاف مهاجرين في نصف وطن.

لم يمانع بشير بعد ذلك ولا حتى نور بأسرتها كاملة في الانتقال إلى نصف وطن جديد مع عرفات بأثلاثه؛ الثلث المصري والثلث الفرنسي والثلث الدجاوي، غادروا جميعا إلى الإسكندرية من أجل الانخراط معه في حياتهم الجديدة. أصبح بشير الملقب بعرفات الصغير مديرا للمقهى وأصبح الأب هو الخواجة رافي كما أطلقوا عليه، يجلس كل يوم بين رواد المكان الدائمين ليحكي قصصا طويلة عن السابق واللاحق. بشير أسس ركنا ثقافيا أصبح يدعو له شباب المثقفين والأدباء ليرضي شيئا في داخله، يحكي لهم أحيانا أجزاء من حكايات دجا ويتكلم عن الأكاذيب الموروثة هناك واحدة تلو الأخرى دون أن يصرح أنه عاش هناك يوما ما. كان لديه هاجس قديم أنه لم يجد دليلا على أن الأمن لم يبحث عنه، رغم أنه كان ينتظرهم كل يوم.. ورغم أن حمدي المحامي الذي أصبح عضوا شهيرا في مجلس الشعب قال له في مكالمة وحيدة أجراها بشير ليطمئن:

ـ لن يبحث عنك أحد، لكن إذا ظهرت في الصورة فلن يرحموك.

كان على حق، لم يتبعه أحد. ربما شك في ذلك الرجل الذي جلس مرة وحيدة على المقهى إلى جواره هو وأبيه يتحدث عن أن الحكومة قررت أن تنشئ مدينة جديدة هناك وتطلق عليها دجا الجديدة، أدار رأسه إليهما وهو يسأل في فضول :

ـ ألستما من أسوان؟ هل تعرفان تلك المدينة ؟

هزا رأسيهما معا وهما يجيبان في نفس واحد :

ـ نحن نوبيان.

قضى أبوه ما يزيد على عام في خدمة أمه، صفعته خلال ذلك العام ما يقرب من مائة مرة متبعة ذلك بكلمة واحدة : شرير. أكبر عدد من الصفعات في يوم واحد كان عندما جاءت بيرجيت لزيارة أبيه مع ابنتيها، كانت نظرة بشير إليهم مليئة بالغضب على ما رأى أنهم سرقوه من حياته فيما سبق وعلى الأيام التي جاءوا ليختلسوها من أجل زيارة بلد شرقي على سبيل السياحة، لكنه لم يبدِ لهم شيئا من ذلك.

انطلقت الأيام في سيرها لطيفة هادئة، أحب بشير الإسكندرية بهوائها وبحرها وبأطياف البشر الذين كانوا يتابعون في المجيء إلى المقهى، لأول مرة في حياته شعر أنه ينتمي إلى مكان ما؛ مدينة ترحب بمن يأتي إليها ولا تمسك به من رقبته لتغرس فيه أفكارا خاصة. بعد ما يزيد على عام أنجب ابنته الثانية فأصر عرفات على أن يطلق عليها اسم (رقية)، بعد أن شرح له أن هذا هو أصل اسم أروكا في لغة أهل دجا. رحب بشير ونور بالأمر، واندهشا كثيرا عندما جاءت الصغيرة تشبه جدتها وإن كانت بشرتها أفتح كثيرا، ثم رحلت رقية الكبرى بعد مجيء حفيدتها بأيام قليلة.

توقف قلب أروكا عن العمل فجأة على عكس عقلها الذي توقف بالتدريج، بدا حزن عرفات غير مبرر لهم جميعا كما لو كانت رفيقة عمره، لحق بها هو أيضا بعد ستة أشهر تقريبا ودفن إلى جوارها، وقف بشير يبكيهما في حسرة ودهشة من تصاريف القدر، ما بين دجا وباريس والإسكندرية. هذان اللذان فشلت الحياة في أن تجمع بينهما، يجمع بينهما الموت! غريب.

## (٣٩)

كم مضى على ذلك اليوم الذي وقف فيه أمام هذه اللافتة التي سقط منها حرف الألف وتركوه بغير إصلاح؟ سوان بدون ألف.. تأملها في حيرة وتردد متسائلا عن المدة الكافية لتتغير الأمور في هذه البقعة من العالم. ذهب بنور وابنتيه إلى أحد الفنادق ذات النجوم الخمسة. هناك توجد أحرف لامعة على المداخل وصور رائعة لنيل لا يعرفه وبقايا حضارة قديمة، أفضل ما يمكنك أن تفعله أن تشاهدها بغير من يحيط بها من البشر. فلا ترى الأطفال الذين يبولون على الحوائط، ولا تسمع واحدا من هؤلاء الذين سيخبرونك أن زيارتها من المحرمات. في بهو الفندق وجد خريطة كبيرة تحمل أسماء كل المدن المحيطة. ابتسم في رضا وهو يرى دجا قد تحولت إلى نقطة حمراء كبيرة الحجم، تغيرت ملامح نور وهي تراه يحدق في تلك النقطة بالتحديد، قالت في ترقب:

ـ ماذا ستفعل يا بشير؟

ابتسم وهو يجيب:

ـ ما فعله باركلي وعرفات منذ سنوات طويلة..

طلب سيارة من الفندق لتذهب به إلى هناك. وافقته نور على مضض، كانت تعرف أن كل شيء تغير منذ سنوات لكنها لم ترَ داعيا للزيارة، في النهاية تفهمت فضوله ورغبته في البحث عن ذكريات قديمة، حتى الأوقات العصيبة يكون لها مذاق آخر عندما تنضم إلى قائمة الذكريات، دخل إلى السيارة الفارهة والسائق يسأله في فضول عن سبب رغبته في زيارة دجا. أخبره أنه سيزور صديقا له يعيش هناك، ابتسم في ود وهو يؤكد له أنها مدينة جميلة وتستحق الزيارة.

اختلف الطريق عما كان عليه تماما. ممهد ومضاء ومتسع، على الطريق توجد استراحات متتالية ومقاهٍ صغيرة. أكبرها على الإطلاق في منتصف الطريق تماما.. اسمها كافتيريا داعو.

أدار بشير رأسه لينظر إليها في فضول، سأل السائق في اهتمام عن الاسم، أجابه بثقة أن داعو هو واحد من الآلهة الفرعونية الشهيرة في دجا، وهو من أوائل فراعنة مصر الذين حموها من الغزو القادم من الجنوب. ثم بدأ في ثرثرة تبدو مقنعة عن تاريخ داعو، كاد ينفجر ضاحكا لكنه أراده أن يتم حكايته حتى النهاية:

ـ لم أسمع به قبل اليوم.

تزايدت نبرة الثقة في كلماته وهو يقول:

ـ اكتشفوا مقبرته منذ ثلاثة أعوام فقط.. بعد الدك مباشرة.

ـ الدك؟

نظر إليه في المرآة وهو يقول:

ـ هذه المدينة كانت منذ أعوام قليلة مسكنا لجماعات من الدجالين والنصابين، كانوا يعملون بالسحر. جعلوها قبلة للمجرمين والقتلة لكي يحموا بها أنفسهم من الحكومة، وانضم إليهم المئات من الجماعات الإرهابية القادمة من جميع أنحاء العالم.. من الشمال والجنوب والشرق، حاولت الحكومة أن تقنعهم بتسليم أنفسهم إلا أنهم رفضوا، استغرق دكهم ما يقرب من يومين تحولت بعدها المدينة إلى كوم من التراب ثم أعادوا تأسيسها من البداية، وستراها بعينيك الآن نموذجا لمدينة حديثة حقيقية.

أغمض بشير عينيه على عشرات الذكريات، أفاق على صوته بعد قليل وهو يسأل:

ـ هل تحب أن آخذك في جولة في المدينة؟

هز رأسه موافقا، تغيرت بالفعل تماما، أصبحت مدينة. بنايات صغيرة تشبه مساكن الشباب التي يعرفها في القاهرة والإسكندرية، مبنى ضخما يمثل المجلس المحلي إلى جواره قسم الشرطة الذي حلم به. توقف به أمام مسجد ضخم وهو يسأله في تردد:

ـ تحب تزور؟

أومأ موافقا بدافع من الفضول، نزلا معا من السيارة. في الجزء الخلفي من المسجد كان يوجد مقام كبير محلى بالذهب والفضة، عشرات الناس يمسكون بمعدنه وأستاره يتلون ترانيمَ بلغات مختلفة، سماتهم تدل على أنهم أتوا من جميع أنحاء الدنيا، بعضهم يبكي وبعضهم يقف في سكون، يلقون بأوراق تحمل ما يطلبونه، سأله في مهابة عن صاحب المقام، فأجاب في خشوع:

ـ هذا مقام الشيخ الطائر..

تمالك بشير نفسه وهو يسمعه يحكي له في عجالة عن الشيخ الذي نذر نفسه لله منذ طفولته. وكيف كان يطير في الليل ليساعد المحتاجين حتى إنه لقب بالشيخ الطائر، وكيف أنه قام في وجه السحرة والخارجين عن القانون إلى أن قتلوه وعلقوا جثته في المدينة القديمة، إلا أن الطير لم يقترب منه، علقوها عشرة أيام فلم يتغير فيها أي شيء وظلت تنزف دماءها كما لو كان مصابا وليس ميتا، وعندما حدث الدك كان قبره هو المكان الوحيد الذي لم تصبه قذيفة واحدة؛ فبنوا عليه مسجدا أصبح مقصدا لكل الراغبين في الخير.

صمت بشير في حزن، توالت على عقله ذكريات عديدة، وضع السائق يده على كتفه وهو يهمس:

ـ تعالَ يا أستاذ، اقترب واطلب منه ما تريده، وسيفرج همك بإذن الله..

نظر بشير إليه في حزن وهو يفكر في أن يخبره بأنه هو الشيخ الطائر. لم يجد فائدة ترجى من ذلك، عاد متثاقلا إلى السيارة، عاد خلفه الرجل وقد تغير وجهه تماما. أدرك أنه واحد من الفاسقين الذين يأتون من الخارج ولا يعرفون الإيمان..

خيم عليهما الصمت وهما جالسان في السيارة، سأله بعدها بصوت خافت:

ـ إلى أين تريد الذهاب؟

أجابه بشير في فضول:

- هل تتبع دجا المحافظة؟

أجاب الرجل في بساطة:

- اسما فقط، لكنها بعيدة عن المحافظة؛ لذلك يديرها المأمور.. والشيخة.

أجابه بصوت مرتعد:

- الشيخة؟

هز رأسه في تأكيد:

- الشيخة بركة، وهي بركة بالفعل، تفك السحر وتخرج الجان بأمر الله..

فتح بشير فاه في دهشة.. ثم سأله في ترقب:

- كيف تبدو الشيخة بركة؟

ابتسم في فخر:

- لم أرها من قبل، لكني أعرف مكانها، كل يوم يأتي رجال ونساء من كل مكان ليطلبوا بركتها ومعونتها.

صمت للحظة ثم أردف مؤكدًا:

- الشيخة بركة بركة بالفعل، واصلة إلى الله مباشرة.

لم يستطع بشير أن يغالب فضوله، قال بتردد:

- خذني إليها..

ابتسم الرجل في فخر وهو يهز رأسه سعيدا بأنه دلّه على طريق من طرق الله، ثم انطلق بالسيارة.

خلف المنازل الحديثة كان هناك مبنى قديم يعرفه بشير جيدا، بيت إنجليزي قديم مكون من دورين، كان لم يزل على حاله الذي يضفي عليه هيبة كبرى. لم يغيروا لونه ولا هيئته ولا بوابته الخارجية التي وقف هو أمامها يوما حاملا طفلة صغيرة فانحنى له الجميع، نزلا من السيارة ووقفا أمام المنزل. جاءتهما شابة سمراء فائرة الجسد، نظرت إليهما في اهتمام، ثم سألت بلهجة لا تحمل أي نوع من الود أو الترحاب:

- هل تريدون الشيخة؟

هز السائق رأسه موافقا بينما كان بشير ينظر إليها متفحصا، لم تلتفت إليه بل واصلت حديثها مع السائق:

- لا يمكن، عليكم بموعد أولا..

اقترب بشير منها وهو يسألها:

- من أنتِ؟

أجابت بلامبالاة:

- أنا عسلية.. ابنة الشيخة.

ارتعد بشير في مكانه، نظرت إليه الشابة في شك للحظة؛ نظرت إلى نقطة ما خلفه، ثم اضطربت وأحنت رأسها إلى الأرض. تبعها السائق دون أن يلتفت بغير تفكير، أدار بشير رأسه فوجد الشيخة

أمامه، نظر إليها في فزع، كانت جنة العرافة هي من تقف أمامه، خلفها مطيعة الخادمة وشهلي الذي انحنى ظهره كثيرا بعد أن اقترب عمره من المائة. عرفها بشير وعرفته من فورها. مدت يدها وأمسكت بكفه ثم بصقت فيه بازدراء وهي تهمس بصوت يشبه الفحيح:

ـ هل عدت يا ابن أوروكا؟

حاول بشير أن يسحب كفه، لكنها أنشبت فيه أظافرها لتمنعه من ذلك وهي تقول:

ـ كفك أصبحت ناعمة. بقعة الشر أصبحت بلا خطوط تخرج منه أو تصل إليه، ستعيش وحدك غريبا ما تبقى من عمرك، ولن تنجب إلا الإناث.

رفعت عسلية رأسها للحظة ثم أحنتها مرة أخرى، ظل شهلي واقفا ينظر إلى بشير غاضبا. جذب بشير السائق من يده وهو يجري به في اتجاه السيارة، قفزا فيها وهو يأمره بأن يغادر بصوت كان فيه من الفزع ما يكفي لتنتقل عدواه إلى السائق الذي انطلق في سرعة جنونية.. استدار بشير ليراها تبتسم ساخرة لآخر مرة وتشير إلى رجاله لكي ينطلقوا خلف سيارته، سأل السائق عما إذا كان يعرف طرقا جانبية للخروج من المدينة، أومأ بالإيجاب وانحرف إلى طريق جانبي خاوٍ وهو يسأله عما يحدث، لم يجبه بشير والمشاهد القديمة تتابع أمام عينيه، تذكر ابنتيه، ولقاءه بجنة عندما قالت له إن عودته ستكون شرّا على تلك المدينة، وغربته في الإسكندرية، كيف عرفت جنة كل ذلك؟ كرر السائق سؤاله عما حدث فأخرج من جيبه مبلغا من المال وضعه إلى جواره وهو يقول:

ـ خذ، ولا تسأل مرة أخرى.

صمت الرجل وهو يسلك طريقه، هدأ بشير عندما استدار فلم يجد من يتبعهم، بعد دقائق عاد الرجل يتحدث مرة أخرى، وهو يستوضح الأمر، لم يجبه، أشار السائق إلى يمينه وهو يقول:

ـ هذه مساكن الأشمال، هم من تبقى من السحرة.

أدار بشير رأسه ليجد منازل من دور واحد مطلية بالسواد، لم يستطع أن يحدد إن كانت تلك هي منازل الأجراش القديمة، أم أنها تشبهها تماما، أمامها كان يلعب عدد من الصبية وامرأة عجوز تعلق نظره بها من خلف الزجاج، رفعت رأسها وبادلته نفس النظرة الذاهلة للحظات، أحنت رأسها باضطراب إلى الأكياس الصغيرة التي كانت تعدها، وأدار رأسه هو أيضا إلى الأمام ولم ينظر إليها مرة أخرى، فلاهو أراد أن يتأكد من أنها أودا.. ولا هي أرادت أن تصدق أنه بشير.

